

مواقف عربية خالدة

(5)

مواقف سياسية

إعداد

دكتور . رجب محمود إبراهيم بخيت

المقدمة :

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداءً وعدله اصطناعاً فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيهه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالسته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينّة والهدى ودين الحق فبلغ مآلكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصدده عنه زعم زاعم ماضياً على سنته موفياً على قصده حتى أتاه اليقين فصلّى الله على محمد وعلى آل محمد .

أما بعد

فالخير في الأمة الإسلامية باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فمهما ضعفت الأمة، ومهما تأخرت عن مكانها اللائق بها باعتبارها خير أمة أخرجت للناس، ومهما عظمت المؤامرة عليها وتنوعت أدواتها، إلا أنها تبقى أمة خصبة، تنبت الأعلام العظماء، يكونون فيها كالمصابيح في الدجى، وتظل مواقفهم مواقف عزة وفخر لهم وللأمة الإسلامية كلها.

ونحن المسلمون إذا تصفحنا مواقف تاريخنا المديد نجد أعلاماً للأمة في كل العلوم والآداب في الذود عن الحق والوقوف في وجه الباطل وفي اللغة والفقه والحديث و..... وكلها آيات رائعة يفوح منها الشذى العاطر، وتؤكد بقاء هؤلاء الأعلام بيننا بعلمهم وعملهم وذكرهم العطرة ، فقد وعت ذاكرة التاريخ أمثلة رائعة من مواقف مشوقة لأعلام الأمة.

إن هذه الأمة أمة عظيمة، أمة كريمة مجيدة، ما شهد التاريخ مثلها، وما عرف المخاض مولوداً أكرم على الله منها، أمة تغفو ولكنها لا تنام، قد تمرض ولكنها لا تموت، أمة أنجبت للعالم أعلاماً في كل فن من الفنون وكل نواع من أنواع المعارف الإنسانية وأخرجت للكون أبطالاً شرفاء، ولنا اليوم وقفة مع أشهر المواقف في حياة الأمة لنقلب الصفحات ولنلتمس العبر والعظات.

اقرأوا التاريخ إذ فيه العبر... ظل قوم ليس يدرون الخبر

و هؤلاء الأعلام بعلمهم وعملهم أحياء وإن وسدوا في قبورهم، وإن وارا هم التراب، وإن فقدت شخصهم، إلا أنهم أحياء بعلمهم وبتراثهم، ومواقفهم، بجهودهم، وبآرائهم، وباجتهاداتهم، وبأعمالهم التي كلما ذكرت ذكروا، فأثنى الناس عليهم خيراً، وترحموا عليهم، بل وكرهوا البقاء بعدهم. عفاءً على أرض تقيم بغيرها فليس بها للصالحين معرج لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح في أثوابها تتبهرج وليس البكا أن تسفح العين إنما أحر البكاين البكاء المولج

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: القلوب أوعية فخيرها أوعاها للعلم، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجا، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال.... مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة... أولئك هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله الحجة حتى يؤدونها إلى نظرائهم، ويزرعونها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلنوا ما استوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة في المحل الأعلى، آه.. آه.. شوقاً إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك).

وهذه صفحات من حياة الأمة أودعتها مواقفاً من حياة الأعلام في مختلف المجالات، ونتفأ مواقف أعلام الفقه والحديث والقضاء والأدب واللغة،

ونادراً من ثبات أكثر أهل الملة، ونبذاً من نصح الأمة لدينها، وشذراً من زهد العلية الأجلّة، وطيفاً من قوة البرهان والحجة مع السير على المحجة. وهي باقية من مكارم الآباء تهدي إلى الأبناء، وطاقت علمية نادرة، وعبقريات فذة مدهشة، هي لأهل العلم تذكرة، وللعامّة والخاصة تبصرة، نرجو أن ينعش بها العليل، ويشحذ بها الكلّيل، ويُبعث الوسنان، ويُوَقَّظ الهاجع، ويُنشر المطوي، ويُفتح المغلق، وينهض المقعد، ويمشي الكسيح.

أضعها بين أيديكم كالمائدة تختلف عليها أصناف الأطعمة لاختلاف شهوات الآكلين، وأنا لا أدعي -معاذ الله- أني أتيت فيها بجديد، ولكني -بفضل الله وحده - جمعتها من بطون الكتب لتكون بين أيديكم لعل الله عز وجل أن ينفع بها. وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه .

رب تقبل عملي ولا تخيب أمني
أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.
وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

كلمة حق عند سلطان جائر

يقول تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .. " .

{ كنتم خير أمة أخرجت للناس } ..

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة؛ لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها هي خير أمة . والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض . ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية . إنما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها . وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه . ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح ، والتصور الصحيح ، والنظام الصحيح ، والخلق الصحيح ، والمعرفة الصحيحة ، والعلم الصحيح .. هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها ، وتحتمه عليها غاية وجودها . واجبها أن تكون في الطليعة دائماً ، وفي مركز القيادة دائماً . ولهذا المركز تبعاته ، فهو لا يؤخذ ادعاء ، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له .

. وهي بتصورها الاعتقادي ، وبنظامها الاجتماعي أهل له . فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي ، وبعمارتها للأرض - قياماً بحق الخلافة - أهلاً له كذلك .. ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير؛ ويدفعها إلى السبق في كل مجال .. لو أنها تتبعه وتلتزم به ، وتدرك مقتضياته وتكاليفه .

وفي أول مقتضيات هذا المكان . أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد .. وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهي خير أمة أخرجت للناس . لا عن مجاملة أو محاباة ، ولا عن مصادفة أو جزاف - تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً - وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » .. كلا! إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر :

{ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله } ..

فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما في طريقها من أشواك .. إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد .. وكل هذا متعب شاق ، ولكنه كذلك

ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانتة؛ ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة ..

ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر . فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي . فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل . ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر ، وللفضيلة والرذيلة ، وللمعروف والمنكر . يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال .

وهذا ما يحققه الإيمان ، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه . وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون . . ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية . ومن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد . ومن سلطان الله في الضمائر ، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك .

ثم لا بد من الإيمان أيضا ليملك الدعاة إلى الخير ، الأمر بالمعروف ، الناهون عن المنكر ، أن يمشوا في هذا الطريق الشاق ، ويحتملوا تكاليفه . وهم يواجهون طاعوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاعوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكلل العزائم ، وثقله المطامع . . وزادهم هو الإيمان ، وعدتهم هي الإيمان . وسندهم هو الله . . وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد . وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفَلّ ، وكل سند غير سند الله ينهار!

وقد سبق في السياق الأمر التكليفي للجماعة المسلمة أن ينتدب من بينها من يقومون بالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما هنا فقد وصفها الله سبحانه بأن هذه صفتها .

ليدلها على أنها لا توجد وجوداً حقيقياً إلا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية ، التي تعرف بها في المجتمع الإنساني . فإما أن تقوم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مع الإيمان بالله - فهي موجودة وهي مسلمة . وإما أن لا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة . وغير متحققة فيها صفة الإسلام .

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة. وفي السنة كذلك طائفة صالحة من أوامر الرسول - ﷺ - وتوجيهاته نقتطف بعضها :

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » (1)

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى بن مريم . . ثم جلس - وكان متكئاً - فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً » أي تعطفوهم وتردوهم (2)

وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً ، منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » (3)

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » (4).

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « سيد الشهداء حمزة . ورجل قام إلى سلطان جائر ، فأمره ونهاه ، فقتله » (5)

(1) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه والنسائي و قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : 6250 في صحيح الجامع

(2) رواه الترمذي برقم (3050) وقال : هذا حديث حسن غريب، وقال الألباني : (ضعيف) انظر حديث رقم : 4773 في ضعيف الجامع .

(3) رواه الترمذي و قال الشيخ الألباني : (حسن) انظر حديث رقم : 7070 في صحيح الجامع

(4) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي 124/4 رقم 4344، والترمذي في سننه كتاب الفتن، باب ما جاء في أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر 409/3 رقم 2174.

(5) رواه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد.

ويقول الحبيب محمد ﷺ: ((إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُودع منها)) (1)، فالرسول عليه الصلاة والسلام يحذر من السكوت على الظالم، وهذا هو الملاحظ في عصرنا الحاضر فقد انطبقت نبوءة الرسول عليه الصلاة والسلام على أمتنا الإسلامية التي تهاب وتخاف من الظالم، فلا تقول له: أنت ظالم.

وغيرها كثير.. وكلها تقرر أصالة هذه السمة في المجتمع المسلم، وضرورتها لهذا المجتمع أيضاً. وهي تحتوي مادة توجيه وتربية منهجية ضخمة. وهي إلى جانب النصوص القرآنية زاد نحن غافلون عن قيمته وعن حقيقته. (2)

وقد شهد تاريخ الأمة الإسلامية نماذج وضيئة وشفافة للقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسوف نعرض لبعضها في قادم الصفحات. **إذا رأيت المداحين فاحثوا في أفواههم التراب....**

كان عبادة بن الصامت مع معاوية، فأذن يوماً، فقام خطيب يمدح معاوية، ويثني عليه، فقام عبادة بتراب في يده، فحشاه في فم الخطيب، فغضب معاوية. فقال له عبادة: إنك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله -ﷺ- بالعقبة على السمع والطاعة في منشطنا، ومكرهنا، ومكسلنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حيث كنا، لا نخاف في الله لومة لائم، وقال رسول الله -ﷺ- (إذا رأيت المداحين، فاحثوا في أفواههم التراب). (3)

إن عبادة أفسد علينا الشام!؟....

عن ابن خثيم، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه، عن أبيه: أن عبادة بن الصامت مرت عليه قطارة (4) - وهو بالشام - تحمل الخمر، فقال: ما هذه؟ أزييت؟

قيل: لا، بل خمر يباع لفلان. فأخذ شفرة من السوق، فقام إليها، فلم يذر فيها راوية إلا بقرها - وأبو هريرة إذ ذاك بالشام - فأرسل فلان إلى أبي هريرة، فقال: ألا تمسك عنا أخاك عبادة، أما بالغدوات، فيغدو إلى السوق يفسد على

(1) أخرجه أحمد (189/2)، والحاكم (108/4) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وضعفه البيهقي بقوله: محمد بن مسلم هذا هو أبو الزبير، ولم يسمع من عبد الله بن عمرو بن العاص. السنن الكبرى (95/6)، وضعفه أيضاً الألباني في ضعيف الترغيب (1392).

(2) سيد قطب الظلال، 1 / 450

(3) سير أعلام النبلاء، 2 / 9

(4) القطارة، أن تشد الإبل علي نسق واحد، واحد خلف واحد

أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشي، فيقعد في المسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا وعيبننا! قال: فأتاه أبو هريرة، فقال: يا عبادة، ما لك ولمعاوية؟ ذره وما حمل. فقال: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وألا يأخذنا في الله لومة لائم. فسكت أبو هريرة.

وكتب فلان إلى عثمان: إن عبادة قد أفسد علي الشام.(1)

عامر بن عبد قيس : لا أري ذمة الله تخفر وأنا حي:

مر عامر بن عبد قيس - رحمه الله - في الرحبة ، وإذا رجل يظلم ، فألقي رداءه وقال : لا أري ذمة الله تخفر وأنا حي فأستنقذه .

ويروي أن سب إبعاده إلي الشام كونه أنكر الظلم وخلص هذا الذمي .
وبعث إليه أمير البصرة : ما يمنعك أن تأتي الأمراء ؟ فقال : إن لدي أبوابكم طلاب الحاجات ، فادعوهم وأقضوا حاجاتهم ، ودعوا من لا حاجة له إليكم
!!! (2)

أبو هريرة رضي الله عنه : أرقب أنت علي؟!

حَدَّثَ الْأَوْزَاعِيُّ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو كَثِيرٍ قَالَ : أَتَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَسْتَفْتُونَهُ ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَوَقَفَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَلَمْ تَنْهَ عَنِ الْفُتْيَا؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَرْقِيبُ أَنْتَ عَلَيَّ؟ لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ (3) عَلَى هَذِهِ وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أَنْفَذْتُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لَأَنْفَذْتُهَا. (4)

ابن طاووس : أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها !

عن مالك بن أنس قال : بعث أبو جعفر المنصور إلي وإلى ابن طاوس فأتيناه فدخلنا عليه فإذا هو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه أنطاع قد بسطت وجلوزة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق .
فأوما إلينا : أن اجلسا . فجلسنا .
فأطرق عنا طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلي ابن طاوس فقال له : حدثني عن أبيك .

¹ (سير أعلام النبلاء ، 10 / 2)

² (سير أعلام النبلاء ، 18 / 4)

³ (الصمصامة : السيف الصارم)

⁴ (سير أعلام النبلاء ، 64 / 2)

قال : نعم سمعت أبي يقول : قال رسول الله ﷺ : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله . فأمسك ساعة .

قال مالك : فضمت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه .

ثم التفت إليه أبو جعفر فقال : عطني يا ابن طاوس .

قال : نعم يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول : " ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد " .

قال مالك : فضمت ثيابي مخافة أن يملأ ثيابي من دمه .

فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه .

ثم قال : يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة .

فأمسك عنه ثم قال : ناولني هذه الدواة : فأمسك عنه .

فأمسك عنه .

فقال : ما يمنعك أن تناولنيها قال : أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها .

فلما سمع ذلك قال : قوماً عني قال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم .

قال مالك : فما زلت أعرف لا بن طاوس فضله .⁽¹⁾

أبو هريرة : لقد هممت أن أفعل وأفعل :

قال أبو بكر بن أبي شيبة: قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة فقال له : أتظل عن ابنة فلان تروحك بالمرأوح وتسقيك الماء البارد وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر ! لقد هممت أن أفعل وأفعل ثم قال : اسمعوا من أميركم .

ابن أبي ذئب لأبي جعفر المنصور : إنك لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية !!

عن الأصمعي قال : حدثني رجل من أهل المدينة كان ينزل بشق سمعت أبا جعفر بالمدينة وهو بنظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليسوا من قريش فقالوا لأبي جعفر : اجعل بيننا وبينه ابن أبي ذئب . فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب : ما تقول في بني فلان قال أشرار من أهل بيت أشرار .

قالوا : اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد وكان عامله على المدينة -
قال : ما تقول في الحسن بن زيد قال : يأخذ بالإحنة ويقضي بالهوى .
فقال الحسن : يا أمير المؤمنين والله لو سألته عن نفسك لرمأك بداهية أو
وصفك بشر .

قال : ما تقول في قال : اعفني .

قال : لا بد أن تقول .

قال : لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية .

قال : فتغير وجه أي جعفر .

فقال إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي صاحب الموصل : طهرني بدمه يا أمير
المؤمنين .

قال : اقعد يا بني فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله ظهور .⁽¹⁾

أبو مسلم الخولاني لمعاوية بن أبي سفيان : السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَجِيرُ !!

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَرَسِيِّ مِنْ حَرَسِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ : دَخَلَ أَبُو مُسْلِمٍ
الْخَوْلَانِي عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَجِيرُ ، فَقَالَ
النَّاسُ : مَهْ ، الْأَمِيرُ يَا أَبَا مُسْلِمٍ ، ثُمَّ قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَجِيرُ ، فَقَالَ
النَّاسُ : الْأَمِيرُ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : دَعُوا أَبَا مُسْلِمٍ ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَالَ
أَبُو مُسْلِمٍ : إِنَّمَا مَثَلُكَ مَثَلُ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا ، فَوَلَّاهُ مَا شِئْتَهُ ، وَجَعَلَ لَهُ
الْأَجْرَ عَلَى أَنْ يُحْسِنَ الرَّعِيَّةَ ، وَيُوفِّرَ جَزَاَهَا وَأَلْبَانَهَا ، فَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ
رَعِيَّتَهَا ، وَوَفَّرَ جَزَاَهَا ، حَتَّى تَلْحَقَ الصَّغِيرَةُ ، وَتَسْمَنَ الْعَجْفَاءُ ، أَعْطَاهُ
أَجْرَهُ ، وَزَادَهُ زِيَادَةً ، وَإِنْ هُوَ لَمْ يُحْسِنِ رَعِيَّتَهَا ، وَأَضَاعَهَا ، حَتَّى تَهْلِكَ
الْعَجْفَاءُ ، وَتَعْجَفَ السَّمِينَةُ ، وَلَمْ يُوفِّرْ جَزَاَهَا وَأَلْبَانَهَا ، غَضِبَ عَلَيْهِ ،
فَعَاقَبَهُ ، وَلَمْ يُعْطِهِ الْأَجْرَ » ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ .⁽²⁾

**أبو مسلم الخولاني لمعاوية بن أبي سفيان : إنه ليس من كدك ولا من كد
أبيك، ولا كد أمك !!!**

وهناك موقف عملي آخر لأبي مسلم الخولاني مع معاوية أيضاً، وذلك عندما
صعد معاوية المنبر - وكان قد حبس العطاء - فقام أبو مسلم وقال له: لم
حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك، ولا كد أمك حتى
تحبس العطاء، فغضب معاوية غضباً شديداً، ونزل عن المنبر، وقال للناس
مكانكم، وغاب عن أعينهم ساعة ثم عاد إليهم فقال: إن أبا مسلم كلمني بكلام

¹ (ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 1 / 32)

² (ابن الجوزي ، المصباح المضيء .)

أغضبني، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل وإني دخلت فاغتسلت وصدق أبو مسلم: إنه ليس من كدي ولا كد أبي، فهللوا إلى أعطيائكم⁽¹⁾.

قد عرف أبو مسلم مسؤولية العالم، فأدى واجبه في النصيحة للإمام . وعرف معاوية مسؤولية الحاكم، فاستجاب لمن حاسبه في الحق، ولم تأخذه العزة بالإثم.

عالم أزهرى للخديوي إسماعيل : هذا منك يا إسماعيل!.... فكيف تنتظر النصر من السماء؟!!

لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة، وتوالت الهزائم على مصر بسبب وقوع الاختلاف بين قواد جيشها . ضاق صدر الخديوي إسماعيل لذلك فجمع عددًا من علماء الأزهر ليجتمعوا أمام القبلة القديمة في الجامع الأزهر للابتهاال والدعاء بطلب النصر. ولكن مع ذلك ظلت أخبار هزائم الجيش المصري تتوالى. فذهب الخديوي إلى هؤلاء العلماء، وأعلمهم باستغرابه لعدم استجابة دعائهم وقال: إنكم لستم العلماء الذين تعهدهم من رجال السلف الصالح، فإن الله لم يدفع بكم ولا بدعائكم شيئاً! فوجم العلماء لكلام الخديوي إلا شيخاً واحداً قائلاً: (هذا منك يا إسماعيل! فقد رويناه عن النبي ﷺ أنه قال : "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم").

فسأل الخديوي الشيخ الأزهرى الذي جابهه بكلمة الحق وصيحة الصدق :
- وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟
فأجابه :

- أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا؟ أليس الزنا برخصة؟ أليس الخمر مباحاً؟

وعدد الشيخ للخديوي المنكرات التي تشيع في مصر بلا إنكار. ثم قال:
فكيف تنتظر النصر من السماء؟!
وأطرق الخديوي ملياً ثم قال له:

¹ (مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء ص 307 أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص 307 .

- صدقت صدقت⁽¹⁾.

شريح القاضي : إِنَّ الظَّالِمَ لَيَنْتَظِرُ الْعِقَابَ ، وَالْمَظْلُومُ يَنْتَظِرُ النَّصْرَ وَالثَّوَابَ .
وَكَانَ شُرَيْحُ الْقَاضِي يَقُولُ : سَيَعْلَمُ الظَّالِمُونَ حَقَّ مَنْ أَنْتَقَصُوا ، إِنَّ الظَّالِمَ لَيَنْتَظِرُ الْعِقَابَ ، وَالْمَظْلُومُ يَنْتَظِرُ النَّصْرَ وَالثَّوَابَ .

طاوس اليماني لسليمان بن عبد الملك : اتَّقِ يَوْمَ الْأَذَانِ
دَخَلَ طَاوُسُ الْيَمَانِيُّ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ : اتَّقِ يَوْمَ الْأَذَانِ ؛ قَالَ هِشَامٌ : وَمَا يَوْمُ الْأَذَانِ ؟ قَالَ : وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَذِّنْ مُؤَدِّنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } فَصَعِقَ هِشَامٌ ، فَقَالَ طَاوُسٌ : هَذَا ذُلُّ الصِّفَةِ فَكَيْفَ الْمُعَايَنَةُ ؟

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : لَا تَمَلُّوا أَعْيُنَكُمْ مِنْ أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ
وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : لَا تَمَلُّوا أَعْيُنَكُمْ مِنْ أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ إِلَّا بِانْكَارٍ مِنْ قُلُوبِكُمْ لِئَلَّا تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ الصَّالِحَةُ .

فسوف يأتيك ماتكره

قال الواقدي: استعمل ابن الزبير جابر بن الأسود بن عوف الزهري على المدينة، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير.
فقال سعيد بن المسيب: لا، حتى يجتمع الناس. فضربه ستين سوطاً، فبلغ ذلك ابن الزبير، فكتب إلى جابر يلومه، ويقول: ما لنا ولسعيد، دعه.
وكان جابر بن الأسود - عامل ابن الزبير على المدينة - قد تزوج الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة، فلما ضرب سعيد بن المسيب، صاح به سعيد والسياط تأخذه: والله ما ربعت على كتاب الله، وإنك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة، وما هي إلا ليالٍ، فأصنع ما بدا لك، فسوف يأتيك ما تكره.

فَمَا مَكَثَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ.

الله بيني وبين من ظلمني.

قال الواقدي: توفي عبد العزيز بن مروان بمصر سنة أربع وثمانين، فعقد عبد الملك لابنيه: الوليد وسليمان بالعهد، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان، وعامله يومئذ على المدينة هشام بن إسما عيل المخزومي.

¹ (أحمد محمد جمال. مسؤولية العلماء في الإسلام- مكة المكرمة: دار الثقافة ، (1386هـ، ص

فَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَبَايَعُوا، وَأَبَى سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنْ يُبَايَعَ لَهُمَا، وَقَالَ: حَتَّى أَنْظُرَ. فَضْرَبَهُ هِشَامُ سِتِّينَ سَوْطاً، وَطَافَ بِهِ فِي ثُبَانٍ مِنْ شَعْرِ، حَتَّى بَلَغَ بِهِ رَأْسَ الثَّيْيَةِ، فَلَمَّا كَرُّوا بِهِ، قَالَ: أَيْنَ تَكْرُونَنِي؟ قَالُوا: إِلَى السِّجْنِ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنِّي ظَنَنْتُهُ الصَّلْبَ، مَا لَبِسْتُ هَذَا الثُّبَانَ أَبَداً. فَرَدُّوهُ إِلَى السِّجْنِ، فَحَبَسَهُ، وَكَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يُخْبِرُهُ بِخِلَافِهِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ يُلَوِّمُهُ فِيمَا صَنَعَ بِهِ، وَيَقُولُ: سَعِيدُ! كَانَ - وَاللَّهِ - أَحْوَجَ إِلَيَّ أَنْ تَصِلَ رَحْمَتُهُ مِنْ أَنْ تَضْرِبَهُ، وَأَنَا لَنَعْلَمَ مَا عِنْدَهُ خِلَافٌ. وَدَخَلَ قَبِيصَةُ بْنُ ذُوَيْبٍ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بِكِتَابِ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ يَذْكُرُ أَنَّهُ ضَرَبَ سَعِيداً، وَطَافَ بِهِ.

قَالَ قَبِيصَةُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، يَفْتَاتُ عَلَيْكَ هِشَامٌ بِمِثْلِ هَذَا، وَاللَّهِ لَا يَكُونُ سَعِيدٌ أَبَداً أَمَحَلَّ وَلَا أَلَجَّ مِنْهُ حِينَ يُضْرَبُ، لَوْ لَمْ يُبَايَعَ سَعِيدٌ، مَا كَانَ يَكُونُ مِنْهُ، وَمَا هُوَ مِمَّنْ يُخَافُ فَتْقَهُ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَكْتُبُ إِلَيْهِ. فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: أَكْتُبُ أَنْتَ إِلَيْهِ عَنِّي تُخْبِرُهُ بِرَأْيِي فِيهِ، وَمَا خَالَفَنِي مِنْ ضَرْبِ هِشَامٍ إِيَّاهُ. فَكَتَبَ قَبِيصَةُ بِذَلِكَ إِلَى سَعِيدٍ، فَقَالَ سَعِيدٌ حِينَ قَرَأَ الْكِتَابَ: اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ ظَلَمَنِي. (1)

وَعَنْ عُتْبَةَ مَوْلَى الْحَجَّاجِ، قَالَ: حَضَرْتُ سَعِيداً حِينَ أَتَى بِهِ الْحَجَّاجُ بِوَاسِطٍ، فَجَعَلَ الْحَجَّاجُ يَقُولُ: أَلَمْ أَفْعَلْ بِكَ؟! أَلَمْ أَفْعَلْ بِكَ؟! فَيَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ مِنْ خُرُوجِكَ عَلَيْنَا؟ قَالَ: بَيْعَةٌ كَانَتْ عَلَيَّ - يَعْنِي: لِابْنِ الْأَشْعَثِ -

فَغَضِبَ الْحَجَّاجُ، وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ، وَقَالَ: فَبَيْعَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَانَتْ أَسْبَقُ وَأَوْلَى.

وَأَمَرَ بِهِ، فَضْرَبَتْ عُنُقُهُ.

وَعَنْ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ، قَالَ مَالِكٌ:

كُنْتُ أَكْتُبُ لِلْحَجَّاجِ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ يَسْتَحِقُّنِي، وَيَسْتَحْسِنُ كِتَابَتِي، وَادْخُلْ عَلَيْهِ بَغِيرَ إِذْنٍ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْماً بَعْدَ مَا قَتَلَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ، لَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ مِمَّا يَلِي ظَهْرَهُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. فَخَرَجْتُ رَوِيداً، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ إِنْ عَلِمَ بِي قَتَلَنِي، فَلَمْ يَنْشَبْ قَلِيلاً حَتَّى مَاتَ. (2)

¹ (الذهبي: سير أعلام النبلاء، 4/230)

² (سير أعلام النبلاء، 4/338)

مكحول الدمشقي : فَيُجْمَعُونَ فِي تَابُوتٍ مِنْ نَارٍ فَيُلْقُونَ فِي جَهَنَّمَ .
وَقَالَ مَكْحُولُ الدِّمَشْقِيُّ : يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيُّ الظُّلْمَةِ وَأَعْوَانُهُمْ ؟ فَمَا يَبْقَى أَحَدٌ حَبْرَ لَهُمْ دَوَاةٌ أَوْ بَرَى لَهُمْ قَلَمًا فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا حَضَرَ مَعَهُمْ فَيُجْمَعُونَ فِي تَابُوتٍ مِنْ نَارٍ فَيُلْقُونَ فِي جَهَنَّمَ .

سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : بَلْ أَنْتَ مِنَ الظُّلْمَةِ أَنْفُسِهِمْ
وَجَاءَ خِيَّاطٌ إِلَى سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ : إِنِّي أَخِيطُ ثِيَابَ السُّلْطَانِ أَفْتَرَانِي مِنْ أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ ؟ فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ : بَلْ أَنْتَ مِنَ الظُّلْمَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنْ أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ مَنْ يَبِيعُ مِنْكَ الْإِبْرَةَ وَالْخُيُوطَ .
وَرَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ السَّوَّاطُونَ الَّذِينَ يَكُونُ مَعَهُمُ الْأَسْوَاطُ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ بَيْنَ يَدَيِ الظُّلْمَةِ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : الْجَلَاوِزَةُ ، أَيُّ أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ ، وَالشَّرْطُ أَيُّ بَضْمِ الْمُعْجَمَةِ وَفَتْحِ الرَّاءِ : وَلَاةُ الشَّرْطَةِ وَهُمْ أَعْوَانُ الْوَلَاةِ وَالظُّلْمَةِ ، الْوَاحِدُ مِنْهُمْ شَرْطِيٌّ : بَضْمٌ فَفَتْحٌ - كِلَابُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

{ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ } .
قَالَ بَعْضُهُمْ : رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ يَخْدُمُ الظُّلْمَةَ وَالْمَكَّاسِينَ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي حَالَةٍ قَبِيحَةٍ فَقُلْتُ لَهُ : مَا حَالُكَ ؟ فَقَالَ شَرُّ حَالٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِلَى أَيْنَ صَرْتَ ؟ فَقَالَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ ، قُلْتُ : فَمَا حَالُ الظُّلْمَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟ قَالَ شَرُّ حَالٍ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : { وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ } .

من رَأَى فَلَإِ يَظْلَمَنَّ أَحَدًا

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : رَأَيْتُ رَجُلًا مَقْطُوعَ الْيَدِ مِنَ الْكَتِفِ وَهُوَ يُنَادِي مَنْ رَأَى فَلَا يَظْلَمَنَّ أَحَدًا ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ : يَا أَخِي مَا قِصَّتُكَ ؟ فَقَالَ يَا أَخِي قِصَّتِي عَجِيبَةٌ ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ مِنْ أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ ، فَرَأَيْتُ يَوْمًا صَيَّادًا قَدْ اصْطَادَ سَمَكَةً كَبِيرَةً فَأَعْجَبْتَنِي ، فَجِئْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ : أَعْطِنِي هَذِهِ السَّمَكَةَ ، فَقَالَ لَا أُعْطِيكَهَا أَنَا أَخُذْ بِثَمَنِهَا قُوْتًا لِعِيَالِي ، فَضَرَبْتَهُ وَأَخَذْتُهَا مِنْهُ قَهْرًا وَمَضَيْتُ بِهَا ، قَالَ : فَبَيْنَمَا أَنَا مَاشٍ بِهَا حَامِلَهَا إِذْ عَصَّتْ عَلَيَّ ابْنَاهُمَا عِصَّةً قَوِيَّةً فَلَمَّا جِئْتُ بِهَا إِلَى بَيْتِي وَالْقَيْتَهَا مِنْ يَدَيَّ ضَرَبْتُ عَلَيَّ ابْنَاهُمَا أَلَمًا شَدِيدًا حَتَّى لَمْ أَنْمَ مِنْ شِدَّةِ الْوَجَعِ وَوَرَمَتْ يَدَيَّ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ الطَّبِيبَ وَشَكَّوْتُ إِلَيْهِ الْأَلَمَ فَقَالَ : هَذِهِ بُدُوُ أَكَلَةٍ أَقْطَعُهَا وَإِلَّا تَلَفْتَ يَدُكَ كُلَّهَا فَقَطَعْتُ ابْنَاهُمَا ثُمَّ ضَرَبْتُ يَدَيَّ فَلَمْ أَطِقْ النَّوْمَ وَلَا الْقَرَارَ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ ، فَقِيلَ لِي اقْطَعْ كَفَّكَ

فَقَطَعْتُهَا وَانْتَشَرَ الْأَلَمُ إِلَى السَّاعِدِ وَالْمَنِيِّ أَلَمًا شَدِيدًا وَلَمْ أَطِقِ النَّوْمَ وَلَا الْقَرَارَ وَجَعَلْتُ أَسْتَعِيثُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ ، فَقِيلَ لِي : اقْطَعْهَا مِنَ الْمِرْفَقِ فَاَنْتَشَرَ الْأَلَمُ إِلَى الْعِضْدِ وَضَرَبْتُ عَلَى عِضْدِي أَشَدَّ مِنَ الْأَلَمِ فَقِيلَ لِي : اقْطَعْ يَدَكَ مِنْ كَتِفِكَ وَالْأَسْرَى إِلَى جَسَدِكَ كُلِّهِ فَقَطَعْتُهَا فَقَالَ لِي بَعْضُ النَّاسِ : مَا سَبَبُ أَلَمِكَ فَذَكَرْتُ لَهُ قِصَّةَ السَّمَكَةِ ، فَقَالَ لِي : لَوْ كُنْتُ رَجَعْتُ مِنْ أَوَّلِ مَا أَصَابَكَ الْأَلَمُ إِلَى صَاحِبِ السَّمَكَةِ فَاسْتَحَلَّتْ مِنْهُ وَاسْتَرْضَيْتَهُ وَلَا قَطَعْتَ يَدَكَ ، فَادْهَبِ الْآنَ إِلَيْهِ وَاطْلُبْ رِضَاهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الْأَلَمُ إِلَى بَدَنِكَ .

قَالَ : فَلَمْ أَزَلْ أَطْلُبُهُ فِي الْبَلَدِ حَتَّى وَجَدْتَهُ فَوَقَعْتُ عَلَى رِجْلَيْهِ أَقْبَلَهُمَا وَأَبْكِي وَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ إِلَّا مَا عَفَوْتَ عَنِّي ، فَقَالَ لِي : وَمَنْ أَنْتَ ؟ فَقُلْتُ أَنَا الَّذِي أَخَذْتَ مِنْكَ السَّمَكَةَ غَضَبًا ، وَذَكَرْتُ لَهُ مَا جَرَى وَأَرَيْتَهُ يَدِي فَبَكَى حِينَ رَأَاهَا ثُمَّ قَالَ : يَا أَخِي قَدْ حَالَتْكَ مِنْهَا لِمَا قَدْ رَأَيْتَ بِكَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ ، فَقُلْتُ لَهُ : بِاللَّهِ يَا سَيِّدِي هَلْ كُنْتُ دَعَوْتُ عَلَى لِمَا أَخَذْتَهَا مِنْكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : اللَّهُمَّ هَذَا تَقْوَى عَلَى بَقْوَتِهِ عَلَى ضَعْفِي وَأَخَذَ مِنِّي مَا رَزَقْتَنِي ظُلْمًا فَأَرِنِي فِيهِ قُدْرَتَكَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا سَيِّدِي قَدْ أَرَاكَ اللَّهُ قُدْرَتَهُ فِي وَأَنَا تَائِبٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ مِنْ خِدْمَةِ الظُّلْمَةِ وَلَا عُدْتُ أَقْفَ لَهُمْ عَلَى بَابٍ وَلَا أَكُونُ مِنْ أَعْوَانِهِمْ مَا دُمْتُ حَيًّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

الأوزاعي : إن كانت لهم حراما فهي عليك حرام

قال الازواعي: لما فرغ عبد الله بن علي - يعني عم السفاح - من قتل بني أمية، بعث إلي، وكان قتل يومئذ نيفاوسبعين منهم بالكافر كوبات (1)، فدخل الآذن، فأذن للاوزاعي.

فدخلت علي عبد الله وهو على سريرته، وفي يده خيزرانة ينكت بها الارض، وحوله المسودة بالسيوف المصلتة، والعمد الحديد، والسيوف والنطع بين يديه، فسلمت، فنكت في الارض، ثم رفع رأسه إلي ثم قال: يا أوزاعي ! أتعد مقامنا هذا ومسيرنا رباطا "؟ فقلت: جاءت الآثار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " من كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله " .

قال: فنكت بالخيزرانة نكتا هو أشد من نكت الاول، وجعل من حوله يعضون على أيديهم، ثم رفع رأسه، فقال: يا أوزاعي ! ما تقول في دماء بني أمية ؟ قلت: جاءت الآثار عن رسول الله - ﷺ - أنه " لا يحل دم امرئ مسلم إلا

¹ (الكافر كوبات: جمع الكافر كوب: وهو المقرعة.

بإحدى ثلاث... [الحديث]، فنكت بالخيزرانة نكتا هو أشد من ذلك، وأطرق مليا، ثم رفع رأسه، فقال: يا أوزاعي ! ما تقول في أموال بني أمية ؟ فقلت: إن كانت لهم حراما فهي عليك حرام، وإن كانت لهم حلالا فما أحلها الله لك إلا بحقها.

قال: فنكت بالخيزرانة نكتا هو أشد من ذلك، وأطرق مليا، ثم رفع رأسه فقال: يا أوزاعي ! هممت أن أوليك القضاء، فقلت: أصلح الله الأمير، وقد كان انقطاعي إلى سلفك ومن مضى من أهل بيتك، وكانوا بحقي عارفين، فإن رأى الأمير أن يستتم ما ابتدأه آباؤه فليفعل، قال: كأنك تريد الأذن ؟ فقلت: إن ورائي لحرما بهم حاجة إلى قيامي بهم، وستري لهم، قال: فذاك لك، قال: فخرجت، فركبت دابتي وانصرفت، قال: فلم أعلم حين وصلت إلى بيروت إلا وعثمان على البريد، قال: قلت: بدا للرجل في ؟ فقال: إن الأمير غفل عن جائزتك، وقد بعث لك بمئتي دينار.

قال أحمد: فلم يبرح الأوزاعي مكانه حتى فرقها في الأيتام والأرامل والفقراء.⁽¹⁾

خذ لنفسك الأمان من ربك

قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: " بَعَثَ إِلَيَّ الْمَنْصُورُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَا بِالسَّاحِلِ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهِ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ فَرَدَّ عَلَيَّ وَأَجْلَسَنِي " ثُمَّ قَالَ: مَا الَّذِي بَطَأَ بِكَ عَنَّا يَا أَوْزَاعِي ؟ قُلْتُ: " وَمَا الَّذِي تُرِيدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ " قَالَ: أُرِيدُ الْأَخْذَ عَنكَ وَالِافْتِسَاسَ مِنْكَ، قَالَ: " فَانْظُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا تَجْهَلَ شَيْئًا مِمَّا أَقُولُ لَكَ " قَالَ: وَكَيْفَ أَجْهَلُهُ وَأَنَا أَسْأَلُكَ عَنْهُ وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ وَأَقْدَمْتُكَ لَهُ ؟ قُلْتُ: " أَنْ تَسْمَعَهُ وَلَا تَعْمَلَ بِهِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَرِهَ الْحَقَّ فَقَدْ كَرِهَ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ " قَالَ: فَصَاحَ ابْنُ الرَّبِيعِ وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى السِّيفِ، فَانْتَهَرَهُ الْمَنْصُورُ، وَقَالَ: هَذَا مَجْلِسُ مَثُوبَةٍ لَا مَجْلِسُ عُقُوبَةٍ، فَطَابَتْ نَفْسِي وَانْبَسَطَتْ فِي الْكَلَامِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثَنِي مَكْحُولٌ، عَنْ عَطِيَّةٍ، عَنْ بَشْرِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَيُّمَا عَبْدٍ أَتَاهُ مَوْعِظَةٌ مِنَ اللَّهِ فِي دِينِهِ فَإِنَّمَا هِيَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ سِيَقَتْ إِلَيْهِ، فَإِنْ قَبِلَهَا بِشُكْرٍ وَإِلَّا كَانَتْ حُجَّةً مِنَ اللَّهِ لِيَزْدَادَ بِهَا إِثْمًا، وَيَزْدَادَ عَلَيْهِ سُخْطًا " يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثَنِي مَكْحُولٌ، عَنْ عَطِيَّةٍ، عَنْ بَشْرِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَيُّمَا وَالٍ بَاتَ غَاشًّا لِرَعِيَّتِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ " " يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ الَّذِي لَيْنَ قُلُوبِ أُمَّتِكُمْ لَكُمْ حِينَ وَلَوْكُمْ لِقَرَابَتِكُمْ

مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ كَانَ بِهِمْ رَعُوفًا رَحِيمًا مُوَاسِيًا لَهُمْ
 بِنَفْسِهِ وَذَاتِ يَدِهِ، وَعِنْدَ النَّاسِ لِحَقِيقٍ أَنْ يَقُومَ لَهُ فِيهِمْ بِالْحَقِّ، وَأَنْ يَكُونَ
 بِالْقِسْطِ لَهُ فِيهِمْ قَائِمًا، وَلِعَوْرَاتِهِمْ سَاتِرًا، لَمْ يُغْلَقْ عَلَيْهِ دُونُهُمُ الْأَبْوَابُ، وَلَمْ
 يَقُمْ عَلَيْهِ دُونُهُمُ الْحُجَابُ، يَبْتَهِجُ بِالنِّعْمَةِ عِنْدَهُمْ، وَيَبْتَئِسُ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ
 سُوءٍ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ كُنْتَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ مِنْ خَاصَّةِ نَفْسِكَ عَنْ عَامَّةِ
 النَّاسِ الَّذِينَ أَصْبَحَتْ تَمْلِكُهُمْ، أَحْمَرُهُمْ وَأَسْوَدُهُمْ، مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، وَكُلُّ لَهُ
 عَلَيْكَ نَصِيبٌ مِنَ الْعَدْلِ، فَكَيْفَ بِكَ إِذَا اتَّبَعَكَ مِنْهُمْ فَنَامَ وَرَاءَ فَنَامٍ، لَيْسَ مِنْهُمْ
 أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَشْكُو شَكْوَى، أَوْ بَلِيَّةٌ أَدْخَلَتْهَا عَلَيْهِ، أَوْ ظَلَامَةٌ سَقَتْهَا إِلَيْهِ " يَا
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثَنِي مَكْحُولٌ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ، قَالَ: " كَانَتْ بِيَدِ رَسُولِ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَرِيدَةٌ رَطْبَةٌ يَسْتَاكُ بِهَا، وَيُرَوِّعُ بِهَا الْمُنَافِقِينَ، فَأَتَاهُ
 جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا هَذِهِ الْجَرِيدَةُ الَّتِي كَسَرْتَ بِهَا قُرُونَ أُمَّتِكَ، وَمَلَأْتَ
 بِهَا قُلُوبَهُمْ رُعْبًا؟ " فَكَيْفَ بِمَنْ شَقَّقَ أَبْشَارَهُمْ، وَسَفَكَ دِمَاءَهُمْ، وَخَرَّبَ
 دِيَارَهُمْ، وَأَجْلَاهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَغَيَّبَهُمُ الْخَوْفُ مِنْهُ؟ "

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثَنِي مَكْحُولٌ، عَنْ زِيَادِ بْنِ حَارِثَةَ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ،
 " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا إِلَى الْقِصَاصِ مِنْ نَفْسِهِ فِي خَدَشَةٍ
 خَدَشَهَا أَعْرَابِيًّا لَمْ يَتَعَمَّدْهُ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْكَ جَبَّارًا وَلَا
 مُتَكَبِّرًا، فَدَعَاكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " فَقَالَ: " اقْتَصَّ مِنِّْي " فَقَالَ
 الْأَعْرَابِيُّ: قَدْ أَخْلَلْتُكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ أَبَدًا وَلَوْ أَتَيْتَ عَلَيَّ
 نَفْسِي، فَدَعَا اللَّهُ لَهُ بِخَيْرٍ " " يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَوِّضْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، وَخُذْ لَهَا
 الْأَمَانَ مِنْ رَبِّكَ، وَارْغَبْ فِي جَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي "

قَوْلُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لِقَابُ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ
 مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا " " يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ الْمُلْكَ لَوْ بَقِيَ لِمَنْ كَانَ قَبْلَكَ لَمْ
 يَصِلْ إِلَيْكَ، وَكَذَلِكَ لَا يَبْقَى لَكَ كَمَا لَا يَبْقَى لغيرِكَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَدْرِي مَا
 جَاءَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ جَدِّكَ: { مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا
 كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا } [الكهف: 49] قَالَ: الصَّغِيرَةُ التَّبَسُّمُ، وَالْكَبِيرَةُ الضَّحْكُ،
 فَكَيْفَ مَا عَمَلْتَهُ الْأَيْدِي وَأَحْصَيْتَهُ الْأَلْسُنُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ "

بَلَغَنِي أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: " لَوْ مَاتَتْ سَخْلَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ ضَيْعَةً
 لَخَفْتُ أَنْ أُسْأَلَ عَنْهَا " " فَكَيْفَ بِمَنْ حُرِمَ عَذْلُكَ وَهُوَ عَلَى بَسَاطَتِكَ يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ؟ تَدْرِي مَا جَاءَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ جَدِّكَ: { يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ
 خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى } " قَالَ: " يَا
 دَاوُدُ، إِذَا قَعَدَ الْخَصْمَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ فَكَانَ لَكَ فِي أَحَدِهِمَا هَوَى فَلَا تَتَمَنَّيَنَّ فِي

نَفْسِكَ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ لَهُ فَيُفْلَحَ عَلَى صَاحِبِهِ فَأَمْحُوكَ عَنْ نُبُوتِي ثُمَّ لَا تَكُونَ خَلِيفَتِي وَلَا كَرَامَةً، يَا دَاوُدُ إِنَّمَا جَعَلْتُ رُسُلِي إِلَى عِبَادِي رُعَاةَ تَرْعَى الْإِبِلَ لِعِلْمِهِمْ بِالرَّعَايَةِ وَرَفَقَهُمْ بِالسِّيَاسَةِ، لِيَجْبُرُوا الْكَسْرَةَ، وَيَذَلُّوا الْهَزِيلَ عَلَى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ قَدْ بُلِيتَ بِأَمْرِ لَوْ عُرِضَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ لِأَبْيَنَ أَنْ يَحْمِلَنَّهُ وَأَشْفَقَنَ مِنْهُ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ "

حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى الصَّدَقَةِ فَرَأَاهُ بَعْدَ أَيَّامٍ مُقِيمًا، فَقَالَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى عَمَلِكَ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لَكَ مِثْلَ أَجْرِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَا مِنْ وَالٍ يَلِي شَيْئًا مِنْ أُمُورِ النَّاسِ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ مَغْلُولَةٌ إِلَى عُنُقِهِ، فَيُوقَفُ عَلَى جِسْرِ مِنَ النَّارِ، يَنْتَفِضُ ذَلِكَ الْجِسْرُ انْتِفَاضَةً تُزِيلُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِهِ ثُمَّ يَعَادُ فَيَحَاسِبُ فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَجَّاهُ إِحْسَانَهُ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا انْحَرَفَ بِهِ ذَلِكَ الْجِسْرُ فَهَوَى بِهِ فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا " قَالَ لَهُ: مِمَّنْ سَمِعْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ أَبِي ذَرٍّ، وَسَلْمَانَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا عُمَرُ فَسَأَلَهُمَا فَقَالَا: نَعَمْ سَمِعْنَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ عُمَرُ: وَاعْمَرَاهُ مَنْ يَتَوَلَّاهَا بِمَا فِيهَا؟ فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: " مَنْ أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَهُ وَالْصَّقَ خَذَهُ بِالْأَرْضِ " قَالَ: فَأَخَذَ الْمَنْدِيلَ فَوَضَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى أَبْكَانِي

ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ سَأَلَ جَدُّكَ الْعَبَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَارَةً عَلَى مَكَّةَ أَوْ الطَّائِفِ أَوْ الْيَمَنِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ النَّبِيِّ، نَفْسٌ تُنْجِيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا " نَصِيحَةً مِنْهُ لِعَمِّهِ وَشَفَقَةً مِنْهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِ: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [الشعراء: 214] فَقَالَ: " يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ النَّبِيِّ، وَيَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ النَّبِيِّ، وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، إِنِّي لَسْتُ أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ " وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: " لَا يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا حَصِيفُ الْعَقْلِ، أَرَبُ الْعُقْدَةِ، لَا يُطْلَعُ مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ، وَلَا يُخْنَقُ عَلَى جَرَاةٍ، وَلَا يَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَأَمٍ "

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " السُّلْطَانُ أَرْبَعَةٌ: فَأَمِيرٌ قَوِيٌّ طَلَّقَ نَفْسَهُ وَعُمَّالُهُ فَذَلِكَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَدُ اللَّهِ بَاسِطَةٌ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ، وَأَمِيرٌ طَلَّقَ نَفْسَهُ وَأَرْتَعَ عُمَّالُهُ لِضَعْفِهِ، فَهُوَ عَلَى شَفَا هَلَكَ، إِلَّا أَنْ يَتْرَكَهُمْ، وَأَمِيرٌ طَلَّقَ عُمَّالَهُ وَأَرْتَعَ نَفْسَهُ، فَذَلِكَ الْحُطْمَةُ "

الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " شَرُّ الرُّعَاةِ الْحُطَمَةُ فَهُوَ الْهَالِكُ وَحْدَهُ، وَآمِيرُ أَرْتَعِ نَفْسَهُ وَعُمَالُهُ فَهَلَكُوا جَمِيعًا "

بَلَّغَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ " أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَتَيْتُكَ بِخَبَرٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِمَفَاتِيحِ النَّارِ، فَوُضِعَتْ عَلَى النَّارِ تُسَعَّرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صِفْ لِي النَّارَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَمَرَ بِهَا فَأَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اصْفَرَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلَمَةٌ، لَا يُطْفَأُ لَهَبُهَا وَلَا جَمْرُهَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ أَنَّ ثَوْبًا مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ ظَهَرَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ لَمَاتُوا جَمِيعًا، وَلَوْ أَنَّ ذَنْبًا مِنْ شَرَابِهَا صَبَّ فِي مِيَاهِ أَهْلِ الْأَرْضِ جَمِيعًا لَقُتِلَ مَنْ ذَاقَهُ، وَلَوْ أَنَّ ذِرَاعًا مِنَ السِّلْسِلَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَضَعَ عَلَى جِبَالِ الْأَرْضِ لَذَابَتْ وَمَا اشْتَعَلَتْ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَدْخَلَ النَّارَ ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهَا لَمَاتَ أَهْلُ الْأَرْضِ مِنْ نَتَنِ رِيحِهِ وَتَشْوِيهِ خَلْقِهِ وَعَظْمِهِ، فَبَكَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَكَى جَبْرِيلُ لِبُكَائِهِ فَقَالَ: بَلَى يَا مُحَمَّدُ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ وَلِمَ بَكَيتَ يَا جَبْرِيلُ وَأَنْتَ الرُّوحُ الْأَمِينُ، أَمِينُ اللَّهِ عَلَى وَحْيِهِ؟ " فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُبْتَلَى بِمِثْلِ مَا ابْتُلِيَ بِهِ هَارُوتُ، وَمَارُوتُ، فَهُوَ الَّذِي مَنَعَنِي مِنْ اتِّكَالِي عَلَى مَنَزَلَتِي عِنْدَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَأَكُونُ قَدْ أَمَنْتُ مَكْرَهُ، فَلَمْ يَزَلَا يَبْكِيَانِ حَتَّى نُودِيَ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ يَا جَبْرِيلُ وَيَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَّنَكُمَا أَنْ تَعْصِيَاهُ فَيُعَذِّبَكُمَا "

وَقَدْ بَلَّغَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: " اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أَبَالِي إِذَا قَعَدَ الْخَصْمَانِ بَيْنَ يَدَيَّ عَلَى مَنْ حَالَ الْحَقُّ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ فَلَا تُمَهِّلْنِي طَرْفَةَ عَيْنٍ " يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ أَشَدَّ الشَّدَّةِ الْقِيَامُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ أَكْرَمَ الْكَرَمِ عِنْدَ اللَّهِ التَّقْوَى، وَإِنْ مَنْ طَلَبَ الْعِزَّ بِطَاعَةِ اللَّهِ رَفَعَهُ وَأَعَزَّهُ، وَمَنْ طَلَبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ أَذَلَّهُ اللَّهُ وَوَضَعَهُ، فَهَذِهِ نَصِيحَتِي وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ، ثُمَّ نَهَضْتُ، فَقَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ فَقُلْتُ: إِلَى الْبَلَدِ وَالْوَطَنِ بِإِذْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: " قَدْ أَذْنْتُ لَكَ، وَشَكَرْتُ لَكَ نَصِيحَتَكَ وَقَبِلْتُهَا بِقَوْلِهَا، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤَفَّقُ لِلْخَيْرِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ، وَبِهِ أَسْتَعِينُ "

وَعَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَلَا تُخْلِنِي مِنْ مُطَالَعَتِكَ إِيَّايَ بِمِثْلِهَا، فَإِنَّكَ الْمَقْبُولُ الْقَوْلُ غَيْرُ الْمُتَّهَمِ فِي نَصِيحَتِهِ، قُلْتُ: أَفَعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُصْعَبٍ: فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى خُرُوجِهِ فَلَمْ يَقْبَلْهُ، وَقَالَ: أَنَا

فِي غَنَى عَنْهُ، وَمَا كُنْتُ أَبِيعُ نَصِيحَتِي بِعَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، وَعَرَفَ
الْمَنْصُورُ مَذْهَبَهُ فَلَمْ يَجِدْ عَلَيْهِ فِي رَدِّهِ " (1)

فَلَذَلِكَ زَالَتْ دَوْلَتُنَا

يَذْكُرُ، أَنَّ عَلِيَّ بْنَ عِيسَى بْنِ الْجَرَّاحِ، قَالَ: " سَأَلْتُ أَوْلَادَ بَنِي أُمَيَّةَ: مَا سَبَبُ
زَوَالِ دَوْلَتِكُمْ؟ قَالُوا: خِصَالٌ أَرْبَعٌ أَوَّلُهَا: أَنَّ وُزَرَائِنَا كَتَمُوا عَنْنَا مَا يَجِبُ
إِظْهَارُهُ لَنَا، وَالثَّانِي: أَنَّ جُبَاةَ خَرَايجِنَا ظَلَمُوا النَّاسَ فَارْتَحَلُوا عَنْ أَوْطَانِهِمْ
فُخِرَبَتِ بَيُوتُ أَمْوَالِنَا، وَالثَّالِثَةُ: انْقَطَعَتِ الْأَرْزَاقُ عَنِ الْجُنْدِ فَتَرَكَوْا طَاعَتَنَا،
وَالرَّابِعَةُ: يَبْسُوْا مِنْ إِنْصَافِنَا فَاسْتَرَاخُوا إِلَى غَيْرِنَا، فَلِذَلِكَ زَالَتْ دَوْلَتُنَا "

الفضيل بن عياض: يَا حَسَنَ الْوَجْهِ، حِسَابُ هَذَا الْخَلْقِ كُلِّهِمْ عَلَيْكَ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْأَنْبَارِيُّ الْعَابِدُ: سَمِعْتُ فَضِيلَ بْنَ عِيَاضٍ، يَقُولُ: لَمَّا قَدِمَ الرَّشِيدُ
بَعَثَ إِلَيَّ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي دُخُولِهِ عَلَيْهِ وَقَوْلِهِ: عَظْنَا بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمٍ، فَأَقْبَلْتُ
عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: " يَا حَسَنَ الْوَجْهِ، حِسَابُ هَذَا الْخَلْقِ كُلِّهِمْ عَلَيْكَ " قَالَ: فَجَعَلَ
يَبْكِي وَيَشْتَهِقُ، قَالَ: فَرَدَدْتُهَا عَلَيْهِ: " يَا حَسَنَ الْوَجْهِ، حِسَابُ هَذَا الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
عَلَيْكَ " قَالَ: فَأَخَذَنِي الْخَدَمُ فَحَمَلُونِي وَأَخْرَجُونِي مِنَ الْحَجَرِ وَقَالُوا: يَا هَذَا
اذْهَبْ بِسَلَامٍ .

ابن السماك: هَذَا أَوَّلُ الصِّفَةِ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَ ذَلَّ الْمُعَايِنَةَ؟

قَالَ ابْنُ السَّمَاكِ: بَعَثَ إِلَيَّ هَارُونُ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ إِلَى بَابِ الْقَصْرِ أَخَذَنِي حَارِسَانِ،
فَأَسْرَعَا بِي إِلَى الْقَصْرِ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى صَحْنِ الْقَصْرِ لَقِينِي خُصَيَّانِ
ضَخْمَانِ، فَأَخَذَانِي مِنَ الْحَارِسَيْنِ فَأَسْرَعَا بِي إِلَى قَاعَةِ الْقَصْرِ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى
بَابِ الْبَهْوِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، فَقَالَ لُهُمَا هَارُونُ: ارْفُقا بِالشَّيْخِ، فَلَمَّا وَقَفْتُ بَيْنَ
يَدَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: " يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا مَرَّ بِي يَوْمَ مُنْذُ وَلَدْتَنِي أُمِّي أَنَا فِيهِ
أَتَعَبُ مِنْ يَوْمِي هَذَا، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مَقَامًا بَيْنَ يَدَيِ
اللَّهِ تَعَالَى أَنْتَ فِيهِ أَذَلُّ مِنْ مَقَامِي هَذَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ فِي خُلُقِهِ، وَاحْفَظْ
مُحَمَّدًا فِي أُمَّتِهِ، وَانْصَحْ نَفْسَكَ فِي رَعِيَّتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ سَطَوَاتِهِ
وَأَنْتَقَامَهُ مِنْ أَهْلِ مَعَاصِيهِ " قَالَ: فَاضْطَرَبَ عَلَى فِرَاشِهِ حَتَّى وَقَعَ عَلَى
مُصَلًى بَيْنَ يَدَيِ فِرَاشِهِ، فَقُلْتُ: " يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا أَوَّلُ الصِّفَةِ، فَكَيْفَ لَوْ
رَأَيْتَ ذَلَّ الْمُعَايِنَةَ؟ " قَالَ: فَكَادَتْ نَفْسُهُ تَخْرُجُ، وَكَانَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ إِلَى
جَنْبِهِ، فَقَالَ لِلْخُصَيَّيْنِ: أَخْرِجُوهُ فَقَدْ أَبْكَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ سَفِيَّانُ رَحِمَهُ
اللَّهُ: لَقَدْ أَبْلَغَ (2)

¹ (شعب الإيمان)

² (شعب الإيمان)

خالد بن صفوان : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ فَوْقَكَ، فَلَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَوْلَى بِالشُّكْرِ مِنْكَ

الْفُضِيلُ يَقُولُ: بَلَغَنِي أَنَّ خَالِدَ بْنَ صَفْوَانَ، دَخَلَ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: عِظْنِي يَا خَالِدُ، فَقَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ فَوْقَكَ، فَلَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَوْلَى بِالشُّكْرِ مِنْكَ " قَالَ: فَبَكَى عُمَرُ حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: هَيْه يَا خَالِدُ، لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ فَوْقِي فَوَاللَّهِ لَا خَافَتُهُ خَوْفًا، وَلَا حَذَرْتُهُ حَذَرًا، وَلَا رَجَوْتُهُ رَجَاءً، وَلَا حَبَبْتُهُ مَحَبَّةً، وَلَا شُكْرْتُهُ شُكْرًا، وَلَا حَمَدْتُهُ حَمْدًا، يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ أَشَدَّ مَجْهُودِي، وَغَايَةَ طَاقَتِي، وَلَا جُتْهَدَنِّي فِي الْعَدْلِ وَالنِّصْفَةِ وَالزُّهْدِ فِي فَانِي الدُّنْيَا لِرِزْوَالِهَا، وَالرَّغْبَةِ فِي بَقَاءِ الْآخِرَةِ لِدَوَامِهَا حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَعَلِّي أَنْجُو مَعَ النَّاجِينَ، وَأَفُوزَ مَعَ الْفَائِزِينَ، وَبَكَى حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهِ، قَالَ: وَتَرَكْتُهُ مَغْشِيًا عَلَيْهِ وَانْصَرَفْتُ .

(1)

وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَفْقٍ مِنَ الْأَفَاقِ، فَقَالَ: " اَعْفِنِي مِنْ أَرْبَعٍ وَقُلْ بَعْدَهَا مَا شِئْتَ: لَا تَكْذِبْنِي، فَإِنَّ الْكَذُوبَ لَا رَأْيَ لَهُ، وَلَا تُجِبْنِي فِيمَا لَا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، فَإِنَّ فِي الَّذِي أَسْأَلُكَ عَنْهُ شُغْلًا عَمَّا سِوَاهُ، وَلَا تُطْرِنِي فَإِنِّي أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكَ، وَلَا تُحْمِنِي عَلَى الرَّعِيَةِ فَإِنِّي إِلَى الرَّفْقِ بِهِمْ وَالرَّحْمَةِ أَحَقُّ، وَرَوِي: لَا تُخَفِّنِي - يَعْنِي: لَا تُغْضِبْنِي - حَتَّى يَحْمِلَنِي الْغَضَبُ عَلَى خَفَةِ الطَّيْشِ " .

وَدَخَلَ رَجُلًا فَقِيهًا عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ تَغَيَّرَتْ بَعْدَنَا؟ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: " يَا أَبَا فَلَانِ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَنِي بَعْدَ ثَلَاثٍ وَقَدْ أُدْخِلْتُ قَبْرِي، وَقَدْ خَرَجْتَ الْحَدِيقَتَانِ فَسَالَتَا عَلَى الْحَدِيدِ، وَتَقَلَّصَتِ الشَّفَتَانِ عَنِ الْأَسْنَانِ، وَخَرَجَ الصُّلْبُ مِنَ الدُّبُرِ، وَانْفَتَحَ الْفَمُ، وَنَتَأَ الْبَطْنُ فَعَلَا الصَّدْرُ؟ " فَقَالَ الرَّجُلُ: أَمَّا إِذَا أُلْهِمْتَ هَذَا نَفْسُكَ فَأَنْزِلْ عِبَادَ اللَّهِ مِنْكَ عَلَى ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ: أَمَّا مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ فَأَنْزِلْهُ كَأَنَّهُ أَبٌ لَكَ، وَأَمَّا مَنْ هُوَ بِسِنِّكَ فَأَنْزِلْهُ كَأَنَّهُ أَخٌ لَكَ، وَأَمَّا مَنْ هُوَ أَصْغَرُ مِنْكَ فَأَنْزِلْهُ كَأَنَّهُ ابْنٌ لَكَ، فَأَيُّ هَؤُلَاءِ تُحِبُّ أَنْ تُسَيِّءَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: " لَا إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ " .

سفيان الثوري : إلى العبد المغرور بالآمال هارون

وذكر الإمام ابن بليان والغزالي وغيرهما ، أن الرشيد لما ولي الخلافة زاره العلماء بأسرهم ، إلا سفيان الثوري فإنه لم يأت ، وكان بينه وبينه صحبة ، فشق عليه ذلك ، فكتب إليه الرشيد كتاباً يقول فيه : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، من عبد الله هارون أمير المؤمنين ، إلى أخيه في الله سفيان بن سعيد الثوري ، أما بعد يا أخي ، فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين ، وقد آخيتك في الله مؤاخاة لم أصرم فيها حبلك ، ولم أقطع منها ودك ، وإني منطو لك على أفضل المحبة ، وأتم الإرادة ، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله تعالى ، لإيتيتك ولو حبواً لما أجد لك في قلبي من المحبة ، وأنه لم يبق أحد من إخواني وإخوانك ، إلا زارني وهنأني بما صرت إليه ، وقد فتحت بيوت الأموال ، وأعطيتهم المواهب السنية ما فرحت به نفسي ، وقرت به عيني ، وقد استبطأتك ، وقد كتبت كتاباً مني إليك ، أعلمك بالشوق الشديد إليك ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومواصلته ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعجل العجل . ثم أعطى الكتاب لعباد الطالقاني ، وأمره بإيصاله إليه وأن يحصي عليه بسمعه وقلبه ، دقيق أمره وجليله ، ليخبره به . قال عباد : فانطلقت إلى الكوفة ، فوجدت سفيان في مسجده ، فلما رأيته على بعد ، قام وقال : أعود بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعود بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير ، قال : فنزلت عن فرسي بباب المسجد ، فقام يصلي ولم يكن وقت صلاة ، فدخلت وسلمت فما رفع أحد من جلسائه رأسه إلي ، قال : فبقيت واقفاً وما منهم أحد يعرض علي الجلوس ، وقد علتني من هيبتهم الرعدة ، فرميت بالكتاب إليه ، فلما رأى الكتاب ، ارتعد وتباعد منه ، كأنه حية عرضت له في محرابه ، فركع وسجد وسلم ، وأدخل يده في كفه ، وأخذه وقلبه بيده ، ورماه إلى من كان خلفه ، وقال : ليقرأ بعضكم فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً مسه ظالم بيده . قال عباد : فمد بعضهم يده إليه ، وهو يرتعد كأنه حية تنهشه ، ثم قرأه فجعل سفيان يبتسم تبسم المتعجب ، فلما فرغ من قراءته ، قال : اقلبوه واكتبوا للظالم على ظهره ، فقبل له : يا أبا عبد الله إنه خليفة ، فلو كتبت إليه في بياض نقي لكان أحسن ، فقال : اكتبوا للظالم في ظهر كتابه ، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ، ولا يبقى شيء مسه ظالم بيده عندنا فيفسد علينا ديننا فقبل له : ما نكتب إليه ؟ قال : اكتبوا له : بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد الميت سفيان ، إلى العبد المغرور بالآمال هارون ، الذي سلب حلوة

الإيمان ، ولذة قراءة القرآن ، أما بعد ، فإني كتبت إليك أعلمك أنني قد صرمت
حبلك ، وقطعت ودك ، وإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في
كتابك ، بما هجمت على بيت مال المسلمين ، فأنفقته في غير حقه وأنفدته
بغير حكمه ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني ، حتى كتبت إلي تشهدني على
نفسك ، فأما أنا قد شهدت عليك ، أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك ،
وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل ، يا هارون هجمت على بيت
مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم ، والعاملون
عليها في أرض الله ، والمجاهدون في سبيل الله ، وابن السبيل ؟ أم رضي
بذلك حملة القرآن ، وأهل العلم يعني العاملين ، أم رضي بفعلك الأيتام
والأرامل ، أم رضي بذلك خلق من رعيته . فشد يا هارون منرك ، وأعد
للمسألة جواباً ، وللبلاء جلباباً ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل ،
فاتق الله في نفسك ، إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ، ولذة قراءة القرآن ،
ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً ، وللظالمين إماماً ، يا
هارون قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت ستوراً دون بابك ،
وتشبهت بالحجة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك
، يظلمون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمر ويحدون الشارب ، ويزنون
ويحدون الزاني ، ويسرقون ويقطعون السارق ، ويقتلون ويقتلون القاتل ،
أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم ، قبل أن يحكموا بها على الناس فكيف
بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله : أحشروا الظلمة وأعوانهم ؟
فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك ، لا يفكهما إلا عدلك وانصافك
، والظالمون حولك وأنت لهم إمام أو سائق إلى النار ، وكأني بك يا هارون
وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان
غيرك ، وسيات غيرك في ميزانك ، على سيأتك بلاء على بلاء ، وظلمة فوق
ظلمة ، فاتق الله يا هارون في رعيته ، واحفظ محمداً (ﷺ) في أمته ، واعلم
أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك ، وكذلك الدنيا ، تفعل
بأهلها واحداً بعد واحد ، فمنهم من تزود زاداً نفعه ، ومنهم من خسر دنياه
وآخرته ، وإياك ثم إياك ، أن تكتب إلي بعد هذا فإني لا أجيبك ، والسلام .
وألقى الكتاب منشوراً من غير طي ولا ختم ، فأخذته وأقبلت به إلى سوق
الكوفة ، وقد وقعت الموعظة بقلبي فناديت يا أهل الكوفة من يشتري رجلاً
هرب إلى الله ؟ فأقبلوا إلي بالدرهم والدنانير ، فقلت : لا حاجة لي بالمال
ولكن جبة صوف وعباءة قطوانية ، فأتيت بذلك فنزعت ما كان علي من

الثياب ، التي كنت أجالس بها أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود الفرس الذي كان معي ، إلى أن أتيت باب الرشيد حافياً راجلاً ، فهزأ بي من كان على الباب ، ثم استؤذن لي ، فلما رأي على تلك الحالة قام وقعد وجعل يلطم رأسه ووجهه ، ويدعو بالويل والحرب ، ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسل ما لي وللدنيا والملك يزول عني سريعاً فألقيت الكتاب إليه مثل ما دفع إلي فأقبل يقرؤه ودموعه تتحدر على وجهه ، وهو يشهق ، فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين قد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجهت إليه فأتقنته بالحديد وضيقته عليه السجن ، فجعلته عبرة لغيره ، فقال هارون : اتركوا سفيان وشأنه يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقي والله حقاً من جالستموه ، إن سفيان أمة وحده . ولم يزل كتاب سفيان عند الرشيد يقرؤه دبر كل صلاة ويبكي حتى توفي رحمه الله تعالى .⁽¹⁾

كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه قال : كتب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفاري وهو على خراسان أن أمير المؤمنين كتب إلي أن يصطفى له الصفراء والبيضاء فلا يقسم بين الناس ذهب ولا فضة فكتب إليه : بلغني كتابك وإنني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين وإنه والله لو أن السموات والأرض كانتا رتقا على عبده ثم اتقى الله جعل له مخرجاً والسلام عليك ثم قال : أيها الناس اغدوا على مالكم فقسمة بينهم .⁽²⁾

أما أهل السموات فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد لعنوك

وروي أن الحجاج بنى داراً بواسط وأحضر الحسن ليراها فلما دخلها قال الحمد لله إن الملوك ليرون لأنفسهم عزا وإنا لنرى فيهم كل يوم عبداً يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده وإلى فرش فينجدته وإلى ملابس ومراكب فيحسنها ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء فيقول انظروا ما صنعت فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفسق الفاسقين أما أهل السموات فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد لعنوك بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور ثم خرج وهو يقول إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبينه للناس ولا يكتُمونه

وبلغ الحجاج ما قال فاشتد غضبه وجمع أهل الشام فقال يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ثم أمر بإحضاره فجاء

¹ (الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، 2 / 297 - 298

² (السيوطي ، الدر المنثور ، 8 / 199

وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج فقال يا أبا سعيد أما كان لإمارتي عليك حق حين قلت ما قلت فقال يرحمك الله أيها الأمير إن من خوفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحب فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف وما أردت الذي سبق إلى وهمك والأمران بيدك العفو والعقوبة فافعل الأولي بك وعلى الله فتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا الحجاج منه واعتذر إليه وأكرمه وحياه .

وفي رواية أخرى فلما دخل قال له الحجاج ها هنا فأجلسه قريباً منه وقال ما تقول في علي وعثمان قال أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك قال فرعون لموسى (فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) علم علي وعثمان عند الله. قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ودعا بغالية طيب وعلف بها لحيته فلما خرج تبعه الحاجب فقال له ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه قال قلت يا عدتي عند كربتي ويا صاحبي عند شدتي ويا ولي نعمتي ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ارزقني مودته واصرف عني أذاه ففعل ربي عز وجل . (1)

لقد كنت لهذه الأمة إهتماماً واغتماماً ، وعناءً وبلاءً ، فالحمد لله الذي أراحها بموتك :

دخل يعلي بن مخلد المجاشعي علي الحجاج في مرض الموت ، فقال له : كيف تري ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته ؟ فقال : يا يعلي ، غماً شديداً ، وجهداً جهيداً ، وألماً مريضاً ، ونزعاً حريضاً ، وسفراً طويلاً ، وزاداً قليلاً ، فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار ، فقال له : يا حجاج ، إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء ، أولي الرحمة والرفقة ، والتحنن والتعطف علي عباده وخلقه ، وأشهد أنك قرين فرعون وهامان ، لسوء سيرتك ، وترك ملتك ، وتنكبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين ، قتلت صالحى الناس فأفنيتهم ، وأبرت عترة التابعين فتبرتهم ، وأطعت المخلوق في معصية الخالق ، وهرقت الدماء وضربت الأبخار ، وهتكت الأستار ، وسست سياسة متكبر جبار ، لا الدين أبقيت ، ولا الدنيا أدركت ، أعزرت بني مروان ، وأذلت نفسك ، وعمرت دورهم ، وأخربت دارك . فالיום لا ينجونك ولا يغثونك ، إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر . لقد كنت لهذه الأمة

¹ (أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية ،

إهتماماً واغتماماً ، وعناءً وبلاءً ، فالحمد لله الذي أراحها بموتك ، وأعطاهـا منهاها بخزيك . قال : فكأنما قطع لسانه عنه ، فلم يحر جواباً ، وتنفس الصعداء ، وخنقته العبرة ، ثم رفع رأسه فنظر إليه ، وأنشأ يقول :
رب إن العباد قد أيأسوني ورجائي لك الغداة عظيم (1)

أنت خطيئة من خطاياہ

حكى أن حطيطة الزيات جيء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال أنت حطيطة قال نعم

قال حطيطة: سل عما بدا لك, فاني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال: ان سئلت لأصدقن, وان ابتليت لأصبرن, وان عوفيت لأشكرن.
قال الحجاج: فما تقول فيّ؟

قال: أقول فيك أنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة.

قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟

قال: أقول أنه أعظم جرماً منك, وانما أنت خطيئة من خطاياہ.

فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب, فانتبه به العذاب الى أن شقق له القصب, ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبه قصبه, حتى انتحلوا لحمه, فما سمعوه يقول شيئاً, ف قيل للحجاج أنه في آخر رمق.
فقال: أخرجوه فارموا به في السوق.

قال جعفر فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له حطيطة ألك حاجة قال شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمة الله عليه . (2)

يا مسكين، ما أرضاه يقبل يدي! يا قوم، أنتم في واد وأنا في واد!

وولي الشيخ عز الدين بن عبد السلام قضاء مصر والوجه القبلي، وكان قدم من دمشق بسبب أن سلطانها الصالح إسماعيل استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف. فأنكر عليه الشيخ عز الدين، وترك الدعاء له في الخطبة، وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي، فغضب السلطان منهما، فخرجا إلى الديار المصرية فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين؛ وهو في الطريق قاصداً يتلطف به في العود إلى دمشق، فاجتمع به ولأينه، وقال له: ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان، وتقبل يده لا غير. فقال الشيخ له: يا مسكين، ما أرضاه يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده! يا قوم، أنتم في واد وأنا في واد! والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم. فلما

1 (أبو علي القالي ، ذيل الأمالي والنوادر .

2 (الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 2 / 346

وصل إلى مصر، تلقاه سلطانها الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه، وولاه قضاء مصر .

أمراء للبيع

ولما تولى الشيخ عز الدين القضاء تصدى لبيع أمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده إنهم أحرار، وإن حكم الرق مستصحب عليهم لبית مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم، وأجترم الأمر، والشيخ مصمم لا يصح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا، وتعطلت مصالحهم لذلك؛ وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستثار غضبا، فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: نعقد لكم مجلساً، وننادي عليكم لبית مال المسلمين، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه، فأنزعج النائب، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض! والله لأضربنه بسيفي هذا، فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى، وشرح له الحال، فما اكرث لذلك، وقال: يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج. فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي إيش تعمل؟ فقال: أنادي عليكم وأبيعكم، قال: فقيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟ قال: أنا. فتم ما أراد، ونادى على الأمراء واحدا واحدا، وغالى في ثمنهم ولم يبيعهم إلا بالثمن الوافي، وقبضه وصرفه في وجوه الخير.⁽¹⁾

إنك تارك للصلاة مع الجماعة

فقد روي عن السلطان بايزيد وهو الذي كان يلقب بالصاعقة لسرعة حركته في مواجهة الأعداء أنه مثل أمام القاضي شمس الدين محمد حمزة الفناري ليشهد في إحدى القضايا فما كان من القاضي إلا أن رد شهادته ولم يقبلها ولما سأل السلطان عن وجه ردها جاء الجواب الحاسم من القاضي الذي لا يرهبه سلطان إنك تارك للصلاة مع الجماعة وكان جواب السلطان أن بني جامعا أمام قصره وعين لنفسه موصفا فيه ولم يترك صلاة الجماعة بعدها أبدا .⁽²⁾

¹ (السيوطي ، حسن المحاضرة ، 2 / 162

(2) عوامل غنهار الدولة العثمانية ، 1 / 70

والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها.....

يقول ابن حزم واصفاً بعضاً من حكام زمانه - وحكامنا اليوم أسوأ منهم -: " اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم وجمع أموال ربما كانت سبباً في انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائهم عليهم... " ويقول أيضاً: " وإن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله، ساع في الأرض بفساد، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم، والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه... (1)

بين السلاطين والعلماء

إن المناصب الدينية على سبيل المثال كالقضاء مثلاً، والخطابة والإمامة وغيرها، كانت طيلة عهود التاريخ مناصب شرعية، ولم يكن الحاكم أو الخليفة يتجرأ أن يبعد إماماً أو خطيباً أو قاضياً أو عالماً بسبب موافقه وجرأته في الحق، بل بالعكس من ذلك يؤيده ويسدده ويوفقه على ذلك، ولهذا ترون أن عبد الرحمن الناصر قد عاتب ولده الحكم لما طلب منه أن يبعد المنذر عن خطابة الجامع، عاتبه على ذلك وقال: أمثل المنذر لا أم لك يبعد لإرضاء ناكبة عن الحق، هذا ما لا يكون أبداً.

فكانوا يعتقدون أن العالم هو من أولي الأمر، كما قال الله عز وجل: { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } [النساء: 59] ليست هذه الأشياء منه يمن بها عليه، ومنحة يعطاها فإذا لم يرض عليه سحبت منه! كلا أبداً، العالم هو قوام الأمة، وهو زينة الحياة، وهو السفير بين الحاكم وبين الناس، فإن الناس أطاعوا الحاكم بطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، والعالم كان هو السفير

¹ (رسائل ابن حزم 3/ 174 ، تحقيق د. إحسان عباس، نشر المؤسسة العربية للدراسات ط 1987 م .

بين الحاكم وبين رعيته, يأمر الناس بالطاعة وينهاهم عن المعصية, ويأمرهم بالاعتدال, ويحثهم على التعقل وإدراك الأمور حق إدراكها, ومعرفة الطريق السليم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, وفي مقابل ذلك يحتسب على السلاطين فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر, ويبين لهم كلمة الحق, ويأمرهم بأن يعطوا الناس حقوقهم وأن يبتعدوا عن الظلم, والاستبداد وأخذ حقوق الناس والطغيان, وغير ذلك من المعاصي التي قد توجد في الراعي أو الرعية.

فالعالم هو القسطاس الذي وضعه الله تعالى حافظاً لهذا الميزان, فليس العالم مجرد أداة في يد الخليفة أو الوالي أو أي ذي سلطة بل كان مستقلاً له ثقله ومكانته ووزنه, ولم يكن لـ للحاكم أن يتجراً بأن ينتقص من قدر هؤلاء العلماء لسبب أو لآخر, إلا ما كان في فترات الطغيان التي مرت في تاريخ الدولة الإسلامية, وهذه الفترات كانت هي الاستثناء والأصل هو توقيف العلماء والسير على هديهم, وسوف نعرض لنماذج مواجهة علماء الأمة لسلطة و سطوة الخلفاء والأمراء وأرباب السلطان .

وهل أعزل مثل هذا العالم الجليل

كان عبد الرحمن الناصر الخليفة مهتماً بالعمارة وإقامة المعالم وتشديد الدور وتخليد الآثار, من ذلك أنه بنى مدينة الزهراء واستفرغ وسعه في تنميقها وتعميرها وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها, وتشديد مبانيها بشيء عظيم, حتى إنه ترتب على هذا العمل أن عبد الرحمن تأخر عن صلاة الجمعة ثلاث جمع -أي ثلاثة أسابيع متواليات- لا يصلي الجمعة مع العالم المنذر بن سعيد مشغولاً ببنائها وعمارتها, فصلى معه بعد ذلك, فأراد القاضي أن يعظه ويغض من غروره وكبريائه, فتناوله في أحد الجمع بالموعظة من المنبر, وقرأ أمامه في بدأ الخطبة قول الله عز وجل يخاطب هذا الحاكم وهذا السلطان: { أَتَبْنُونَ كُلَّ رِيعٍ آيَةٍ تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَّعْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ } [الشعراء:128-138] وقرأ قوله تعالى: { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا } [النساء:77] وقوله تعالى: { يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ { [غافر:39].

ومضى بلهجته المعتادة وشجاعته وقوته في ذم الدنيا وذم تشييد البناء والاستغراق في الزخرف والإسراف فيه، وتلا قول الله تعالى: { أَفَمَنْ أَشَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَشَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَقَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة: 109-110] وأتى بما يشاكل هذا المعنى ويقاربه ويوافقه من التخويف بالموت، وأن الموت قد يفاجئك بكرة أو عشية، وذكر بالدنيا وسرعة زوالها والزهد فيها والرغبة في الآخرة والإخلاد إليها، والطمع فيما عند الله عز وجل، وأسهب في ذلك وأضاف ما حضره من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار عن السلف والأقوال عن الحكماء والشعراء وغيرهم، حتى إن الناس بلغ بهم التأثير مبلغاً وضجوا وبكوا ونشجوا ودعوا وارتفع الصياح في المسجد، وكان للخليفة من ذلك قدر كبير، فإنه أقبل على نفسه وأجهش بالبكاء، وبدأ يمسح دموعه ويتضرع ويبتهل إلى الله عز وجل، ثم انتهت الصلاة فخرج الخليفة، فوجد في نفسه على المنذر بن سعيد بعدما تأثر بخطبته إلا أنه وجد عليه شيئاً، أنه قد قسى وأغلظ له القول، وبالع في تقريره، فشكا الخليفة هذا لولده، الحكم -الذي تولى الخلافة بعده - فشكا الخليفة لولده ما لقيه من المنذر وقال: والله لقد تعمدي بالكلام، ووالله ما عنى بهذا الكلام غيري، وقد أسرف عليّ، وأفراط في تقريري وذمي وتوبيخي، وما وفق إلى الطريقة المناسبة في نصحي وإرشادي وتوجيهي، وأقسم أن لا يصلي الجمعة خلفه، وجعل يصلي وراء خطيب آخر في قرطبة، يقال له: أحمد بن مطرف، إذا جاء وقت صلاة الجمعة ركب الخليفة وذهب أبعد من المسجد هذا، ذهب بعيداً ليصلي وراء أحمد بن مطرف، وترك الصلاة بالزهراء، فقال له ولده الحكم: يا أبتى! ما الذي يمنعك أن تعزل هذا الخطيب حتى تذهب وتصلي في المسجد القريب منك، فقال له بعدما زجره وانتهره ووبخه، وقال: أمثل منذر بن سعيد في فضله وعلمه ونبله وتقواه يعزل؟ لا أم لك وهل أعزل مثل هذا العالم الجليل لإرضاء نفس ناكبة عن الحق أنا المخطئ ليس هو، هذا لا يكون أبداً وأنا حي، وإني والله لأستحي من الله عز وجل أن يكون بيني وبينه، في الصلاة غير المنذر بن سعيد؟؟ ولكنني غضبت وحلفت، وإن وجدت سبيلاً إلى أن أكفر عن يميني وأعود لأصلي خلفه فعلته إن شاء الله وسيظل المنذر بن سعيد خطيباً وإماماً وقاضياً لنا مدة حياتنا وحياته حفظه الله وأبقاه.

والله ما كنت أظن أن الشيطان يبلغ بك هذا المبلغ

دخل على عبد الرحمن الناصر مرة أخرى بعد أن فرغ من بناء الزهراء أيضاً وقصورها، وبعد أن حصل له الموقف السابق، وقد قعد الناصر في قبة ضخمة كان يسمونها القبيبة؟ لأنها كانت خاصة بالخليفة، وقد جعل قراميدها من الذهب وطلاها بالذهب، وجعل على البناء البديع الذي لم يسبق إليه، وكان مع الناصر جماعة من الأعيان والوزراء والأمراء، فقال لهم: هل بلغكم أن أحداً من الملوك في التاريخ كله بنى مثل هذا؟ فقالوا: كلا والله يا أمير المؤمنين! ما سمعنا ولا رأينا ولا بلغنا أن أحداً بنى مثل هذا البناء، وإنك قد أتيت بما لم تستطعه الأوائل، وظلوا يقولون مثل هذا الكلام الذي تعود الأمراء والملوك والخلفاء أن يسمعوه ممن حوله، والقاضي المنذر بن سعيد مطرق لا يتكلم وقد طأطأ رأسه فاستنطقه الخليفة، قال: ما لك ساكت، تكلم ما رأيك؟ هل رأيت مثل هذا البناء؟ فدمعت عيونه رحمه الله وأجهش بالبكاء ثم انحدرت الدموع على لحيته وخده، وقال للخليفة بلسان واضح ولهجة صريحة قال: والله ما كنت أظن أن الشيطان يبلغ بك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله تعالى ومع ما فضلك به، حتى أنزلك الشيطان منازل الكافرين فاضطرب الخليفة وغضب، وقال: انظر ما تقول! كيف أنزلني منازل الكافرين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! يقول الله عز وجل: { وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتَهُمْ سُقُفًا مِنْ فضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ } [الزخرف: 33-35] فوجم الخليفة وبكى وقال: جزاك الله خيراً وأكثر الله من أمثالك، والله إن الذي قلته لهو الحق، وأمر بنقل هذه القبة التي بنيت بالذهب، وأن تعاد وتبنى تراباً كما بني غيرها من القباب.

كيف آكل من طعامكم، وكله مما نهبتكم من أغنام الناس

لما هجم التتار على دمشق، وكانت حينئذ ولاية تابعة لسلطان المماليك في مصر، فجهّز السلطان جيشاً ليرد التتار عن بلاد الشام، فكانت الواقعة بين الجيش وقوات " قازان " في 27 ربيع الأول 699هـ، ولكن كانت الغلبة لجيشي التتار، وعادت عساكر السلطان إلى مصر، ودخل التتار إلى دمشق، وعاثوا في الأرض فساداً، وحينئذ اجتمع الشيخ تقي الدين بأعيان البلد، واتفقوا على السير إلى قازان في يوم الاثنين الثالث من ربيع الثاني سنة 699هـ، والتحدث إليه، فلما وصلوا إلى قازان قائد التتار في بلدة النبك،

المجاورة لدمشق، قابله الشيخ، وطلب منه الأمان لأهل دمشق، ورد الأسرى من المسلمين وأهل الذمة، ثم تكلم معه كلام الأبطال الشجعان، فأنزل الله الرعب في قلب السلطان، وسأل: من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله، ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع منه حديثاً في قلبي، ولا رأيته أعظم انقياداً لأحد منه، فأخبر بما له وما هو عليه من العلم والعمل، ثم قال له الشيخ بواسطة الترجمان: "إنك تزعم أنك مسلم، ومعك قاض، وإمام وشيخ، ومؤذنون، فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت عاهداً فوقياً، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، وجرت".

ثم قدم لهم قازان طعاماً فأكلوا، ولم يأكل ابن تيمية، فسئل عن ذلك؟ قال: كيف أكل من طعامكم، وكله مما نهبت من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس، فطلب منه قازان الدعاء، فقال في دعائه: "اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا؟ وليكون الدين كله لك، فانصره وأيده، وملّكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياءً وسمعةً وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا، وليذلّ الإسلام وأهله، فاخذله وزلّزله ودمره واقطع دابره"، وقازان يرفع يديه ويؤمن على دعائه. وقد خاف الناس على الشيخ القتل في هذا الموقف، ولكن الله أنزل الرعب في قلوب أعدائه ، وقد أجابه قازان إلى حقن دماء المسلمين، وبلغه ما أراد، ورد عليه الأسرى من المسلمين، فلم يقبل الشيخ حتى ردّ جميع الأسرى من المسلمين ومن أهل الذمة من اليهود والنصارى، ثم رجع الشيخ مكرماً معزراً، قد وفّقه الله ونصره لحسن قصده وإخلاصه في نيته، فنفّع الله به المسلمين وأعزّهم ونصرهم (1)

سعيد بن المسيب لم يزد على كلمة (لا)

ومن مواقف سعيد بن المسيب الشهيرة في ذلك قصه تزويج ابنته وقد كان الخليفة عبد الملك بن مروان تقدم لخطبتها لأبنة الوليد حين ولاه العهد ويذكر المؤرخون أنه أرسل موكباً كبيراً على رأسه مندوب خاص نزل المسجد ووقف على حلقة سعيد فأبلغه سلام أمير المؤمنين وأنه قدم يخطب إليه ابنته لابنة الوليد ولي العهد وانتظر الناس أن يستبشر سعيد بهذا التشريف الذي ناله ولكنه لم يزد على كلمة (لا) وكان لسعيد تلميذ متين الدين والخلق يدعى عبد الله بن أبي وداعة افتقده أياماً فلما عاد إليه قال له سعيد: أين كنت فقال

¹ (ابن كثير ، البداية والنهاية 14 / 89، عمر بن علي البزار، الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، ص71-74 .

توفيت زوجتي فانشغلت بها قال سعيد فهلا أخبرتنا فشهدناها ثم أراد التلميذ أن يقوم فقال سعيد هل أحدثت امرأة غيرها قال يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال سعيد إن أنا فعلت تفعل؟ قال نعم فأمر بالشهود وكتابة العقد قال ابن أبي وداعة: ففقت وما أدري ما أصنع من الفرح وصرت إلى منزلي وجعلت أفكر ممن آخذ وأستدين؟ وصليت المغرب. وكنت صائما فقدمت عشاءي لأفطر وكان خبزا وزيتا وإذا بالباب يقرع فقلت من هذا فقال سعيد ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب فإنه لم ير منذ أربعين سنة إلا ما بين بيته والمسجد ففقت وخرجت وإذا بسعيد بن المسيب وظننت أنه بدا له فقلت يا أبا محمد هلا أرسلت إلى فأتيتك قال لا أنت أحق أن تزار قلت فما تأمرني قال رأيته رجلا عزبا قد تزوجت فكرهت أن تبين الليلة وحدك وهذه امرأتك فإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم دفعها في الباب ورد الباب فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم صعدت إلى السطح وناديت الجيران فجاءوني وقالوا ما شأنك قلت زوجني سعيد بن المسيب ابنته وقد جاء بها على غفلة وها هي في الدار فنزلوا إليها وبلغ أمي فجاءت وقالت وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام فأقمت ثلاثا ثم دخلت بها فإذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج.⁽¹⁾

لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار

وكان سعيد بن المسيب رحمه الله يقول (لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم لكيلا تحبط أعمالكم) .

سعيد بن المسيب : تركتهم يجيعون الناس ويشبعون الكلاب؟

وعن المطلب بن السائب قال كنت جالسا مع سعيد بن المسيب بالسوق فمر بريد لبني مروان فقال له سعيد من رسل بني مروان أنت؟ قال نعم قال فكيف تركتهم؟ قال بخير قال تركتهم يجيعون الناس ويشبعون الكلاب؟ قال فاشرب الرسول ففقت إليه فلم أزل أرجيه حتى انطلق ثم قلت لسعيد يغفر الله لك تشييط بدمك بالكلمة هكذا تليقها قال اسكت يا أحمق فوالله لا يسلمني الله ما أخذت بحقوقه.

سعيد بن المسيب : والله لا يقتدي بي أحد من الناس

وعقد عبد الملك لابنيه الوليد وسليمان بالعهد وكتب بالبيعة لهما إلى المدينة وعامله يومئذ عليها هشام بن إسماعيل فدعا الناس إلى البيعة فبايعوا وأبى

⁽¹⁾ (الن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، 376/2

سعيد أن يبايع لهما وقال لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار ف قيل له ادخل واخرج من الباب الآخر قال والله لا يقتدي بي أحد من الناس فضربه هشام ستين سوطا وطاف به في تبان من شعر وسجنه فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع ويقول سعيد ! كان والله أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه.

الوليد بن عبد الملك : هذا فقيه الناس

وفى سنة 91هـ حج الوليد بالناس فلما اقترب من المدينة أمر عامله عليها عمر بن عبد العزيز أشرافها فتلقوه فرحب بهم وأحسن إليهم ودخل المدينة النبوية فأخلى له المسجد النبوى فلم يبق بهد أحد سوى سعيد بن المسيب لم يتجاسر أحد أن يخرج به وعليه ثياب لا تساوى خمسة دراهم فقالوا له تنح عن المسجد أيها الشيخ فإن أمير المؤمنين قادم فقال والله لا أخرج منه فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه ويصلى ههنا وههنا ويدعو الله عزوجل قال عمر بن عبد العزيز وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه فحانت منه التفاته فقال من هذا؟! أهو سعيد بن المسيب؟ فقلت نعم يا أمير المؤمنين ولو علم أنك قادم لقام إليك وسلم عليك فقال قد علمت بغضه لنا فقلت يا أمير المؤمنين إنه وإنه وشرعت أثنى عليه وشرع الوليد يثنى عليه بالعلم والدين فقلت يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر - وإنما قلت ذلك لأعذر له - فقال نحن أحق بالسعى إليه فجاء فوقف عليه فسلم عليه فرد عليه سعيد السلام ولم يقم له ثم قال الوليد كيف الشيخ؟ فقال بخير والحمد لله كيف أمير المؤمنين؟ فقال الوليد بخير والحمد لله وحده ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز هذا فقيه الناس فقال أجل يا أمير المؤمنين.(1).

سعيد بن جبير للحجاج الثقفي : إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله

قال الحسن: لما أتى الحجاج بسعيد بن جبير قال: أنت الشقي بن كسير قال: بل: أنا سعيد بن جبير؛ قال: بل أنت الشقي بن كسير! قال: كانت أمي أعرف باسمي منك قال: ما تقول في محمد؟ قال: تعني النبي قال: نعم قال سيد ولد آدم المصطفى خير من بقي وخير من مضى، قال: فما تقول في أبي بكر الصديق؟ قال: الصديق خليفة رسول الله مضى حميداً وعاش سعيداً ومضى على منهاج نبيه لم يغير ولم يبدل. قال: فما تقول في عمر؟ قال: عمر الفاروق خيرة الله وخيرة رسوله مضى حميداً على منهاج صاحبيه لم يغير ولم يبدل. قال فما تقول في عثمان؟ قال: المقتول ظلماً المجهز جيش العسرة الحافر بئر رومة المشتري بيته في الجنة، صهر رسول الله على ابنتيه، زوجة النبي بوحي من

السماء. قال: فما تقول في علي؟ قال: ابن عم رسول الله وأول من أسلم وزوج فاطمة وأبو الحسن والحسين، قال: فما تقول في؟ قال: أنت أعلم بنفسك، قال: بث بعلمك، قال: إذا نسوءك ولا نسرك، قال: بث بعلمك، قال: أعفني، قال: لا عفا الله عني إن أعفيتك، قال: إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله ترى من نفسك أموراً تريد بها الهيبة وهي التي تقحمك الهلاك وسترد غداً فتعلم، قال: أما والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك ولا أقتلها أحداً بعدك، قال: إذا تفسد علي دنياي وأفسد عليك آخرتك، قال: يا غلام السيف والنطع، فلما ولي ضحك قال: قد بلغني أنك لم تضحك! قال: قد كان ذلك، قال: فما أضحكك عند القتل؟ قال: من جرأتك على الله عز وجل ومن حلم الله عنك! قال: يا غلام اقتله، فاستقبل القبلة فقال: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام : 79)؛ فصرف وجهه عن القبلة فقال: ([ف]أَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ) (البقرة : 115) قال: اضرب به الأرض، قال: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) (طه : 55) قال: اذبح عدو الله فما أنزعه لآيات القرآن منذ اليوم.⁽¹⁾

سعيد بن جبير للحجاج الثقفي : ظهر منك جور في حد الله وجراءة على معاصيه بقتلك أولياء الله

قال ابن ذكوان: إن الحجاج بن يوسف بعث إلى سعيد بن جبير فأصابه الرسول بمكة فلما سار به ثلاثة أيام رآه يصوم نهاره ويقوم ليله فقال الرسول: والله إني لأعلم أني أذهب بك إلى من يقتلك فأذهب إلى أي طريق شئت! فقال له سعيد: إنه سيبلغ الحجاج أنك قد أخذتني فإن خليت عني خفت أن يقتلك ولكن اذهب بي إليه قال فذهب به فلما دخل عليه قال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير، فقال: بل شقي بن كسير، فقال: أمي سممتي، قال: شقيت، قال: الغيب يعلمه غيرك، قال له الحجاج: أما والله لأبذلنك من دنياك نارا تلظى، قال سعيد: لو علمت أن ذلك إليك ما اتخذت إلهاً غيرك، ثم قال له الحجاج: ما تقول في رسول الله؟ قال: نبي مصطفى، خير الباقين وخير الماضين، قال: فما تقول في أبي بكر الصديق؟ قال: ثاني اثنين إذ هما في الغار أعز الله به الدين وجمع به بعد الفرقة قال: فما هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ قال: فاروق، وخيرة الله من خلقه، أحب الله أن يعز الدين بأحد الرجلين فكان أحقهما بالخير والفضيلة، قال: فما تقول في عثمان بن عفان؟

¹ (أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي ، المحن ، تحقيق د عمر سليمان العقيلي ، دار العلوم ، الرياض - السعودية ، 1404 هـ - 1984 م ، ص 227

قال: مجهز جيش العسرة والمشتري بيتاً في الجنة، والمقتول ظلماً، قال: فما تقول في علي؟ قال: أولهم إسلاماً وأكثرهم هجرة، تزوج بنت رسول الله التي هي أحب بناته إليه، فقال: فما تقول في معاوية؟ قال: كاتب رسول الله، قال: فما تقول في الخلفاء منذ كان رسول الله إلى الآن؟ قال: سيجزون بأعمالهم فمسرور ومثبور ولست عليهم بوكيل، قال: فما تقول في عبد الملك بن مروان؟ قال: إن يكن محسناً فعند الله ثواب إحسانه وإن يكن مسيئاً فلن يعجز الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنت بنفسك أعلم، قال: بث في علمك، قال: إذا أسوءك ولا أسرك، قال: بث، قال: نعم، ظهر منك جور في حد الله وجراً على معاصيه بقتلك أولياء الله، قال: والله لأقطعنك قطعاً وأفرقن أعضائك عضواً عضواً، قال: إذا تفسد علي دنياي وأفسد عليك آخرتك والقصاص أمامك، قال: الويل لك من الله، قال: لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار، قال: اذهبوا به فاضربوا عنقه، قال سعيد: إني أشهدك أني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أستحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة، فلما ذهبوا به ليقتل تبسم فقال له الحجاج: مم ضحكت؟ قال: من جرأتك على الله عز وجل، فقال الحجاج: أضجعوه للذبح، فأضجع فقال: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (الأنعام : 79)؛ فقال الحجاج: اقلبوا ظهره إلى القبلة فقرأ سعيد (فَإِنَّمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ) (البقرة : 115)؛ فقال: كبوه على وجهه فقرأ سعيد (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) (طه : 55)؛ فذبح من قفاه؛ قال: فبلغ ذلك الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج؛ فما بقي إلا ثلاثاً حتى وقع في جوفه الدود فمات (1).

ابن سيرين لابن هبيرة : رأيت ظلماً فاشياً

بعث ابن هبيرة (2) إلى ابن سيرين والحسن والشعبي، فدخلوا عليه فقال لابن سيرين: يا أبا بكر ماذا رأيت منذ قربت من بابنا؟ قال: رأيت ظلماً فاشياً، قال: فغمزه ابن أخيه بمنكبه فالتفت إليه ابن سيرين فقال: إنك لست تسأل إنما أنا أسأل، فأرسل إلى الحسن بأربعة آلاف وإلى ابن سيرين بثلاثة آلاف وإلى الشعبي بألفين، فأما ابن سيرين فلم يأخذها. (3)

(1) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، 1405م، 295/4

(2) وكان والياً على العراق.

(3) عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري - د. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، 1399 - 1979م، 245/3

الحسن البصري : إن الله يمنعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله :

لما ولي عمر بن هبيرة الفزارى العراق وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والشعبي سنة ثلاث ومائة فقال لهم إن يزيد خليفة الله استخلفه على عبادته وأخذ عليهم الميثاق بطاعته وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة وقد ولاني ما ترون فيكتب إلي بالأمر من أمره أعرف في تنفيذه الهلكة فأخاف إن أطعته غضب الله وإن عصيته لم آمن سطوته فما ترون فقال ابن سيرين والشعبي قولا فيه تقية وكان ابن هبيرة لا يستشفي دون أن يسمع قول الحسن فقال قل ما عندك يا أبا سعيد فقال يا بن هبيرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله إن الله يمنعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله وأوشك أن يبعث إليك ملكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ثم لا ينجيك إلا عملك يا بن هبيرة إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (1) .

الحسن البصري : فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك :

وفي رواية أخرى قال أقول والله إنه يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فلا يغني عنك ابن عبد الملك شيئا وإنني لأرجو أن الله عز وجل سيعصمك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله فاتق الله أيها الأمير فإنك لا تأمن أن ينظر الله إليك وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد نظرة يمقتك بها فيغلق عنك باب الرحمة واعلم أني أخوفك ما خوفك الله سبحانه حين يقول (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (وإذا كنت مع الله عز وجل في طاعته كفاك بوائق يزيد وإن كنت مع يزيد على معصية الله وملكك الله إلى يزيد حين لا يغني عنك شيئا فبكي عمر بن هبيرة بكاء شديدا ثم أجازهم وأضعف جائزة الحسن فقال الشعبي لابن سيرين سفسفنا له فسفسف لنا (2) .

الحسن البصري : أما والله لو زهدتم فيما عند الملوك لرغبوا فيما عندكم :

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي النحوي البغدادي (3) قال :مر الحسن البصري رحمه الله بباب عمر بن هبيرة، وعليه القراء، فسلم

¹ (أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية – بيروت ، 491/2

² (أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية – بيروت ، 491/2

³ (كتاب الأمالي ، ص3

ثم قال : ما لكم جلوساً قد أحفيتم شواربكم، وحلقتم رؤوسكم، وقصرتم أكمامكم، وفلطحتم نعالكم؟ أما والله لو زهدتم فيما عند الملوك لرغبوا فيما عندكم ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيما عندكم فضحتم القراء فضحكهم الله؛ قال عبد الرحمن يعني ابن أخي الأصمعي: قلت لعمي: ما المفطح؟ قال: هو الشيء يعرض أعلاه ويدق أسفله، ومنه قيل: رأس مفطح، والعامّة تقول مفطح.

أما أهل السموات فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد لعنوك :

وروي أن الحجاج بني دارا بواسط وأحضر الحسن ليراها فلما دخلها قال الحمد لله إن الملوك ليرون لأنفسهم عزا وإنا لنرى فيهم كل يوم عبداً يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده وإلى فرش فينجدّه وإلى ملابس ومراكب فيحسنها ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء فيقول انظروا ما صنعت فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفسق الفاسقين أما أهل السموات فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد لعنوك بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور ثم خرج وهو يقول إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبينه للناس ولا يكتُمونه .

وبلغ الحجاج ما قال فاشتد غضبه وجمع أهل الشام فقال يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ثم أمر بإحضاره فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج فقال يا أبا سعيد أما كان لإمارتي عليك حق حين قلت ما قلت فقال يرحمك الله أيها الأمير إن من خوفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحب فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف وما أردت الذي سبق إلى وهمك والأمران بيدك العفو والعقوبة فافعل الأولي بك وعلى الله فتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا الحجاج منه واعتذر إليه وأكرمه وحياه .

وفي رواية أخرى فلما دخل قال له الحجاج ها هنا فأجلسه قريباً منه وقال ما تقول في علي وعثمان قال أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك قال فرعون لموسى (فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) علم علي وعثمان عند الله قال أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ودعا بغالية وعلف بها لحيته فلما خرج تبعه الحاجب فقال له ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه قال قلت يا عدتي عند كربتي ويا صاحبي عند

شدتي ويا ولي نعمتي ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أرزقني مودته واصرف عني أذاه ففعل ربي عز وجل⁽¹⁾ .

أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر :

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والقر والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلاً تسهر بسهره وتسكن بسكونه ترضعه تارة وتفظمه أخرى وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى وخازن المساكين يربي صغيرهم ويمون كبيرهم والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر إلى الله ويريههم وينقاد إلى الله ويقودهم فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثوائك ويفارقك أحباؤك يسلمونك في قعره فريداً وحيداً فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ولا تسلك

⁽¹⁾ أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية -

بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك لا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غدا وأنت مأسور في حبائل الموت وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحي القيوم إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي فلم آلك شفقة ونصحا فأنزل كتابي إليك كمدائي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته (1).

عطاء بن رباح لعبد الملك بن مروان : ما لي إلى مخلوق حاجة :

قال الأصمعي : دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك ، وهو جالس على السرير ، وحوله الأشراف ، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ، فلما بصر به عبد الملك ، قام إليه فسلم عليه ، وأجلسه معه على السرير ، وقعد بين يديه ، وقال : يا أبا محمد : حاجتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! اتق الله في حرم الله ، وحرم رسوله ، فتعاهده بالعمارة ، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله في أهل الثغور ، فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين ، فإنك وحدك المسئول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك ، فلا تغفل عنهم ، ولا تغلق دونهم بابك ، فقال له : أفعل ، ثم نهض وقام ، فقبض عليه عبد الملك وقال : يا أبا محمد ! إنما سألتنا حوائج غيرك ، وقد قضيناها ، فما حاجتك ؟ قال : ما لي إلى مخلوق حاجة ، ثم خرج ، فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف ، هذا وأبيك السؤدد (2) .

ليست هذه مشية من في بطنه خُراء !

قال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو الحسن الشيباني حدثني شيخ لنا أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر إليه طاووس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه وقال: ليست هذه مشية من في بطنه خُراء! فقال عمر كالمعتذر: يا عم ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها.

¹ (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 9/1

(2) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 92/9

والله إن كنت لغنياً أن تغضبه علينا:

كان طاووس يصلي في غداة باردة منعمة، فمر به محمد بن يوسف أو أبو نصر بن يحيى وهو ساجدٌ، في موكبه فأمر بساج أو طيلسان مرتفع وطرح عليه، فلم يرفع رأسه حتى فرغ من حاجته؛ فلما سلم نظر فإذا الساج عليه فانتفض ولم ينظر إليه ومضى إلى منزله.

وفي رواية: أن طاووساً دخل على محمد بن يوسف في غداة باردة، فقعد طاووس على الكرسي، فقال: يا غلام هلم ذلك الطيلسان فألقه على أبي عبد الرحمن، فألقوه عليه، فلم يزل يحرك كتفيه حتى ألقى الطيلسان وغضب محمد بن يوسف؛ فقال له وهب بن منبه: والله إن كنت لغنياً أن تغضبه علينا، لو أخذت الطيلسان فبعته وأعطيت ثمنه المساكين؟ فقال: نعم، لولا أن يقال من بعدي: أخذه طاووس فلا تصنع فيه ما أصنع، إذاً لفعلت.

تركته ظلوماً غشوماً مطيعاً للمخلوق عاصياً للخالق:

قال علي بن زيد: قال طاووس: بينا أنا بمكة بعث إلي الحجاج فأجلسني إلى جنبه واتكأني على وسادة، إذ سمع مليباً يلبي حول البيت رافعاً صوته بالتلبية؛ فقال: علي بالرجل؛ فأتي به، فقال: ممن الرجل؟ قال: من المسلمين؛ قال: ليس عن الإسلام سألتك؛ قال: فعم سألت؟ قال: سألتك عن البلد؛ قال: من أهل اليمن؛ قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ قال: تركته عظيماً جسيماً لباساً ركاباً خراجاً ولاجاً؛ قال: ليس عن هذا سألتك؛ قال: فعم سألت؟ قال: سألت عن سيرته، قال: تركته ظلوماً غشوماً مطيعاً للمخلوق عاصياً للخالق؛ فقال له الحجاج: ما يملكك على أن تتكلم بهذا الكلام وأنت تعلم مكانه مني؟ قال الرجل: أتراه بمكانه منك أعز مني بمكاني من الله وأنا وافد بيته ومصدق نبيه، وقاضي دينه؟ قال: فسكت الحجاج، فما أحرار به جواباً؛ وقام الرجل من غير أن يؤذن له، فانصرف.

قال طاووس: فقامت في أثره وقلت: الرجل حكيم؛ فأتى البيت فتعلق بأستاره ثم قال: اللهم بك أعوذ وبك ألوذ، اللهم اجعل لي في اللفه إلى جودك والرضى بضممانك مندوحة عن منع الباخلين، وغنى عما في أيدي المستأثرين، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة؛ ثم دخلت في الناس فرأيتها عشية عرفة، وهو يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجتي وتعبني ونصبي فلا تحرمني الأجر عن مصيبتني بتركك القبول مني؛ ثم ذهب

في الناس فرأيتهم غداة جمع يقول: واسوءتاه منك والله وإن غفرت؛ يردد ذلك⁽¹⁾.

يا لكع لم تستطع أن تحبس عنهم لسانك :

حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن طاووس بن كيسان قال: كنت لا أزال أقول لأبي: إنه ينبغي أن نخرج على هذا السلطان وأن نفعل به؛ قال: فخرجنا حجاجاً فنزلنا في بعض القرى، وفيها عامل لمحمد بن يوسف، أو أيوب بن يحيى، يقال له: ابن نجيح؛ وكان من أخبث عمالهم؛ فشهدنا صلاة الصبح في المسجد؛ فإذا ابن نجيح قد أخبر بطاووس؛ فجاء، فقعده بين يديه؛ فلم يجبه؛ فكلّمه، فأعرض عنه؛ ثم عدل إلى الشق الأيسر، فأعرض عنه؛ فلما رأيت ما به قمت إليه فمددت يده، وجعلت أسأله، رجاء له: إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك؛ قال: بل لمعرفته بي فعل بي ما رأيت؛ قال: فمضى وهو ساكت لا يقول لي شيئاً؛ فلما دخلت المنزل التفت إلي فقال لي: يا لكع بينما أنت زعمت أن تخرج عليهم بسيفك لم تستطع أن تحبس عنهم لسانك⁽²⁾.

فما هو إذاً كما تقولون ؟!:

قال عبد الرزاق: قدّم طاووس بن كيسان مكةً فقدم أميراً فقيل له: إن من فضله ومن ومن، فلو أتيتَه! قال: ما لي إليه حاجة! قالوا: إنا نخاف عليك! قال: فما هو إذاً كما تقولون.

قد بنت عليها العنكبوت :

عن النعمان بن الزبير أن محمد بن يوسف وأيوب بن يحيى بعثا إلى طاووس بن كيسان بخمسمئة دينار، وقالوا للرسول: إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك؛ فخرج بها حتى قدم على طاووس، فقال: يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث بها إليك الأمير؛ قال: ما لي بها من حاجة؛ قال: فأراده على قبضها فأبى؛ فغفل طاووس فرمى بها في كوة في البيت ثم ذهب فقال لهم: قد أخذها؛ فلبثوا حيناً، ثم بلغهم عن طاووس شيء يكرهونه، فقال: ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا؛ فجاءه الرسول فقال: المال الذي بعث به إليك الأمير؟ قال: ما قبضت منه شيئاً؛ فرجع الرسول، فأخبرهم، فعرفوا أنه صادق؛ فقيل للرجل الذي ذهب بها، فبعثوه إليه، فقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هل قبضت منك شيئاً؟ قال: لا، قال: فهل تدري أين وضعته؟ قال: نعم،

⁽¹⁾ ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، 98/2

⁽²⁾ الذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، 4 / 16

في تلك الكوة، قال: فأبصره حيث وضعته، قال: فمد يده فإذا هو بالصرة قد بنت عليها العنكبوت؛ فأخذها، فذهب بها إليهم ⁽¹⁾.

أنى رأيت الله قد أدبر عنكم فأدبرت. ثم رأيت الله قد أقبل عليكم فأقبلت:
كان طاووس رحمه الله إذا قدم مكة نزل بصديق له، فقال ذات يوم: يا أبا عبد الرحمن، إن الدنيا أقبلت علينا حتى لو اشترينا تراباً لربحنا فيه، ولو أن البيضة سقطت من السطح لم تنكسر؛ فقطع النزول به. فأتاه الرجل بعد ذلك فقال: أن الدنيا قد أدبرت عنا؛ فنزل به فسأل الرجل، فقال: أنى رأيت الله قد أدبر عنكم فأدبرت. ثم رأيت الله قد أقبل عليكم فأقبلت ⁽²⁾.

أوصيك بتقوى الله فإن اتقيت الله عز وجل كفاك الناس :

كتب سفيان الثوري إلى عباد بن عباد فقال :
من سفيان بن سعيد إلى عباد بن عباد سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد :

فإني أوصيك بتقوى الله فإن اتقيت الله عز وجل كفاك الناس ، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عندك من الله شيئاً ، سألت أن أكتب إليك كتاباً اصف لك فيه خلالاً تصحب بها أهل زمانك وتؤدي إليهم ما يحق لهم عليك وتسأل الله عز وجل الذي لك ، وقد سألت عن أمر جسيم ، الناظرون فيه اليوم المقيمون به قليل ، بل لا أعلم مكان أحد ، وكيف يستطيع ذلك ؟ وقد كدر هذا الزمان ، إنه ليشتبه الحق والباطل ، ولا ينجو من شره إلا من دعا بدعاء الغريق ، فهل تعلم مكان أحد هكذا ؟ وكان يقال : يوشك أن يأتي على الناس زمان لا تفر فيه عين حكيم فعليك بتقوى الله عز وجل والزم العزلة واشتغل بنفسك واستأنس بكتاب الله عز وجل ، واحذر الأمراء ، وعليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم فإن استطعت أن تأمر بخير في رفق فإن قبل منك حمدت الله عز وجل وإن رد عليك أقبلت على نفسك فإن لك فيها شغلاً ، واحذر المنزلة وحبها فإن الزهد فيها أشد من الزهد في الدنيا ، وبلغني أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يتعودون أن يدركوا هذا الزمان وكان لهم من العلم ما ليس لنا ، فكيف بنا حين أدركنا على قلة علم وبصر وقلة صبر وقلة أعوان على الخير مع كدر من الزمان وفساد من الناس وعليك بالأمر الأول والتمسك به وعليك بالخمول فإن هذا زمان خمول وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس

¹ (أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 4/14

² (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 1/89

فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إياكم والطمع فإن الطمع فقر واليأس غنى وفي العزلة راحة من خلاط السوء ، وكان سعيد بن المسيب يقول : العزلة عبادة ، وكان الناس إذا اتقوا انتفع بعضهم ببعض فأما اليوم فقد ذهب ذلك والنجاة في تركهم فيما نرى وإياك والأمرء والدنو منهم وأن تخالطهم في شيء من الأشياء ، وإياك أن تخذع فيقال لك : تشفع فتد عن مظلوم أو مظلمة فإن تلك خدعة إبليس وإنما اتخذها فجار القراء سلماً ، وكان يقال : اتقوا فتنة العابد الجاهل وفتنة العالم الفاجر فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، وما كفيت المسألة والفتيا فاعتنم ذلك ولا تنافسهم وإياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله وينشر قوله أو يسمع منه ، وإياك وحب الرياسة فإن من الناس من تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة ، واحذر الرياء فإن الرياء أخفى من دبيب النمل ، وقال حذيفة : سيأتي على الناس زمان يعرض على الرجل الخير والشر فلا يدري أيما ركب ، وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تزال يد الله عز وجل على هذه الأمة وفي كنفه وفي جواره وجناحه ما لم يمل قراؤهم إلى أمرائهم وما لم يبر خيارهم أشرارهم وما لم يعظم أبرارهم فجارهم فإذا فعلوا ذلك رفعها عنهم وقذف في قلوبهم الرعب وأنزل بهم الفاقة وسلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ، وقال : إذا كان ذلك لا يأتهم أمر يضجون منه إلا أردفه بآخر يشغلهم عن ذلك . فليكن الموت من شأنك ومن بالك ، وأقل الأمل وأكثر ذكر الموت فإنك إن أكثرت ذكر الموت هان عليك أمر دنياك ، وقال عمر : أكثروا ذكر الموت إنكم إن ذكرتموه في كثير قلله وإن ذكرتموه في قليل كثره ، واعلموا أنه قد حان للرجل يشتهي الموت أعادنا الله وإياك من المهالك وسلك بنا وبك سبيل الطاعة .

فينبغي للعبد أن يتأمل هذه الرسالة جيداً ولتكن له عبرة وعظة من هذا الإمام الذي يقول في زمانه ما قال فماذا نقول نحن في زماننا هذا والله المستعان⁽¹⁾ .

¹ (عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي ، الجرح والتعديل ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأولى ، 1271 - 1952م ، 86/1

فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك؟ :

- وقال سفيان الثوري :لما حج المهدي قال :لا بد لي من سفيان .فوضعوا لي المرصد حول البيت فأخذوني بالليل، فلما مثلت بين يديه أدناني ثم قال : لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمورنا، فما أمرتنا من شيء صرنا إليه وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه؟ فقلت له :كم أنفقت في سفرك هذا؟ قال :لا أدري لي أمناء ووكلاء .قلت :فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك؟ لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حج قال لغلامه :كم أنفقتا في سفرتنا هذه؟ فقال :يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً .فقال : ويحك، أجحفتنا بيت مال المسلمين!

وقال سفيان الثوري لأبي جعفر المنصور :إني لأعلم رجلاً إن صلح صلحت الأمة وإن فسد فسدت الأمة، قال :ومن هو؟ قال :أنت! (1)

أنت مستقتل لا يحل لأحد أن يصحبك :

وكان سفيان بمكة فمرض ومعه الأوزاعي، فدخل عليه الوزير عبد الصمد بن علي فحول وجهه إلى الحائط، فقال الأوزاعي لعبد الصمد :إن أبا عبد الله سهر البارحة فلعله أن يكون نائماً، فقال سفيان :لست بنائم، لست بنائم، فقام عبد الصمد، فقال الأوزاعي لسفيان :أنت مستقتل لا يحل لأحد أن يصحبك(2).

النظر إلى وجه الظالم خطيئة :

وعنه أنه قال :النظر إلى وجه الظالم خطيئة، ولا تنظروا إلى الأئمة المضلين إلا بإنكار من قلوبكم لئلا تحبط أعمالكم.

وقال، وقد ذكروا أمر السلطان وطلبهم إياه :أترون أني أخاف هوانهم؟إنما أخاف كرامتهم(3).

العقل لزوم الحق وقول الصدق :

وسمع سفيان الثوري رجلاً في مجلسه يقول :كان معاوية عاقلاً، فقال :العقل لزوم الحق وقول الصدق.

¹ (الطرطوشي ، سراج الملوك ، 21/1

² (أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 38/7

³ (أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 40/7

من السفلة؟ :

قال ابن المبارك : سألت سفيان الثوري من الناس؟ قال : العلماء، قلت : من الأشراف؟ قال : المتقون، قلت : من الملوك؟ قال : الزهاد، قلت : من الغوغاء؟ قال : القصاص الذين يستأكلون أموال الناس بالكلام، قلت : من السفلة؟ قال : الظلمة⁽¹⁾.

وإياك والركون إلى الظلمة :

قال سفيان الثوري " : من أخذ من ظالم درعاً أو مالاً أو سلاحاً فغزا به في سبيل الله لعن بكل قدم يرفعها ويضعها حتى يرجع . " وإياك ومحبة فاجر أو ظالم أو فاسق أو مبتدع أو تميل إلى أحد منهم أو تبشّ في وجهه . قال صلى الله عليه وسلم " : لا تجعل لفاجر عندي يداً فترزقه مني محبة وإياك والركون إلى الظلمة " (قال الله تعالى) : ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار (إياك وحب من لا يستحق المحبة من المخطئين أو تقبل منهم إحساناً فإنه جبلت القلوب على حب من أحسن إليها " ⁽²⁾).

وما عملت يا أمير المؤمنين فيما علمت فأعظك ؟! :

كان سفيان الثوري يطوف بالبيت، فقدم الرشيد يريد الطواف، فقطع سفيان طوافه وذهب وتلا هذه الآية) : لا تَجِدُ قَوْماً... وأرسل أبو جعفر إلى سفيان الثوري فلما دخل عليه قال : عظمي أبا عبد الله قال : وما عملت يا أمير المؤمنين فيما علمت فأعظك فيما جهلت فما وجد له المنصور جواباً " ⁽³⁾.

ولكنك قبضت عليّ قبضة جبار :

ولقي أبو جعفر سفيان الثوري في الطواف وسفيان لا يعرفه فضرب بيده على عاتقه وقال : أتعرفني قال : لا ولكنك قبضت عليّ قبضة جبار ⁽⁴⁾ .

إن الله سبحانه نهانا عنكم :

لقي المنصور سفيان الثوري فقال له : ما يمنعك أن تأتينا يا أبا عبد الله ؟ فقال : إن الله سبحانه نهانا عنكم حيث يقول ' : ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ' ودخل عليه يوماً وقد أرسل إليه ، فقال له : سل حاجتك ، قال أو تقضيها ؟ ، قال : نعم ، قال : حاجتي أن لا ترسل إلي حتى آتيك ، ولا

¹ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 62/1

² (المشتولي ، سلوة الأحزان للاجتناح عن مجالسة الأحداث والنسوان ، 41/1

³ (ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 84/1

⁴ (ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 254/2

تعطيني شيئاً حتى أسألك . ثم خرج فقال المنصور : القينا الحب إلى العلماء فلقطوه ، إلا ما كان من سفيان الثوري⁽¹⁾ .

تريد أن أكون مثلك ؟! :

قال الفريابي سمعت سفيان الثوري يقول أدخلت على أبي جعفر بمنى فقلت له اتق الله فإنما أنزلت هذه المنزلة صرت في هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعاً حج عمر بن الخطاب فما أنفق إلا خمسة عشر ديناراً وكان ينزل تحت الشجر فقال لي فإنما تريد أن أكون مثلك قال قلت لا تكن مثلي ولكن كن دون ما أنت فيه وفوق ما أنا فيه فقال لي أخرج . قال أبو عبيد الله ما أعلقتا مخالينا هذه في عنق أحد إلا قضم منها إلا سفيان الثوري .

قال الشافعي دخل سفيان الثوري على أمير المؤمنين فجعل يتجان عليهم ويمسح البساط ويقول ما أحسنه ما أحسنه بكم أخذتم هذا ثم قال البول البول حتى أخرج قال أبو محمد قلت يعني أنه احتال بما فعل ليزهدوا فيه فيتباعد منهم ويسلم من شرهم⁽²⁾ .

الوضوء الوضوء :

قال النضر بن زرارة طلب أبو جعفر الثوري حتى قدم عليه فأدخل عليه قال فأقبل على سفيان بالملامة فقال تبغضنا وتبغض دعوتنا وتبغض عترة رسول الله ﷺ قال والثوري يقول سلام سلام قال ثم رفع الثوري رأسه فقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم " إلى قوله " إن ربك لبالمرصاد " قال فنكس أبو جعفر رأسه وجعل ينكت بقضيب في يده الأرض فقال سفيان الوضوء الوضوء ثم قام فخرج عنه⁽³⁾ .

ولكن أكره أن أذل :

قال يحيى بن سليم الطائفي كان محمد بن إبراهيم يعني الهاشمي والياً على مكة وبعث إلى سفيان الثوري بمائتي دينار فأبى أن يقبلها قلت له يا أبا عبد الله كأنك لا تراها حلالاً قال بلى ولكن أكره أن أذل⁽⁴⁾ .

⁽¹⁾ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 288/2

⁽²⁾ الرازي ، الجرح والتعديل ، 106/1

⁽³⁾ الرازي ، الجرح والتعديل ، 113/1

⁽⁴⁾ الفهرست: 225 وطبقات الشيرازي، ص 23 وطبقات ابن سعد 6: 371 والمعارف: 497 والجواهر المضية 1: 250 وحلية الأولياء 6: 356 وتهذيب التهذيب 4: 111 وتاريخ بغداد 9: 151 وتذكرة الحفاظ: 203 ورجال ابن حبان: 169.

واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع مني :

لما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان تأقت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف على أخبار الناس، فلم يجد من يصلح لمناذمته غير الشعبي، فلما حمل إليه وناداه وحظي عنده قال له : يا شعبي لا تساعدني على ما قبح، ولا ترد علي الخطأ في مجلسي، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية، ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى، وكلمني بقدر ما أستطعمك واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع مني، وأعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول، وإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتك منه شيء، وأرني فهمك في طرفك وسمعتك، ولا تجهد نفسك في تطرية جوابي، ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي، فإن أسوأ الناس حالاً من استكد الملوك بالباطل، وإن أسوأ حالاً منهم من استخف بحقهم، وأعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان، ويسقط حتى الحرمة فإن الصمت في موضعه ربما كان أبلغ من المنطق في موضعه، وعند إصابته فرصة⁽¹⁾.

ابعث إليّ بأجمع رجل عندك ! :

وقال قتادة : كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إليّ بأجمع رجل عندك ! فبعث إليه بالشعبي. فلما قدم عليه قال له عبد الملك : علم بني ست خصال، ثم شأنك بعد تأديبهم ! علمهم صدق الحديث كما تعلمهم القرآن، وعلمهم الشعر ينجدوا ويمجدوا - يعني أنهم يكونوا أسخياء وفرساناً - وجر شعورهم تشتد رقابهم، وأطعمهم اللحم تصح قلوبهم، وجنبهم الحشم فإنه مفسدة لهم، وجالس بهم على الرجال يناقضونهم الكلام فإنه خيار الناس ! وقال عبد الملك للشعبي : لله در ابن قميئة حيث يقول :

كأني وقد خلفت تسعين حجة ... خلعت بها عني عذار لجامي
رمتي بنات الدهر من حيث لأرى ... فكيف بمن يرمى وليس برامي
فلو أنها نبل إذا لاتقيتها ... ولكنني أرمى بغير سهام⁽²⁾

لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء :

وكان عامر بن شراحيل الشعبي ممن خرج علي الحجاج وكان قتيبة بالري، وسأل الحجاج عن الشعبي فأخبره يزيد بن أبي مسلم، مولى الحجاج، بمصيره إلى قتيبة، فكتب إلى قتيبة بأشخاصه فلما قدم به استشار ابن أبي مسلم في أمره فقال : ما أدري ما أشير به، غير أن اعتذر ما استطعت، فلما

¹ (المسعودي ، مروج الذهب ، 388/1

² (المرزباني ، نور القبس ، 92/1

دخل على الحجاج سلم بالإمرة ثم قال :أيها الأمير إن الناس أمروني أن اعتذر إليك بغير الحق، وإيم الله لا قلت في مقامي هذا إلا حقاً، قد والله سعرنا عليك الحرب واجتهدنا كل الجهد فما ألونا، ولقد نصرك اله علينا وظفرك بنا، فإن سطوت علينا فبذنوبنا وما كسبت أيدينا، وإن عفوت فبحلمك عنا وبعد الحجة علينا.

فقال :أنت والله أحب إلي قولاً ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا فيقول والله ما فعلت ولا شهدت، فقد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف، قال الشعبي :ثم دعاني فارتعت حتى ذكرت قوله أنت آمن عندنا فاطمأنت، فلما دخلت عليه قال :هيه يا شعبي .فقلت :أصلح الله الأمير، أوحش الجنب وأحزن المنزل ونبا بنا، واستشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر، واستحلنا البلاء، وفقدنا الصالحين من الإخوان -أو قال صالحى الإخوان -وشملتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء، وما أعتذر إلى الأمير ألا أكون شيعت عليه، وقد كنت أكتب إلى يزيد بن أبي مسلم بعذري وأعلمه حالي فصدقه يزيد .فقال الحجاج :قد قبلت عذرك يا شعبي، وأمر بعطائه فرد عليه وقال :انصرف مصاحباً.

حدثنا يوسف بن موسى القطان عن جرير عن مغيرة قال :دخل الشعبي على الحجاج فقال له :ما الذي نقت ؟ .قال :لا يسألني الأمير ما نقت ولكن ليسلني لم بطرت.

عن عيسى الحناط قال :لما ظهر الحجاج على ابن الأشعث، جعل يؤتى بالناس فأتى بالشعبي فقال :هيه يا شعبي .قال :أصلح الله الأمير، أجذب الجنب واعتارنا السهر، وامتلأنا رعباً، وأتينا فتنة لم نكن فيها أبراراً أتقياء ولا فجاراً أقوياء .قال :صدق الشعبي، خلو سبيله.

عن الشعبي قال :لما انهزم ابن الأشعث ضاقت بي الأرض وكرهت ترك عيالي وولدي، فأتيت يزيد بن أبي مسلم، وكان لي صديقاً، وكانت الصداقة تنفع عنده، فقلت :قد صرت إلى ما ترى ؟ قال :إن الحجاج لا يكذب ولا يخدع ولكن قم بين يديه وأقر بذنبك واستشهدني على ما شئت، قال :فوالله ما شعر الحجاج إلا وأنا قائم بين يديه فقال :أعامر ؟ قلت :نعم أصح الله الأمير .قال : ألم أقدم العراق فأحسنك إليك ووفدتك إلى أمير المؤمنين واستشرتك ؟ قلت : بلى .قال :فأنى كنت في هذه الفتنة ؟ قال :استشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر، وأحزن بنا المنزل وأوحش الجنب وفقدنا صالحى الإخوان وشملتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء، وقد كنت أكتب إلى يزيد بن أبي مسلم

بعذري .فصدقه يزيد، فقال الحجاج :هذا، لا من ضربنا بسيفه ثم جاءنا بالأحاديث كان وكان.

عن الشعبي قال :أتي بي الحجاج، فلما انتهيت إلى الباب لقيني يزيد بن أبي مسلم، فقال :إنا لله يا شعبي لما بين كفيك من العلم، وليس بيوم شفاعة، بؤ الأمير بالشرك والنفاق على نفسك فبالحري أن تنجو، ثم لقيني محمد بن الحجاج فقال مثل مقالة يزيد .فقال لي الحجاج :وأنت يا شعبي فيمن خرج علينا ؟ .فقلت :أصلح الله الأمير، أحزن بنا المنزل، وأجذب الجنب، وضاق المسلك، واكتحلنا السهر واحتلسنا الخوف ووقعنا في خزية لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء.

فقال :صدق والله، ما بروا بخروجهم ولا قووا بحمد الله علينا إذ فجروا، أطلق عنه.

ثم قال :ما تقول في أم وأخت وجد ؟ .قلت :اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول الله ﷺ :عثمان بن عفان، وعلي وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت .قال :ما قال فيها ابن عباس إن كان لمتقناً ؟ .قلت :جعل الجد أباً فأعطى الأم الثلث ولم يعط الأخت شيئاً .قال :فابن مسعود ؟ قلت :جعلها من ستة فأعطى الأخت النصف ثلاثة، والجد الثلث اثنين، والأم سدساً .قال :فأمير المؤمنين عثمان ؟ قلت :جعلها أثلاثاً .قال :فزيد بن ثابت ؟ قلت :جعلها من تسعة، أعطى الأم الثلث ثلاثة والجد أربعة، والأخت اثنين .قال :فأبو تراب ؟ قلت :جعلها من ستة، أعطى الأخت النصف ثلاثة، والأم الثلث، والجد السدس .فقال :مروا القاضي أن يمضيها على قول أمير المؤمنين عثمان⁽¹⁾.
إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل!

قال علقمة بن مرثد :لما ولي عمر بن هبيرة العراق أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي فأمر لهما بببيت وكانا فيه شهراً أو نحوه، ثم إن الخصي غدا عليهما ذات يوم فقال :إن الأمير داخلٌ عليكما فجاء عمر يتوكأ على عصا له فسلم ثم جلس معظماً لها فقال :إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ينفذ كتباً أعرف أن في انفاذها الهلكة فإن أطعته عصيت الله وإن عصيته أطعت الله عز وجل فهل ترياً لي في متابعتي إياه فرجاً؟ فقال الحسن :يا أبا عمرو أجب الأمير، فتكلم الشعبي فانحط في حبل ابن هبيرة !فقال :ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال :أيها الأمير قد قال الشعبي ما قد سمعت؛ قال :ما تقول أنت يا أبا سعيد؟

¹ (الذهبي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، 348/7

فقال :أقول يا عمر بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك !يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل !يا عمر بن هبيرة لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك نظرة مقت فيغلق بها باب المغفرة دونك !يا عمر بن هبيرة لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة أشد إدماراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة؛ يا عمر بن هبيرة إني أخوفك مقاماً خوفكه الله تعالى فقال : " ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ " ؛ يا عمر بن هبيرة إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك؛ وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلك الله إليه؛ قال :فبكى عمر وقام بعبرته؛ فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوانزهما وكثر منه ما للحسن وكان في جائزته للشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد فقال :يا أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفعل، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسن منه شيئاً فجعلته، ولكن أردت وجه ابن هبيرة فأقصاني الله منه .!!(1)

كلام حكمة خرج من قلب خراب!

سمع الشعبي الحجاج بن يوسف وهو على المنبر يقول :أما بعد فإن الله كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء؛ فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء؛ فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، وأقصروا من الأمل لقصر الأجل؛ فقال :كلام حكمة خرج من قلب خراب!.(2)

فينحيك فيكون نقصاً عليك

تباعد كعب الأحبار يوماً في مجلس عمر بن الخطاب، فأنكر ذلك عليه، فقال : يا أمير المؤمنين !إن في حكمة لقمان ووصيته لابنه :إذا جلست إلى ذي سلطان فليكن بينك وبينه مقعد رجل، فلعلّه يأتيه من هو أثر عنده منك فينحيك فيكون نقصاً عليك(3).

¹ (أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 150/2

² (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، زهر الأداب وثمر الألباب ، تحقيق : أ. د / يوسف على طویل ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1417 هـ - 1997م ، 138/1

³ (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م ، 12/7

الهدية تفقأ عين الحكيم

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :كانت الهدية فيما مضى هدية، أما اليوم فهي رشوة .وقال كعب الأحبار :قرأت في ما أنزل الله على بعض أنبيائه : الهدية تفقأ عين الحكيم.

وقال الشاعر:

إذا أتت الهدية باب قوم ...تطأيرت الأمانة من كواها⁽¹⁾

ما يمنعك من أن تجلس على الوسادة ؟

ودخل كعب الأحبار على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على فراش، وهم يمينه ويساره وسادتان، فقال له عمر رضي الله عنه :اجلس يا أبا اسحق، وأشار بيده الى الوسادة، فثناها كعب وجلس على البساط .فقال له عمر رضي الله عنه :ما يمنعك من أن تجلس على الوسادة ؟ قال :فيما أوصى سليمان بن داود عليهما السلام :لا تغش السلطان حتى يملك، ولا تنقطع عنه حتى ينسأك، وإذا دخلت عليه فاجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين، فعسى أن يأتي من هو أولى منك بذلك المجلس .فاستلقى عمر رضي الله عنه وقال " :ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . " ⁽²⁾

والله ما أبصر إلا ما بصّرني غيري

وأراد بعض الأمراء أن يولّي إبراهيم النخعي القضاء وعلم أنه لا يتخلّص منه بالإباء من ذلك فقال له :والله ما أبصر إلا ما بصّرني غيري يعني الله تبارك وتعالى يوهمه العمى فتخلّص منه ⁽³⁾.

علي أحب إلي من عثمان

وعن جرير عن أبي إسحاق إبراهيم النخعي قال :علي أحب إلي من عثمان ولأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتناول عثمان بسوء⁽⁴⁾.

الجور في الطريق خير من الجور في الدين.

وعن سفيان عن واصل الأحذب قال :رأى ابراهيم النخعي أمير حلوان يسير في زرع فقال ابراهيم :الجور في الطريق خير من الجور في الدين⁽⁵⁾.

¹ (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 61/1

² (أسامة بن منقذ ، لباب الآداب ، 69/1

³ (الميمني ، سمط اللآلي ، 58/1

⁴ (أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 224/4

⁵ (أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 229/4

فطلى وجهه بطلاء وشرب دواء

وقال معاذ بن معاذ: حدثنا ابن عون قال: ذكر إبراهيم النخعي أنه أرسل إليه زمان المختار بن أبي عبيد فطلى وجهه بطلاء وشرب دواء ولم يأتهم فتركوه⁽¹⁾.

هذا والله الملك لا ملك هارون

- وقدم هارون الرشيد الرقة ، فأنحفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغيرة ، فأشرفت أم ولد الرشيد من قصر الخشب ، فلما رأت الناس قالت : من هذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان ، يقال له عبد الله بن المبارك . فقالت : هذا والله الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان⁽²⁾ .

لو طابت لأولئك لطابت لي

حدث سفيان بن عيينة قال: دعانا الرشيد، فدخلنا عليه ودخل الفضيل بن عياض أخرنا مقتعاً رأسه بردائه، فقال لي: يا سفيان، أيهم أمير المؤمنين؟ فقلت: هذا، وأومأت إلى الرشيد، فقال له: أنت يا حسن الوجه، الذي أمر هذه الأمة في يدك وعنقك، لقد تقلدت أمراً عظيماً، فبكى الرشيد، ثم أتى كل رجل منا ببذرة، فكل قبلها إلا الفضيل، فقال له الرشيد: يا أبا علي، إن لم تستحلها فأعطها ذا دين، وأشبع بها جائعاً واكس بها عرياناً، فاستغفى منها، فلما خرجنا قلت له: يا أبا علي، أخطأت، ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البر، فأخذنا بلحيتي ثم قال: يا أبا محمد، أنت فقيه البلد والمنظور إليه وتغلط مثل هذا الغلط؟ لو طابت لأولئك لطابت لي⁽³⁾.

أنت هو يا حسن الوجه ؟

قال الرشيد لسفيان بن عيينة: إني عزم أن أرى الفضيل بن عياض، فقال له سفيان: يا أمير المؤمنين، إنه رجل قد زهد في الناس والدنيا جميعاً، وأخاف أن تأتيه فتستجفيه، فقال له: كلا ما عزم على إتيانه حتى وطئت نفسي على احتمال ما يكون منه؛ يا سفيان، إن عز القوي عز لا يزحمه منكباً إمرة ولا خلافة. قال: فأتيت فضيلاً بما قال: فقال: ما أعقله لولا أنه يحب العاجل، ثم قال: إني لأحب أن يأتيني وأكره أن يأتيني، فأما محبتي لمجيئه فلعلي أعظه بموعظة ينتفع بها هؤلاء الناس، وأما كراهيتي لمجيئه

¹ (أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 220/4

² (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 400/15

³ (كمال الدين الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، 197/1

فلأني أراه يرفل في النعم عارياً من الشكر . قال : ثم أذن ، فمضيت مع الرشيد إليه ، وقد اختلط الظلام ، وعلى الرشيد طيلسان غسيل قد غطى به رأسه ، فلما هجمنا عليه في بيته وشم الرائحة سمعته يقول : اللهم إني أسألك رائحة الخلد التي أعدتها لأوليائك المتقين ، فرفع طرفه إليه وعينه تقطر فقال : أنت هو يا حسن الوجه ؟ ثم وعظه فجعل يبكي حتى اشتد نشيجه ، ثم قال له : ازدد من هذا ، فما أعرف في هذه الليلة أحداً أحوج إليه منك ، ثم وثب إلى صلاته ، وما كان ذاك إلا كخطفة الطير . فلما صرنا إلى صحن الدار قال لي الرشيد : يا سفيان ، ما رأيت التقوى في وجه أحد قط أبين منها في وجه هذا الشيخ ، ولولا التحشم منك لقبلت ما بين عينيه ، فقلت له : والله لعلى ودي أن تكون فعلت ذلك ، فكتب الله لك ثوابه وأجره ، فقال : إني أرجو أن يكون قد كتب لي ثوابه بالنية ولو لم أفعل . انظر - فديتك - إلى هذا الحديث ، وانظر إلى زمانك وإمامك وسلطانك ، فإنك ترى فرقاً يوحش القلب ، ويورث الأسف ، والله أمر هو بالغه لا نعترض عليه ، ولا ننازع فيه ، ولكن نلجأ إلى كنفه ، ونسأله زيادة من عطفه ، فإنه رحيم بعباده ودود (1) .

يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك

ولما دخل ابن السماك على هارون قال له : عظمي . فقال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك ، فلا ترض من نفسك إلا ما رضي به عنك ، فإنك ابن عم رسول الله ﷺ وأولى الناس بذلك . يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليفاً أن يعتق نفسه . يا أمير المؤمنين من أذاقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها ، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم على جنة عرضها السماوات والأرض ، وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك ، وإنك لا تقدم إلا على حالة نادم مشغول ، ولا تخلف إلا مفتوناً مغروراً ، وإنك وإيانا لفي دار سفر وجيران ظعن (2) .

إن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من قبلك

ولما حج سليمان بن عبد الملك استحضر أبا حازم فقال له : تكلم يا أبا حازم . فقال : بم أتكلم؟ فقال : في الخروج من هذا الأمر . قال : يسيران أنت فعلته . قال : وما ذاك؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذاك؟ قال : من قلده الله من الأمر ما قلذك . قال : عظمي يا أبا حازم .

¹ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 31/3)

² (الطرطوشي ، سراج الملوك ، 22/1)

قال :يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك .ثم قال :يا أمير المؤمنين نزه ربك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك .يا أمير المؤمنين إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر، فاختر لنفسك أيهما شئت . قال :فما لك لا تأتينا؟ قال :وما أصنع بإتيانك؟ إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني أحزنتني، وليس عندي ما أخافك عليه ولا عندك ما أرجوك له .قال : فارفع إلي حوائجك .قال :قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها قبلت، وما منعني منها رضيت، يقول الله عز وجل " نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا " الزخرف .32 :فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله، أو يزيد في قليل ما قسم الله؟ قال :فبكي سليمان بكاء شديداً فقال رجل من جلسائه :أسأت إلى أمير المؤمنين !فقال له أبو حازم : اسكت !فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتُمونه .ثم خرج من عنده فلما وصل إلى منزله بعث إليه بمال فردده وقال للرسول :قل له يا أمير المؤمنين، والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي؟ (1)

فإن في صلاحه صلاح العباد والبلاد

وقال الفضيل :جور ستين سنة خير من هرج ساعة، فلا يتمنى زوال السلطان إلا جاهل مغرور أو فاسق يتمنى كل محذور، فحقيق على كل رعية أن ترغب إلى الله تعالى في إصلاح السلطان، وأن تبذل له نصحتها وتخصه بصالح دعائها، فإن في صلاحه صلاح العباد والبلاد، وفي فساد فساد العباد والبلاد(2).

تعالوا ندعوا ربنا أن يوفق ملوكنا

وقال الفضيل :لو ظفرت ببیت المال لأخذت من حلاله وصنعت منه طيب الطعام، ثم دعوت الصالحين وأهل الفضل من الأبرار والأخيار، فإذا فرغوا قلت لهم :تعالوا ندعوا ربنا أن يوفق ملوكنا وسائر من يلي علينا وجعل إليه أمرنا(3).

¹ (الطرطوشي ، سراج الملوك ، 22/1)

² (الطرطوشي ، سراج الملوك ، 38/1)

³ (الطرطوشي ، سراج الملوك ، 93/1)

من يحسن هذا غيرك؟

وقال الفضيل بن عياض: لو كان لي دعوة مستجابة لما أ جعلها إلا في الإمام، لأنه إذا صلح أخصبت البلاد وأمن العباد. فقبل ابن المبارك رأسه وقال: من يحسن هذا غيرك؟⁽¹⁾

أدلك على النجاة وتكافئني بالهلاك

ولما حج الرشيد دخل على الفضيل فوعظه بما وعظه، وأراد الخروج فقال: يا فضيل هل عليك دين؟ فقال: نعم دين ربي لو يحاسبني عليه، فالويل لي إن حاسبني عليه، والويل لي إن ناقشني. فقال الرشيد: إني أسألك عن دين العباد. فقال: عندنا بحمد الله خير كثير لا نحتاج معه إلى ما في أيدي الناس. قال: هذه ألف دينار فاستعن بها. فقال: يا حسن الوجه أدلك على النجاة وتكافئني بالهلاك، أسأل الله التوفيق! فلما خرج عاتبته بنيته فقالت: لو أخذتها فاستعنا بها. فقال: إن مثلي ومثلكم مثل قوم كان لهم بغير يكذونه ويأكلون من كسبه، فلما كبر وسقط عن العمل نحروه فأكلوه⁽²⁾.

تقتله أنت وأصحابك، وارفق به أنا؟

قال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد، فاتاني فخرجت إليه مسرعاً فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: ويحك قد حل في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت: ها هنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقررنا الباب فقال: من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، قال: خذ لما جئناك له رحمك الله، فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم، قال: يا عباسي اقض دينه، فلما خرجنا، قال: ما أغنى عنك صاحبك شيئاً، انظر لي رجلاً أسأله، قلت: ها هنا عبد الرزاق بن همام، قال: امض بنا إليه، فأتيناه فكانت حاله كحال سفيان بن عيينة، فقلت له: ها هنا الفضيل بن عياض، قال: امض بنا إليه، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددّها، فقرعت الباب فقال: من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، قال: مالي ولأمير المؤمنين؟ فقلت: سبحان الله أما عليك طاعة لبشر؟ فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول البيت عليه بأيدينا، فسبقت كف هارون الرشيد إليه قبلي فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام من قلب نقي فقال له: خذ

¹ (الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 71/1)

² (الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 244/1)

لما جنّناك له يرحمك الله، فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي، فعد الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة من عذاب الله فصم الدنيا وليكن إفطارك فيها الموت وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم أخاً، وأصغرها ولداً، فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك، وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك أو أكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت فإني أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام. فهل معك مثل هذا، أو من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشي عليه، فقلت: أرفق بأمرير المؤمنين، فقال: يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به أنا؟ ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكاً إليه كثرة النوم فكتب إليه عمر: يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، فإنه يطرد بك إلى ربك نائماً أو يقظان، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء. قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك، ولا أعود لولاية حتى ألقى الله تعالى، قال: فبكى هارون بكاء شديداً، ثم قال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة؟ فقال له النبي ﷺ: إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل، فبكى هارون بكاء شديداً، وقل له: زدني رحمك الله، قال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه فإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة، فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال: نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن ساءلني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي، قال: إنما أعني من دين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره، فقال: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين" الذرايات (56-58): فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادتك، فقال له: سبحان الله

أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك؟ ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، قال هارون: يا عباسي إذا دلتني على رجل فدلني على مثل هذا، فهذا سيد المسلمين¹ فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به، فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم لهم بغير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه، فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى يقبل المال، فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف يرحمك الله، فانصرفنا⁽¹⁾.

تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي

وجاء أبو محمد السمرقندي إلى الفضيل ومعه أولاد البرامكة، وعليهم قمص لها جربانات عراض، فسألوه أن يحدثهم فامتنع فقام مغضباً فقال الفضيل: ردوه. فردوه فقال: بلغنا أن عيسى صلوات الله عليه قال تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاه بسخطهم. فقيل: يا روح الله فمن نجالس؟ فقالوا: من تذكرم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه وترغبكم في الآخرة مجالسته، قم فقد حدثك⁽²⁾.

إذا كانت الأئمة ظالمة

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: إن الله تعالى يهلك الرعية وإن كانت هادية مهدية إذا كانت الأئمة ظالمة لأن أعمال الأئمة تعلو أعمال الرعية⁽³⁾.. فإذا كنت يا أمير المؤمنين تسألني عن معالم الدين فبأي شيء تسوس رعيته؟

قيل: طاف الرشيد بالبیت فوطئ جرادة، فلم يدر ما عليه فيها، فبعث بالمأمون إلى الفضيل بن عياض فسلم عليه وقال: يا أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: لنا إليك حاجة، فأحب أن تعبر إلينا. فلم يجب الفضيل بشيء، فرجع المأمون وقال: رأيت رجلاً ليست به إليك حاجة، فقام الرشيد مغضباً حتى خيف على الفضيل منه؛ فوقف عليه وسلم، فوسع الفضيل له ورد عليه السلام. فلما جلس أقبل على الفضيل فقال: رحمك الله، قد كان الواجب أن

¹ (ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، 290/6

² (الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 245/1

³ (ابن الحداد، الجواهر النفيس في سياسة الرئيس، 21/1

تأتينا وتعرف حقنا إذ ولانا الله أموركم فصيرنا الحكام في دمائكم، والذابين عن حريمكم، وإذ لم تأتينا فقد أتيناك؛ إني وطلت الآن في الطواف على جنديّة فما ديتها؟ قال: فبكى الفضيل بكاءً شديداً حتى علا صوته وقال: إذا كان الراعي يسأل عن الغنم هلكت الغنم، وإنما يجب على الراعي أن يرتاد لغنمه المرعى، وجيد الكلاء، وعذب الماء، فإذا كنت يا أمير المؤمنين تسألني عن معالم الدين فبأي شيء تسوس رعيتك؟ قال: فحجل الرشيد حتى عرق وانصرف⁽¹⁾.

وما للعالم وما للأمير

حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال سمعت الفضيل بن عياض يقول ما أقبح بالعالم يؤتى الى منزله فيقال أين العالم فيقال عند الأمير أين العالم فيقال عند القاضي ما للعالم وما للقاضي وما للعالم وما للأمير ينبغي للعالم أن يكون في مسجده يقرأ في مصحفه⁽²⁾.

أبوهم أنت أخوهم أنت !

حدث صالح بن أحمد بن حنبل قال سمعت أبي يقول دخل سفيان بن عيينة على معن بن زائدة وهو باليمن ولم يكن سفيان تلتخ بشيء من أمر السلطان بعد فجعل سفيان يعظه ويذكر له أمر المسلمين فجعل معن يقول له أبوهم أنت أخوهم أنت⁽³⁾.

فكسر الملعقة

دخل سفيان بن عيينة على الرشيد وهو يأكل من صحفة بملعقة فقال: يا أمير المؤمنين، حدثني عبيد الله بن أبي يزيد عن جدك ابن عباس في قوله عز وجل ' ولقد كرّمنا بني آدم ' الإسراء: 70 أي جعلنا لهم أيدياً يأكلون بها، فكسر الملعقة⁽⁴⁾.

يا مالك تواضعنا لعلمك فانتفعنا به

وجه الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله ليأتيه فيحدثه فقال مالك: إن العلم يؤتى! فسار الرشيد إلى منزله فاستند معه إلى الجدار، فقال: يا أمير المؤمنين، من إجلال الله تعالى إجلال العلم، فقام وجلس بين يديه وبعث إلى

¹ (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، 70/7

² (محمد بن حبان البستي أبو حاتم ، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية - بيروت ، 1397 - 1977م ، ص33

³ (الرازي التميمي ، لجرح والتعديل ، 53/1

⁴ (أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 73/1

سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يديه وحدثه، فقال الرشيد بعد ذلك: يا مالك تواضعنا لعلمك فانتفعنا به وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به.⁽¹⁾

ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها؟!

قال سفيان بن عيينة: دخل هشام بن عبد الملك الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال له: يا سالم سلني حاجة؛ فقال له: إني لأستحيي من الله أن أسأل في بيت الله غير الله، فلما خرج خرج في أثره، فقال له: الآن قد خرجت فسلني حاجة! فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: بل من حوائج الدنيا؛ فقال له سالم: ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها؟!⁽²⁾

يا فتيان احترفوا

كان أيوب السخيتاني يقول: يا فتيان احترفوا، فإني لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم، يعني الأمراء.⁽³⁾

احفظ عني ثلاث خصال

قال أيوب السخيتاني: قال لي أبو قلابة: يا أيوب احفظ عني ثلاث خصال: إياك وأبواب السلطان وإياك ومجالسة أصحاب الأهواء، والزم سوقك فإن الغنى من العافية⁽⁴⁾.

اللهم أنسه ذكري

كان أيوب السخيتاني صديقاً ليزيد بن الوليد؛ فلما ولي الخلافة قال: اللهم أنسه ذكري⁽⁵⁾.

فكن على حذر

قال الزهري : سمعت رجلاً يقول لهشام بن عبد الملك : لا تعدن يا أمير المؤمنين عدة لا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعراً ، وأعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وأن للأمور تعاقباً فكن على حذر⁽⁶⁾ .

1 (الراغب الأصفهاني ،محاضرات الأدباء ، 10/1

² (مختصر صفة الصفوة ، 13/1

3 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 1 / 227

⁴ (ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، 201/4

⁵ (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 20/11

⁶ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 145/4

أخرج الله منه زق عسل

قال الزهري : كان يقال : بنو أمية دن خل أخرج الله منه زق عسل ، يعني عمر بن عبد العزيز رحمه الله⁽¹⁾ .

أما علمت أنني أمرت أن لا يتكلم أحدٌ بإعراب ؟

قال محمد بن شهاب الزهري : كنت عند عبد الملك بن مروان فدخل عليه رجلٌ حسن الفصاحة ، فقال له عبد الملك : كم عطاؤك ؟ قال : مائتا دينار ، قال : في كم ديونك ؟ قال : في مائتي دينار ، قال : أما علمت أنني أمرت أن لا يتكلم أحدٌ بإعراب ؟ قال : ما علمت ذلك ، قال : أمن العرب أنت أم من الموالي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن تكن العربية أباً فليست منها ، وإن تكن لساناً فإني منها ، قال : صدقت ، قال الله تعالى : ' بلسان عربيٍّ مبين ' ⁽²⁾ .

إنما هو دينٌ

قال ابن شهاب الزهري : قدمت على عبد الملك بن مروان فقال لي : من أين قدمت يا زهري ؟ قلت : من مكة ، قال : فمن خلفت يسودها ؟ قلت عطاء بن أبي رباح ، قال : أفمن العرب هو أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، قال : فبم سادهم ؟ قلت : بالديانة ، قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا . قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاووس بن كيسان ، قال : أفمن العرب هو أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، قال : فبم سادهم ؟ قلت : بما سادهم به عطاء ، قال : فمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن أبي حبيب ، قال : أفمن العرب هو أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : أمن العرب هو أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، عبد نوبيّ أعتقته امرأة من هذيل ، قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : أمن العرب هو ؟ قلت : بل من الموالي ، قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قلت : الضحّاك بن مزاحم ، قال : أفمن العرب هو ؟ قلت : بل من الموالي ، قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قلت : الحسن البصري ، قال : أفمن العرب هو ؟ قلت : بل من الموالي ، قال : ويلك فمن يسود أهل الكوفة ؟ قلت : إبراهيم النخعي ، قال : أفمن العرب ؟ قلت : من العرب ، قال : ويلك فرجت عني ، والله ليسودن الموالي العرب حتى يخطب لها على المنابر

¹ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 65/5)

² (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 35/8)

والعرب تحتها ، قال ، قلت : يا أمير المؤمنين ، إنما هو دينٌ ، من حفظه ساد ، ومن ضيَّعه سقط . (1)

أربع كلمات

وقال الزهري : ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين اسمع مني أربع كلمات ، فيهن صلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك . قال : ما هن ؟ قال : لا تعد أحداً عدة وأنت لا تريد إنجازها ، ولا يغرنك مرتقى سهلاً إذا كان المنحدر وعرأ ، واعلم أن للأعمال جزاء فاحذر العواقب ، وللدهر ثورات فكن على حذر . (2)

فأله أحق أن يعمل بفرائضه

عن الزهري . قال سألني هشام بن عبد الملك . قال أبلغك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : " من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، قلت نعم ، وكان ذلك قبل أن تنزل الفرائض فأله أحق أن يعمل بفرائضه " (3) .

إن الناس ليغفوننا عن ديننا

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك فقال له : ما حديث يحدثنا به أهل الشام قال : يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات . قال : باطل يا أمير المؤمنين أنبي خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي قل : بل نبي خليفة .

قال : فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام : " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله .

إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " . فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي قال : إن الناس ليغفوننا عن ديننا .

عن عطاء بن يسار قال : قلت للوليد بن عبد الملك : قال عمر بن الخطاب : وددت أني خرجت من هذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي . فقال : كذبت . فقلت : أو المشورة قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما ندم من استشار ولا خاب من استخار .

1 (أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 9 / 152)

2 (الطرطوشي ، سراج الملوك ، 1 / 22)

3 (ابن الشجري ، الأمالي الشجرية ، 12/1)

وقدر أمر الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورة من هو دونه في الرأي والحزم فقال : " وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله "

ولما هممت ثقيف بالارتداد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم استشاروا عثمان بن أبي العاص وكان مطاعاً فيهم فقال لهم : لا تكونوا آخر العرب إسلاماً وأولهم ارتداداً . فنفعهم الله برأيه .⁽¹⁾

قلوب الملوك بيدي

عن مالك بن دينار: وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى: أنا ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة. لا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك، ولكن توبوا إلى الله أعطفهم عليكم⁽²⁾.

نسيت شيئاً فأذكره !

ويروى أن بلال بن أبي بردة خرج في جنازة وهو أمير على البصرة، فنظر إلى جماعة وقوفاً فقال: ما هذا؟ قالوا: مالك بن دينار يذكر الناس. فقال الوصيف معه: اذهب إلى مالك بن دينار فقل له يرتفع إلينا إلى القبر. فجاء الوصيف فأدى الرسالة إلى مالك فصاح به مالك: لا، ما لي إليه حاجة فأجيبه فيها، فإن تكن له حاجة فليجئ إلى حاجة نفسه. فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه إلى حلقة مالك، فلما دنا منها نزل ونزل من معه، ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس، فلما رآه مالك بن دينار سكت فأطال السكوت، فقال له بلال: يا أبا يحيى ذكرنا. قال: نسيت شيئاً فأذكره. قال له: فحدثنا. قال: أما هذا فنعم⁽³⁾.

وما ينفعك دعائي وبالباب مائتان يدعون عليك؟

وروي أن مالك بن دينار دخل على بلال بن أبي بردة فقال له بلال: ادع الله لي يا أبا يحيى. قال: وما ينفعك دعائي وبالباب مائتان يدعون عليك؟⁽⁴⁾

أخرجوه فقد استقتل !

وقال أبو صالح الفراء ، عن شعيب بن حرب : دخل إبراهيم بن أدهم على بعض هؤلاء الولاة . فقال له : من أين معيشتك ؟ قال إبراهيم : نرقع دنانا بتمزيق ديننا • فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

¹ (ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 1 / 36)

² (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 1 / 439)

³ (الطرطوشي ، سراج الملوك ، 1 / 28)

⁴ (الطرطوشي ، سراج الملوك ، 1 / 127)

قال : فقال الوالي : أخرجوه فقد استقتل ! (1)

أرى أناساً بأدنى الدين قد قنعوا

عن خلف بن تميم قال : سمعت إبراهيم بن أدهم ينشد :

أرى أناساً بأدنى الدين قد قنعوا • ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما • استغنى الملوك بدنياهم عن الدين (2)

فهو واللصّ سواء

وعن إبراهيم قال: كلّ ملك لا يكون عادلاً فهو واللصّ سواء، وكلّ عالم لا يكون ورعاً فهو والذئب سواء، وكلّ من يخدم سوى الله فهو والكلب بمنزلة واحدة (3).

من حيث ما خاطب به الهدد سليمان عليه السلام

- وكان إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه يقول: من تقرب إلى الله تعالى بتلف نفسه حفظ الله عليه نفسه، وقال رضي الله عنه لما حملت من مصر في الحديد إلى بغداد لقيتني امرأة زمناً فقالت إذا دخلت على المتوكل فلا تهبه ولا تر أنه فوقك ولا تحتج لنفسك محقاً كنت أو متهما لأنك إن هبته سلطه الله عليك وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالا لأنك باهت الله فيما يعلمه وإن كنت بريئاً فادع الله تعالى أن ينتصر لك ولا تنتصر لنفسك فيكلك إليها فقلت لها سمعاً وطاعة فلما دخلت على المتوكل سلمت عليه بالخلافة فقال لي: ما تقول فيما قيل فيك من الكفر والزندقة. فسكت فقال وزيره، هو حقيق عندي بما قيل فيه ثم قال لي لم لا تتكلم؟ فقلت يا أمير المؤمنين إن قلت لا كذبت المسلمين وإن قلت نعم كذبت على نفسي بشيء لا يعلمه الله تعالى مني فافعل أنت ما ترى فإني غير منتصر لنفسي فقال المتوكل: هو رجل بريء مما قيل فيه فخرجت إلى العجوز فقلت لها جزاك الله عني خيراً فقلت ما أمرتني به فمن أين لك هذا فقالت من حيث ما خاطب به الهدد سليمان عليه السلام. (4)

وإذا كان الراعي هو الذئب فمن يرعى الغنم؟!

قال أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي : لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة فقال لي: اجتمعت بالخضر عليه السلام فقدم لي قدحاً أخضر فيه رائحة السكباغ فقال لي: كل يا إبراهيم فرددته عليه فقال: إني سمعت الملائكة تقول من أعطى فلم

1 (المزني ، تهذيب الكمال مع حواشيه ، 2 / 36

2 (المزني ، تهذيب الكمال مع حواشيه ، 2 / 36

3 (الذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، 50/10

4 (الشعراني ، الطبقات الكبرى ، 1 / 75

يأخذ، سأل فلا يعطي، وكان رضي الله عنه يقول: إذا كان العالم طامعاً، وللمال جامعاً فبمن يقتدي الجاهل، وإذا كان الفقير المشهور بالفقر راغباً في الدنيا، والتنعّم بملابسها ومناكحها فبمن يقتدي الراغب حتى يخرج عن رغبته. وإذا كان الراعي هو الذئب فمن يرعى الغنم رضي الله عنه. (1)

فاطلب فضيلة الآخرة فقد فرغك لها

دخل الأوزاعي على المهدي فوعظه وذكره ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى أعطاك فضل الدنيا وكفاك طلبها ، فاطلب فضيلة الآخرة فقد فرغك لها ؛ فاستحسن قوله (2) .

فكيف بمن يسفك دماء المسلمين؟

وحكي عن الأوزاعي قال: بعث إلي المنصور فقال: لم تبطيء عنا؟ قلت: وما تريد منا؟ قال: لآخذ عنكم وأقتبس منكم. فقلت له: مهلاً فإن عروة بن رويم أخبرني أن نبي الله، صلى الله عليه وسلم، قال: من جاءته موعظة من ربه فقبلها شكر الله له ذلك، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة، مهلاً فإن مثلك لا ينبغي له أن ينام. إنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية يجبرون الكسير ويسمنون الهزيلة ويردون الضالة فكيف من يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم! أعيذك بالله أن تقول إن قرابتك من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تدعوك إلى الجنة، إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كانت في يده جريدة يستاك بها فضرب بها قرن أعرابي فنزل عليه جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك جباراً مؤيساً مقتطاً تكسر قرون أمتك، ألق الجريدة عن يدك، فدعا الأعرابي إلى القصاص من نفسه فكيف بمن يسفك دماء المسلمين؟ إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك إلى داود، عليه السلام: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق. وأوحى إليه: يا داود إذا أتاك الخصمان فلا يكونن لأحدهما على صاحبه الفضل فأمحوك من ديوان نبوتي.

اعلم أن ثوباً من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه، فكيف بمن تقمصه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهي إلى الأرض السابعة، فكيف بمن تقلدها؟ قال: ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل يففك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير

¹ (الشعراني ، الطبقات الكبرى، 1 / 75

(2) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 7 / 154

والشر، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة، وإن الله جل وعز لا يرضى منك إلا ما ترضاه لنفسك، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك وإن الله جل وعز لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية، يا أمير المؤمنين، إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب ولا بسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، قال: فبكى المنصور. فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو قد شققت على أمير المؤمنين! فقال عمرو: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال: أخوك سليمان بن مجالد. قال عمرو: ويلك يا سليمان! إن أمير المؤمنين يموت وإن كل ما تراه ينفد وإنك جيفة غداً بالفناء لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمر المؤمنين من قربك إذ كنت تطوي عنه النصيحة وتنتهي من ينصحه، يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم. قال المنصور: فأصنع ماذا؟ ادع لي أصحابك أولهم! قال: ادعهم أنت بعمل صالح تحدثه ومر بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس واستعمل في اليوم الواحد عمالاً كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لا نية له فيه.⁽¹⁾

سيئة غطت على حسنتين!

وقال الأوزاعي: يهلك السلطان بالإعجاب والاحتجاب. فأما الإعجاب فقد ذكرناه، وأما الاحتجاب فهو أدخل الخلال في هدم السلطان وأسرعها خراباً للدول، فإنه إذا احتجب السلطان فكأنه قد مات، لأن الحجب موت حكومي فتعبت بطانته بأرواح الخلائق وحریمهم وأموالهم، لأن الظالم قد أمن أن لا يصل المظلوم إلى السلطان. ومعظم ما رأينا في أعمارنا وسمعنا من دخول المفسد على الملوك في حجبهم عن مباشرة الأمور، ولا تزال الرعية ذا سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم، فإذا احتجب فهناك سلاطين كثيرة. يا أيها المغرور المحتجب، احتجبت عن الرعية بالحجاب والأبواب، وجعلت دونهم جبلاً مشيدة وحظائر بالحجارة والماء والطين مانعة، وباب الله مفتوح للسائلين ليس هناك حاجب ولا بواب. قال الله تعالى: "إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً" الفرقان: 57.

وقال معاوية: ليس بين أن يملك السلطان رعيته أو تملكه إلا الحزم أو التواني، وكماله أمران: شدة في ير إفراط ولين في غير امتهان. وسئل بزرجمهر: أي الملوك أحزم؟ فقال: من ملك جده هزله وقهر لبه هواه،

وأعرب عن ضمير فعله، ولم يخدعه رضاه عن سخطه ولا غضبه عن كيده. وقال بعض الحكماء: زوال الدول في اصطناع بعض السفلى، ومن طال عدوانه زال سلطانه. وقالوا: من لم يستظهر باليقظة لم تنفعه الحفظة. وقال يحيى بن خالد: أحسن ما وجدت في طراز الحكم من البلاغة: البخل والجهل مع التواضع خير من السخاء والعلم مع الكبر. فيا لها حسنة غطت على سيئتين، ويا لها سيئة غطت على حسنتين! (1)

إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قلوب رعيته!

وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، أما علمت أنه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً؟ فكيف من سفك دماء المسلمين وشق أبشارهم ونهب أموالهم؟ إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً عن غير عمد، فقال له جبريل عليه السلام: إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قلوب رعيته! يا أمير المؤمنين لو أن ثوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتقصمه؟ ولو أن ذنوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتجرعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يسلك فيها ويرد فضلها على عاتقه؟ ودخل بعض العقلاء على سلطان فقال له: إن أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه، وأولاهم بالإنصاف من بسطت يداه بالقدرة، فاستدم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق. (2)

إن كانت لهم حلالاً فهي عليكم حرام

قال حدثنا عبد الرحمن الأوزاعي، قال بعث إلى عبد الله بن علي وأعظمني ذلك واشتد على فأقدمت وأدخلت عليه والناس قيام سماطين بين يديه في أيديهم المكافر كوبات فأدنانني ثم قال لي يا عبد الرحمن ما تقول في مخرجنا هذا؟ فقلت أصلح الله الأمير قد كانت بيني وبين أخيك داود مودة فأعفني، قال لتخبرني، فقلت لأصدقته واستبسلت للموت، فقلت حدثني يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم عن علقمة بن وقاص سمع عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن

¹ (الطرطوشي، سراج الملوك ، 1 / 46)

² (الطرطوشي، سراج الملوك ، 1 / 24)

كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٌ يَنْكُحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ
 قَالَ وَفِي يَدِهِ قَضِيثٌ يَنْكُثُ بِهِ الْأَرْضَ، فَقَالَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ مَا تَقُولُ فِي قَتْلَانَا
 أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ؟ فَقُلْتُ كَمَا قُلْتَ قَالَ لِتُخْبِرَنِي فَقُلْتُ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ
 مَرْوَانَ عَنْ مَطْرِفِ بْنِ الشَّخِيرِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 لَا يَحِلُّ قَتْلُ الْمُسْلِمِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثِ الْبَارِيءِ لِدِينِهِ أَوْ رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسًا فَيُقْتَلُ بِهَا
 أَوْ رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ قَالَ ثُمَّ أَطْرُقُ هَوِيًّا، ثُمَّ قَالَ أَخْبِرَنِي عَنِ الْخُلَافَةِ أَهِيَ
 وَصِيَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ؟ فَوْرَدَ عَلَيَّ مِثْلُ مَا وَرَدَ ثُمَّ قُلْتُ لِأُصَدِّقْهُ.
 فَقُلْتُ لَوْ كَانَتْ وَصِيَّةٌ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لَكُمْ مَا تَرَكَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 أَحَدًا يَتَقَدَّمُهُ، ثُمَّ سَكَتَ سَكْتَةً وَقَالَ مَا تَقُولُ فِي أَمْوَالِ بَنِي أُمِيَّةٍ؟ فَاسْتَعْفَيْتُ
 فَقَالَ لِتُخْبِرَنِي فَقُلْتُ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ حَلَالًا فَهِيَ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ حَرَامًا
 فَهِيَ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، قَالَ ثُمَّ أَمَرَنِي فَأَخْرَجْتُ. ⁽¹⁾

بين الأوزاعي والخليفة المنصور

قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ دَخَلْتُ عَلَى الْمَنْصُورِ فَقَالَ لِي مَا الَّذِي بَطَأَ بِكَ عَنِّي قُلْتُ يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَمَا الَّذِي تَرِيدُ مِنِّي فَقَالَ الْاِقْتِبَاسُ مِنْكَ قُلْتُ انْظُرْ مَا تَقُولُ فَإِنْ
 مَكْحُولًا حَدَّثَنِي عَنْ عَطِيَّةِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَنْ بَلَغَهُ عَنِ اللَّهِ نَصِيحَةٌ
 فِي دِينِهِ فَهِيَ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ سَيَقُتُّ إِلَيْهِ فَإِنْ قَبِلَهَا مِنَ اللَّهِ بِشُكْرٍ وَإِلَّا كَانَتْ حُجَّةً
 مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ لِيَزْدَادَ إِثْمًا وَلِيَزْدَادَ عَلَيْهِ غَضَبًا وَإِنْ بَلَغَهُ شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ فَرَضَى
 فَلَهُ الرِّضَا وَإِنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ وَمَنْ كَرِهَهُ فَقَدْ كَرِهَ اللَّهُ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
 الْمُبِينُ فَلَا تَجْهَلُنَّ قَالَ وَكَيْفَ أَجْهَلُ قَالَ تَسْمَعُ وَلَا تَعْمَلُ بِمَا تَسْمَعُ قَالَ
 الْأَوْزَاعِيُّ فَسَلَّ عَلَى الرَّبِيعِ السَّيْفَ وَقَالَ تَقُولُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا فَاَنْتَهَرَهُ
 الْمَنْصُورُ وَقَالَ أَمْسِكْ ثُمَّ كَلَّمَهُ الْأَوْزَاعِيُّ وَكَانَ فِي كَلَامِهِ أَنْ قَالَ
 إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ هَذِهِ الْخُلَافَةِ بِالَّذِي أَصْبَحْتَ بِهِ وَاللَّهُ سَائِلُكَ عَنْ صَغِيرِهَا
 وَكَبِيرِهَا وَفَتِيلِهَا وَنَقِيرِهَا وَلَقَدْ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ رُوَيْمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَا مِنْ
 رَاعٍ يَبِيتُ غَاشًا لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ فَحَقِيقٌ عَلَى الْوَالِي أَنْ
 يَكُونَ لِرَعِيَّتِهِ نَظَرًا وَلَمَّا اسْتَطَاعَ مِنْ عَوْرَاتِهِمْ سَاتَرًا وَبِالْقِسْطِ فِيمَا بَيْنَهُمْ
 قَائِمًا لَا يَتَخَوَّفُ مُحْسَنُهُمْ مِنْهُ رَهَقًا وَلَا مُسِيئُهُمْ عَدَوَانًا فَقَدْ كَانَتْ بِيَدِ رَسُولِ
 اللَّهِ جَرِيدَةٌ يَسْتَاكُ بِهَا وَيُرْدِعُ عَنْهُ الْمُنَافِقِينَ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ مَا هَذِهِ
 الْجَرِيدَةُ بِيَدِكَ أَقْذَفَهَا لَا تَمَلَأْ قُلُوبَهُمْ رَعْبًا فَكَيْفَ مِنْ سَفْكَ دِمَائِهِمْ وَشَقِّقِ
 أَبْشَارَهُمْ وَأَنْهَبِ أَمْوَالَهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ الْمَغْفُورُ لَهُ مَا تَقْدُمُ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا
 تَأْخُرُ دَعَا إِلَى الْقَصَاصِ مِنْ نَفْسِهِ بِخَدَشٍ خَدَشَهُ أَعْرَابِيَا لَمْ يَتَعَمَّده فَهَبْطُ

جبريل فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمتك واعلم أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمره من ثمارها قال رسول الله لقاب قوس أحدكم من الجنة أو قذة خير له من الدنيا بأسرها إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم فكيف من يتقمصه ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لآجنه فكيف بمن يتجرعه ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف من سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه وقد قال عمر بن الخطاب لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرة ولا تأخذه في الله لومة لائم واعلم أن السلطان أربعة أمير يظلف نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف وأمير رتع ورتع عماله فذاك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والأرض والجال فآبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز و جل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدى فأعيدك بالله أن يخل إليك أن قرابتك برسول الله تنفع مع المخالفة لأمره فقد قال رسول الله يا صفية عمة محمد ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إني لا أغني عنكما من الله شيئا وكان جدك الأكبر سأل رسول الله إمارة فقال أي عم نفس تحيها خير لك من إمارة لا تحصيها نظرا لعمه وشفقة عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعا ولا عنه دفعا هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت وإن رددتها فنفسك نحست والله الموفق للخير والمعين عليه قال بلى نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين . (1)

¹ (أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية - بيروت ، 51 / 3

بينما الأوزاعي عند الخليفة المنصور ذات يوم إذ خرجت عليهم جارية فقالت يا سيدي من هذا الشيخ قال هذا الأوزاعي قالت فان سيدتي تريد أن تسأله عن مسألة قال فقال لها فلتسأل عما بدا قال فقالت انها كانت في ارضها إذ هجمت عليهم خيل العرب فالتجأوا الى غار ومعها بنى لها وضعت يدها على فمه مخافة ان يصيح فيدل عليهم فما رفعت يدها عن فيه الا وهو ميت فهل عليها فيه شيء وهل لها كفارة لما صنعت فقال الأوزاعي أكان هذا منها قبل الإسلام أو بعده قالت قبل الإسلام قال فان الإسلام قد هدم ما كان قبله وأحب ان تعتق رقبة قال فسألت عن ولده فأخبرت بان الأوزاعي ثلاث بنات قال فأخرجت اليه ثلاث درات هدية لهن فلما قدم عليهن قال لهن ان هؤلاء الدرات اهدين لكن ولا يصلحن الا مع شبههن من الحلى ولكني رأيت رأيا إن احببتن فعلته قال قلن وما هو قال نبيعهن ونتاجر باثمانهن حتى لعل الله ان ينفعكن واياتنا به قلن نعم فبعث بهن الى دمشق فباعن بثمانين ومائتي دينار وكان مدخل الشتاء قال فأمر الذي باعهن ان يشتري له قطيفا وانجبانيات وبعث بهن اليه قال أبو الفضل فاخبرني هذا الرجل انه حدثه بعض أشياخ المدينة يعنى بيروت انه صار اليه انجبانيتان منها وفقده أبو جعفر فقال لعبد الوهاب بن إبراهيم الهاشمي عامله على دمشق والمهدى عنده ألم أوجه إليك كتابي الى عبد الرحمن قال بلى يا أمير المؤمنين وانفذته قال يقول المهدى قد والله يا أمير المؤمنين جاءني فسلم على وهنأى بما اسند الى أمير المؤمنين من الخلافة ودعالي دعاء وقع برده على قلبي وأخبره بما حدث به أنه استأذنى في الرجوع الى مكتبة واعلمنى ان في اذننى له خلفا من اذنك فقال أبو جعفر للمهدى فعلتها يا أبا عبد الله قال قد كان ذا قال ارحلوا حدثنا عبد الرحمن نا على بن الحسن الهسنجاني نا احمد يعنى بن صالح قال سمعت بن أبى ذئب يحدث سفيان الثوري بدخوله على أبى جعفر وكلامه له فذكر قصة لا احفظها كما أحب قال بن أبى ذئب فقلت له أخبرني انصح لك من المهدى فقال باى شيء حل لك ان تقول المهدى قال بن أبى ذئب كلنا قد هداه الله. (1)

¹ (عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي ، الجرح والتعديل ، 1 /

يا أبت ما هذا الكتاب؟

حدث صالح بن أحمد بن حنبل قال: دخلت على أبي في أيام الواثق -والله يعلم في أي حالة نحن- وقد خرج لصلاة العصر، وقد كان له لبد يجلس عليها، قد أتت عليه سنون كثيرة حتى قد بلي، فإذا تحته كتاب كاغد، وإذا فيه: (بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق، وما عليك من الدين، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم على يدي فلان لتقضي بها دينك، وتوسع بها على عيالك، وما هي من صدقة ولا زكاة، وإنما هو شيء ورثته من أبي). فقرأت الكتاب ووضعتة. فلما دخل قلت: يا أبت ما هذا الكتاب؟ فاحمر وجهه وقال: رفعته منك. ثم قال: تذهب بجوابه، فكتب إلى الرجل: (وصل كتابك إلي ونحن في عافية، فأما الدين: فإنه لرجل لا يرهقنا، وأما عيالنا: فهم في نعمة والحمد لله). فذهبت بالكتاب إلى الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل، فقال: - ويحك لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلاً في دجلة كان مأجوراً، لأن هذا رجل لا يعرف له معروف. فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك، فردّ عليه الجواب بمثل ما ردّ، فلما مضت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها فقال: لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت.⁽¹⁾

ذكر ما روي من أخبار أبي حنيفة مع المنصور

عن أبي حنيفة قال دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين فقال يا أبا حنيفة عمن أخذت العلم قلت عن حماد عن إبراهيم عن أصحاب عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم قال بخ بخ استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة رضي الله عنه الطيبين المباركين صلوات الله عليهم أجمعين.

والله لو ضرب عنقي عن ان امس منها درهما ما مسسته

قال الربيع بن يونس جمع المنصور مالكا وابن أبي ذئب وأبا حنيفة فقال لهم كيف ترون هذا الأمر الذي أعطاني الله من امر الأمة هل انا لذلك أهل فسكت القوم فقال لابن أبي ذئب ما تقول في الذي قلدني الله من امر هذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال إن ملك الدنيا يؤتيه الله من يشاء وملك الآخرة يؤتيه الله من طلبه من الله ووفقه له وإن التوفيق إذا أطعت الله قرب منك وإن عصيت بعد وإن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى عليها والعون لمن وليها

وانت وأعوانك كنتم خارجين من التوفيق عالين على الخلق فإن سألت الله السلامة وتقربت إليه بالأعمال الزاكية كان ذلك في نجاتك وإلا فأنت المطلوب قال فكنت أنا ومالك بن أنس نجمع ثيابنا نخاف ان يترشش علينا من دمه ثم قال لأبي حنيفة ما تقول قال المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب إذا انت نصحت لنفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا وإنما أردت ان تعلم العامة انا نقول فيك ما تهواه مخافة سيفك وحبسك ولقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك نفسان من اهل التقوى والخلافة تكون عن إجماع المؤمنين ومشورتهم فهذا أبو بكر يمسك عن الحكم ستة أشهر حتى أتتهبيعة اهل اليمن فقال لمالك ما تقول قال لو لم يرك الله أهلا لذلك ما قدر لك ملك أمر الأمة وأزال عنهم من بعد من نبينهم وقرب هذا الأمر إلى اهل بيته أعانك الله على ما ولاك وألهمك الشكر على ما خولك وأعانك على ما استرعاك فأمرهم فأنصرفوا ثم قال لي المنصور خذ معك ثلاث بدر واتبع القوم فإن اخذها مالك كلها فادفعها إليه وإن أخذ ابن أبي ذئب او ابو حنيفة شيئا فجئني برأسيهما فأتيت ابن أبي ذئب فقلت له فقال ما أَرْضَى هذا المال له فكيف آخذه لنفسى وقال أبو حنيفة ما أنفع له إن كان يعطي من يرحم ان يرحم نفسه ممن يظلم والله لو ضرب عنقي عن ان امس منها درهما ما مسسته وأتيت مالكا فأخذها كلها فأتيت المنصور فأعلمته فقال بهذه الصيانة حقنوا دماءهم .

انصرف إلى بلادك ولا تفتي الناس

قال الربيع بن يونس سمعت المنصور يقول للفقهاء وفيهم أبو حنيفة أليس الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم صحيح المؤمنون عند شروطهم فقالوا بلى فقال إن أهل الموصل شرطوا ان لا يخرجوا علي وقد خرجوا فقد أحل الله لي دماءهم وأموالهم فسكت أبو حنيفة رضي الله عنه وجعل الجواب يكون من غيره فقال رجل منهم يدك المبسوطة عليهم وقولك المقبول فيهم فإن عفوت فأهل العفو أنت وإن عاقبتهم فيما يستحقون فقال المنصور لأبي حنيفة ما تقول أنت يا شيخ فقال ألسنا في خلافة نبوة وأمان قال بلى قال إنهم شرطوا لك ما لا يملكون وشرطت عليهم ما ليس لك فإن اخذت ما لا يحل فشرط الله احق ان يوفى به فقال قوموا فقاموا فتفرقوا ثم أحضرهم فقال لأبي حنيفة يا شيخ إنى فكرت فيما قلت فإذا القول كما قلت انصرف إلى بلادك ولا تفتي الناس بما يكون فيه شين على إمامك فتبسط على أيدي الخوارج .

أراد الرجل ان يرهقنا فأرهقناه

قال ابو خازم القاضي تقلد الكوفة رجل من قبل أبي جعفر المنصور فأراد أذى أبي حنيفة فقال والله لأسأله عن مسألة يكون سبب لقتله ثم أحضره على رؤوس الناس فقال إن أمير المؤمنين يأمرني بضرب الأعناق وسفك الدماء وأخذ الأموال وانتهاك المحارم أفأطيعه في ذلك أم أعصيه فقال له أبو حنيفة ما يأمر بك به أمير المؤمنين طاعة لله أم معصيته قال لا بل طاعة لله فقال له ابو حنيفة أطع أمير المؤمنين أكرمه الله في كل ما كان طاعة لله ولا تعصه وخرج وأصحابه على الباب فقال لهم أراد الرجل ان يرهقنا فأرهقناه فإذا أتتكم معضلة فاجعلوا جوابها منها .

لم أدعكم إلا لخير

عن عبيد بن إسماعيل قال بعث المنصور إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري وشريك فأدخلوا عليه فقال لهم لم أدعكم إلا لخير وكتب قبل ذلك ثلاث عهود فقال لسفيان هذا عهدك على قضاء البصرة فخذها والحق بها وقال لشريك هذا عهدك على قضاء الكوفة فخذها وامض وقال لأبي حنيفة هذا عهدك على قضاء مدينتي وما يليها فخذها ثم قال لحاجبه وجه معهم أو كما قال فمن أبي فاضربه مائة سوط فأما شريك فأخذ عهده ومضى وأما سفيان فقال لعون كان وكل به هو ذا أخرج ودخل منزله فوضع الكتاب في طاق بيته وهرب إلى اليمن فيقال أن هشام بن يوسف وعبد الرزاق سمعا منه هناك ويقال إنه كان يحدثهم قائما على رجله خشية فحدثهم أربعة آلاف حديث فأما أبو حنيفة فلم يقبل العهد فضرب مائة سوط وحبس ومات في الحبس .

لقد شح على دينه إذ سخت به أنفس اقوام كثيرة

وقال محمد بن شجاع سمعت شيخا يكنى أبا معشر يحدث بهذا الحديث فسألت الحسن بن أبي مالك عن ذلك فقال لي هذا مشهور من أمره ما زلنا نتذاكر هذا ونتحدث به قال جيء بأبي حنيفة إلى المنصور فأنزله قال فجاء الحسن بن عمارة فقال له يا أبا حنيفة قد احتجت إليك وإلى رأيك اليوم قد أمر لي بجائزة وذكر ألوف دراهم فإن لم أقبلها خشيت ان أقتل فاحتل لي في صرفها عني قال وأمر لأبي حنيفة بعشرة آلاف درهم وكان المتولي لإعطاء ذلك الحسن بن قحطبة فلما أحس أبو حنيفة بأنه يرسل بها إليه أصبح لا يكلم احدا كأنه مغمى عليه فأتى في ذلك اليوم بالدراهم فجاء بها رسول الحسن بن قحطبة فدخل بها عليه فقالوا له ما تكلم اليوم بكلمة فقال كيف أصنع قالوا أنظر ما ترى فوضعها في مسجدي في ناحية البيت فانصرف فمكثت تلك البكرة في ذلك

الموضع فلما مات أبو حنيفة كان ابنه حماد غائبا فقدم بعد موته فحمل البدره فأتى بها باب الحسن ابن قحطبة فاستأذن فأذن له فدخل فقال إني وجدت في وصية أبي إذا دفنت فخذ هذه البدره التي في زاوية البيت فأت بها الحسن بن قحطبة فقل هذه وديعتك التي كانت عندنا فأدخلت البدره فنظر إليها الحسن وقال له رحم الله أباك لقد شح على دينه إذ سخت به أنفس اقوام كثيرة .

قال عباس الدوري حدثونا عن المنصور انه لما بنى مدينته ونزلها ونزل المهدي في الجانب الشرقي وبنى مسجد الرصافة أرسل إلى أبي حنيفة فجيء به فعرض عليه قضاء الرصافة فأبى فقال له إن لم تفعل ضربتك بالسياط قال أو تفعل قال نعم فقع في القضاء يومين فلم يأته احد فلما كان في اليوم الثالث أتاه رجل صفار ومعه آخر فقال الصفار لي على هذا درهمان وأربعة دوانيق بقية ثمن تور صفر فقال أبو حنيفة اتق الله وانظر فيما يقول الصفار قال ليس له علي شيء فقال أبو حنيفة للصفار ما تقول قال استحلفه لي فقال ابو حنيفة للرجل قل والله الذي لا إله إلا هو فجعل يقول فلما رآه ابو حنيفة معزما على ان يحلف قطع عليه وضرب بيده إلى كفه فحل صرة وأخرج درهمين ثقيلين فقال للصفار هذان الدرهمان عوض من باقي تورك فنظر الصفار إليهما وقال نعم فأخذ الدرهمين فلما كان بعد يومين اشتكى ابو حنيفة فمرض ستة أيام ثم مات .

فإن كنت كاذباً فإني لا أصلح

قال خارجه بن مصعب : دعا أبو جعفر أبا حنيفة إلى القضاء فأبى فحبسه ، ثم دعا به فقال له : أترغب عما نحن فيه ؟ فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، لا أصلح للقضاء ، فقال : كذبت ، فقال أبو حنيفة : قد حكم علي أمير المؤمنين بأنني لا أصلح لأنه نسبني إلى الكذب ، فإن كنت كاذباً فإني لا أصلح ، وإن كنت صادقاً فقد قلت : إني لا أصلح ، فرده إلى الحبس .

لا تتعرض لأبي حنيفة

ومنه أن الربيع صاحب المنصور كان يعادي أبا حنيفة فحضر يوما عند أمير المؤمنين فقال الربيع يا أمير المؤمنين إن أبا حنيفة يخالف جذك ابن عباس وكان جذك يقول إذا حلف الرجل على شيء ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين كان ذلك جائزا وأبو حنيفة لا يجوز ذلك إلا متصلا باليمين فقال أبو حنيفة يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أن ليس لك في رقاب جذك عهد قال كيف ذلك قال يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة.

فتوى لم توافق غرض السلطان

وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو عم أبي جعفر المنصور وقالوا له إنه لا يرى إيمان بيعتكم هذه بشيء فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلت كتفه وارتكب منه أمرا عظيما فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو رفعة وكأئما كانت تلك السياط حليا حلي به وذكر ابن الجوزي في شذور العقود في سنة سبع وأربعين ومائة وفيها ضرب مالك بن أنس سبعين سوطا لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان والله أعلم. (1)

أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟

وذكر أن هارون الرشيد لما قدم المدينة المنورة لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك في بعض حجاته، وجه يحيى بن خالد البرمكي إلى الإمام مالك بن أنس - رضي الله تعالى عنه: احمل إلي كتابك الذي صنعت - يعني الموطأ - أسمعك عليك، فقال مالك ليحيى: أقرئه السلام، وقل له؛ العلم يزار، ولا يزور، ويؤتى ولا يأتي، فرجع إلى هارون الرشيد وأخبره، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بأمر فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيك، فبينما هم كذلك إذا بمالك قد دخل وليس معه الكتاب، جاء مسلماً على الخليفة، فسلم وجلس، فقال له هارون: يبلغ أهل العراق أنني سألتك أمراً من الأمور سهلاً فأبيت علي، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعلك في هذا الموضع، فلا تكن أول من ضيع العلم؛ فيضيعك الله تعالى، ولقد رأيت من ليس هو في حسبك ونسبك يعز هذا العلم ويجله، فأنت أحرى أن تجله، ولم يزل يعظه ويعدد عليه حتى بكى، ثم قال مالك: أخبرني الزهري، عن خارجة، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم " النساء: 95 " ، وابن أم مكتوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أنا رجل ضرير، فهل لي رخصة - يعني في ترك الجهاد - فقال - عليه الصلاة والسلام - : " لا أدري " ، قال زيد: وقلمي رطب ما جف، حتى غشي النبي صلى الله عليه وسلم الوحي، ثم سرى عنه، فقال: " اكتب يا زيد: " غير أولي الضرر " النساء: 95 " ، قال: فحرف واحد يا أمير المؤمنين بعث فيه الملك جبريل

من مسيرة خمسين ألف عام، حتى نزل على النبي صلى الله عليه وسلم أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟ قال: بلى، ثم إن هارون أتى إلى منزل الإمام مالك، فسمع منه الكتاب، ووفقه الله للصواب.

لقد هممت أن أفعل وأفعل

قال أبو بكر بن أبي شيبة: قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة، فقال له: أتظل عن ابنة فلان تروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد، وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر! لقد هممت أن أفعل وأفعل، ثم قال: اسمعوا من أميركم. (1)

الصبر على خيانة الولاة

كان مروان بن الحكم له غلام وكله بأمواله فقال له يوماً: أظنك تخونني! فقال: قد يخطأ الظن، اتخذتني في مدرعة صوف ولم أملك قيراطاً، وأنا اليوم أتصرف في ألوف وأتبختر في خروز، إني أخونك وأنت تخون معاوية، ومعاوية يخون الله ورسوله! (2)

كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

حجَّ سليمان بن عبد الملك، فلما قَدِمَ المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج، وعنده ابن شهاب، فلما دخل قال: تكلم يا أبا حازم. قال: فيم أتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: في المخرج من هذا الأمر؛ قال: يسير إن أنت فعلته؛ قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلا من حِلِّها، ولا تضعها إلا في أهلها؛ قال: ومن يقوى على ذلك؟ قال: مَنْ قَلَّده الله من أمر الرعية ما قَلَّدك. قال: عَظني يا أبا حازم؟ قال: اعلم أن هذا الأمر لم يصِرْ إليك إلا بمَوْت من كان قَبْلَكَ، وهو خارجٌ من يديك بمثل ما صار إليك. قال: يا أبا حازم، أشر عليّ؛ قال: إنما أنت سُوق فما نفق عندك حُمِلَ إليك من خير أو شرٍّ، فاشترِ أيَّهما شِئتَ. قال: مالك لا تأتينا؟ قال: وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين؟ إن أدْنَيْتني فتَنَّتني، وإن أقصَيْتني أخزَيْتني، وليس عندك ما أرجوك له، ولا عِندي ما أخافك عليه. قال: فارفع إلينا حاجتك؛ قال: قد رفعتها إلى ما من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها قَبِلْتُ، وما مَنَعني منها رَضِيتُ.

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 16/1

(2) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 72/1

لك لا عليك

دخل أعرابيٌّ على سُلَيْمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مُكَلِّمُكَ بكلام فاحتمَلَه إن كرهته، فإن وراءه ما تُحب إن قبلته؟ قال: هات يا أعرابيٌّ؟ قال: إني سأطلق لسانِي بما خُرسَتْ عنه الألسُن من عِظَتِكَ تَأْدِيَةً لحق الله تعالى وحقَّ إمامتِكَ، إنه قد اكَتَفَكَ رجالُ أساءوا الاختيار لأنفسهم فابتاعوا دُنْيَاكَ بدينهم، ورضاك بسُخْطِ ربهم، خافوك في الله ولم يَخافوا الله فيكَ، فهم حَرْبٌ لِلآخِرَةِ، سِلْمٌ لِلدُّنْيَا، فلا تَأْمَنُهم على ما ائْتَمَنَكَ الله عليه، فإنهم لا يَأْلُونكَ خَبَالًا، وَالْأَمَانَةُ تَضِييْعًا، وَالْأُمَّةُ عَسْفًا وَخَسْفًا، وَأَنْتَ مَسْئُولٌ عما أَجْتَرَحُوا، وَلَيْسُوا مَسْئُولِينَ عما أَجْتَرَحْتَ، فلا تُصْلِحْ دُنْيَاهُمْ بِفَسَادِ آخِرَتِكَ، فَإِنَّ أَخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْظَمَهم غِنًى مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ. قال سليمان: أما أَنْتَ يا أعرابيٌّ فَقَدْ سَلَّتَ لِسَانَكَ وَهُوَ أَحَدُ سَيْفَيْكَ. قال: أَجَلْ يا أمير المؤمنين، لك لا عليك.

أرى يا أمير المؤمنين دنيا تأكل بعضها

حج سليمان بن عبد الملك فلما أشرف في انصرفه على قديد، نظر من عسكره فأعجبه ما رأى من كثرتِه، ومعه عمر بن عبد العزيز، فقال له: كيف ترى يا أبا حفص؟ قال: أرى يا أمير المؤمنين دنيا تأكل بعضها، أَنْتَ المَبْتَلَى بها والمسؤول عنها.

عظني

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم المدني: عظني. فقال: عظم ربك أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك. (1)

كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

حج سليمان بن عبد الملك فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج وعنده ابن شهاب فلما دخل قال تكلم يا أبا حازم قال فيم أتكلم يا أمير المؤمنين قال في المخرج من هذا الأمر قال يسير إن أَنْتَ فعلته قال وما ذاك قال لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ولا تضعها إلا في أهلها قال ومن يقوى على ذلك قال من قلده الله من أمر الرعية ما قلذك قال أعطني أبا حازم قال اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك قال يا أبا حازم أشر علي قال إنما أَنْتَ سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت قال مالك لا تأتينا قال وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين إن أدنيتني فتنتني وإن أقصيتني أخزيتني وليس

(1) ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، ص 189، 244، 237

عندك ما أرجوك له ولا عندي ما أخافك عليه قال فارتفع إلينا حاجتك قال قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها فما أعطاني منها قبلت وما منعتني منها رضيت .

ودخل عليه أبو حازم الأعرج فقال يا أبا حازم ما لنا نكره الموت فقال لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب قال فأخبرني كيف القدوم على الله قال أما المحسن فكالغائب يأتي أهله مسرورا وأما المسيء فكالعبد الابق يأتي مولاه محزونا قال فأى الأعمال أفضل قال أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال فأى القول أعدل قال كلمة حق عند من تخاف وترجو قال فأى الناس أعقل قال من عمل بطاعة الله قال فأى الناس أجهل قال من باع آخرته بدنيا غيره قال عظمي وأوجز قال يا أمير المؤمنين نزه ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك فبكى سليمان بكاء شديدا فقال له بعض جلسائه أسرفت ويحك على أمير المؤمنين فقال له أبو حازم اسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمال فردده وقال للرسول قل له والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسى .

إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا

وكتب حيان عامل مصر إلى عمر بن عبد العزيز إن الناس قد أسلموا فليس جزية فكتب إليه عمر أبعد الله الجزية إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا للجزية. ⁽¹⁾

عمر بن عبد العزيز يرد المظالم

عن أبو محمد الشامي قال: كنت غلاماً في خلافة عمر بن عبد العزيز، فلما أخذ عمر في ردّ المظالم غلظ ذلك على أهل بيته وعلى جميع قریش، فكتب إليهم عبد الرحمن بن الحكم بن هشام:

فأبلغ هشاماً والذين تجمّعوا ... بدابق لاسلمتم آخر الدهر

ويروي:

فقل لهشام والذين تجمّعوا ... بدابق موتوا لا سلمتم يد الدهر
فأنتم أخذتم حتفكم بأقفكم ... كباحثة عن مديّة وهي لا تدري
عشيّة بايعتم إماماً مخالفاً ... له شجن بين المدينة والحجر
فأجابه بعض ولد مروان عن هشام بن عبد الملك:

¹ (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، أخبار الحمقى والمغفلين ، ص96

لئن كان ما تدعو إليه هو الردى ... فما أنت فيه ذو غناء ولا وفر
وأنت من الريش الذنابي ولم تكن ... من الجزلة الأولى ولا وسط الظهر
ونحن كفييناك الأمور كما كفى ... أبونا أباك الأمر في سالف الدهر⁽¹⁾

قم فأنت حر لوجه الله تعالى!

جنى عبد أسود على عمر بن عبد العزيز رحمه الله في عنفوان حدائته جناية
ليضربه فقال له: يا مولاي! لم تضربني؟ قال: لأنك جنيت كذا وكذا. فقال
العبد: هل جنيت أنت جناية قط فغضب عليك مولاك؟ قال: نعم! قال: فهل عجل
عليك؟ فقال له: قم فأنت حر لوجه الله تعالى! فكان ذلك سبب توبته.

أحمد بحلمك ما أذكاه ذو سفه ... من غيظك واصفح إن جنا جاني
الحلم أفضل ما ازدان اللبيب به ... والأخذ بالعفو أحلى ما جنا جاني⁽²⁾

ما في واحد من هؤلاء خير

وسأل عمر بن عبد العزيز رحمه الله أبا مجلز عن رجل يوليه خراسان. فقال
له: ما تقول في فلان؟ قال: مصنوع له وليس بصاحبها. قال: ففلان؟ قال:
سريع الغضب بعيد الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، و يحسد أمه، وينافس
أباه، ويحقر مولاه. قال: ففلان؟ قال: يكافئ الأكفاء، ويعادي الأعداء، ويفعل
ما يشاء. قال: ما في واحد من هؤلاء خير.

وأنا مولى

وأراد عمر بن عبد العزيز رحمه الله مكحولاً على القضاء، فأبى عليه. قال له:
وما يمنعك؟ قال مكحول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يقض بين
الناس إلا ذو شرف في قومه، وأنا مولى.

حصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعض عماله يستأذنه في تحصين
مدينته. فكتب إليه: حصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم.

صفة الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي
الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه
الله: اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل
جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصف كل مظلوم، ومفرع كل

¹ (المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 1 / 25 ، 138، 132، 149، 302،
374، 388، 420 ، 428 ، 440،

² (ابن الحداد ، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ، 24

ملهوف والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً؛ يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيعة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتقطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريههم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاه من يليها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر. واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثوائك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً. فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه واذكر يا أمير المؤمنين " إذا بعثر ما في القبور. وحصل ما في الصدور " ، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين؛ فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك مع أوزارك، وتحمل أثقالك مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم. إني يا أمير المؤمنين، وإن لم

أبلغ بعظمتي ما بلغه أولو النهي من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

واعلم أنك لست أول خليفة

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب، فقال لهما: أشيرا علي. فقال له سالم: اجعل الناس أباً وأخاً وابناً، فبر أبائك، واحفظ أخاك، وارحم ابنك. وقال له محمد بن كعب: أحبب للناس ما تحب لنفسك، واکره لهم ما تكره لنفسك، واعلم أنك لست أول خليفة.

لا تعجل يا بني

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: يا أبت؛ ما لك لا تنفذ في الأمور؟ فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور. فقال له عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه وتكون فتنة.

فاذكر قدرة الخالق عليك

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، أما بعد، فإن أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما للرعية عندك.

فمرهم بذلك

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجراح: إنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشاً أو سرية قال: اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً. فإذا بعثت جيشاً أو سرية فمرهم بذلك.

فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان

وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: إني بأرض كثرت فيها النعم، وقد خفت على من قبلي من المسلمين قلة الشكر والضعف عنه. فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى لم ينعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثر مما أخذوا. واعتبر ذلك لقول الله تعالى: " ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا ". فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان.

أعظم بركة منها

قال دكين بن رجاء الفقيمي الراجز: مدحت عمر بن عبد العزيز، وهو والي المدينة، فأمر لي بخمس عشرة ناقة كرائم صعباً، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتتشر علي، ولم تطب نفسي ببيعها، فقدمت علينا رفقة من مضر، فسألتهم الصحبة، فقالوا: إن خرجت الليلة؛ فقلت: إني لم أودع الأمير ولا بد من وداعه؛ قالوا: فإن الأمير لا يحجب عن طارق ليل؛ فاستأذنت عليه، فأذن لي وعنده شيخان لا أعرفهما؛ فقال لي: يا دكين، إن لي نفساً تواقه، فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا في فبعين ما أرينك؛ قلت: أشهد لي بذلك أيها الأمير؛ قال: إني أشهد الله؛ قلت: ومن خلقه؟ قال: هذين الشيخين؛ قلت لأحدهما: من أنت يرحمك الله أعرفك؟ قال: سالم بن عبد الله؛ فقلت: لقد استسمنت الشاهد؛ وقلت للآخر: من أنت يرحمك الله؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير، وكان مزاحم يكنى أبا يحيى. قال دكين: فخرجت بهن إلى بلدي فرمى الله في أذنابهن بالبركة، حتى اتخذت منهن الضياع والربع والغلمان، فإني لبصحراء فلج إذا بريد يركض إلى الشام، فقلت له: هل من مغربة خبر قال: مات سليمان بن عبد الملك؛ قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: فأنخت قلوصي، فألقيت عليها أداتي وتوجهت عنده، فلقيت جريراً في الطريق جائياً من عنده، فقلت: من أين يا أبا حذرة؟ قال: من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء؛ قلت: فما ترى، فإني خرجت إليه؟ قال: عول عليه في مال ابن السبيل، كما فعلت. فانطلقت فوجدته قاعداً على كرسي في عرصة داره قد أحاط الناس به، لم أجد إليه سبيلاً للوصول، فناديت بأعلى صوتي: يا عمر الخيرات والمكارم ... وعمر الدسائع العظائم إني امروء من قطن بن دارم ... أطلب حاجي من أخي مكارم إذ ننتجي والله غير نائم ... في ظلمة الليل وليلي عاتم عند أبي يحيى وعند سالم

فقام أبو يحيى، ففرج لي وقال: يا أمير المؤمنين، إن لهذا البدوي عندي شهادة عليك؛ قال: أعرفها، ادن مني يا دكين، أنا كما ذكرت لك أن لي نفساً تواقه، وأن نفسي تافت إلى أشرف منازل الدنيا؛ فلما أدركتها وجدتها تتوق إلى الآخرة، والله ما رزأت من أمور الناس شيئاً فأعطيك منه، وما عندي إلا ألفا درهم، أعطيك أحدهما؛ فأمر لي بألف درهم. فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظم بركة منها.

ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى إلى يوم القيامة ؟

قال ابن حميد: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في المسجد ، فإن الله تعالى أدب قوماً فقال: " لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ " [الحجرات: 2] .

ومدح قوماً فقال: " إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " [الحجرات: 3] .
وذم قوماً فقال: " إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " [الحجرات: 4] .

وإن حرمة ميتاً كحرمة حياً . فاستكان لها أبو جعفر ، وقال: يا أبا عبد الله ؛ أستقبل القبلة وأدنو أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى إلى يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به ، فيشفعك الله ؛ قال تعالى: " وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا " [النساء: 64] . اهـ (1)

¹ (علق ابن تيمية علي هذه القصة فقال في " الفتاوى " (228/1):
فَهَذَا كُلُّهُ نَقْلُهُ الْقَاضِي عِيَّاضٌ مِنْ كُتُبِ أَصْحَابِ مَالِكٍ الْمَعْرُوفَةِ ثُمَّ ذَكَرَ حِكَايَةَ بِإِسْنَادٍ غَرِيبٍ مُنْقَطِعٍ رَوَاهَا عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ إِجَازَةً ... فذكرها بسندها عن القاضي عياض ، ثم قال: قُلْتُ: وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ مُنْقَطِعَةٌ ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ حَمِيدٍ الرَّازِيَّ لَمْ يُدْرِكْ مَالِكًا ، لَا سِيَّمَا فِي زَمَنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمُنْصُورِ ، فَإِنَّ أَبَا جَعْفَرٍ تُوُفِّيَ بِمَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةً ، وَتُوُفِّيَ مَالِكٌ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةً . وَتُوُفِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ حَمِيدٍ الرَّازِيَّ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ بَلَدِهِ حِينَ رَحَلَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا وَهُوَ كَبِيرٌ مَعَ أَبِيهِ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا ضَعِيفٌ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، كَذَبَهُ أَبُو زُرْعَةَ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ وَارَةً .

وَقَالَ صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَسَدِيِّ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَجْرَأَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ وَأَخَذَقَ بِالْكَذِبِ مِنْهُ .
وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ شَيْبَةَ: كَثِيرُ الْمَنَاقِيرِ .

وَقَالَ النَّسَائِيُّ: لَيْسَ بِثِقَةٍ . وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ: يَنْفَرِدُ عَنِ النَّقَاتِ بِالْمَقْلُوبَاتِ .

وَقَالَ ابْنُ خَرَّاشٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ ، وَكَانَ وَاللَّهِ يَكْذِبُ !

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: فَرَأَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَبِي إِذَا ذَكَرَ ابْنَ حَمِيدٍ: نَفَضَ يَدَهُ !
وَأَخْرَجَ مَنْ رَوَى الْمُوْطَأَ عَنْ مَالِكٍ هُوَ أَبُو مُصْعَبٍ وَتُوُفِّيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ .
وَأَخْرَجَ مَنْ رَوَى عَنْ مَالِكٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ أَبُو حُدَيْفَةَ أَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ السَّهْمِيُّ تُوُفِّيَ سَنَةَ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَفِي الْإِسْنَادِ أَيْضًا مَنْ لَا تُعْرَفُ حَالُهُ . اهـ
وَقَالَ أَيْضًا فِي " الفتاوى " (225/1):

يا أمير المؤمنين روض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك

قال الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو: " بعث إلي المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل، فلما وصلت إليه سلمت عليه بالخلافة فرد علي وأجلسني " ثم قال: ما الذي بطأ بك عنا يا أوزاعي ؟ قلت: " وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟ " قال: أريد الأخذ عنك والاقْتباس منك، قال: " فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئاً مما أقول لك " قال: وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وقد وجهت إليك وأقدمتك له ؟ قلت: " أن تسمعه ولا تعمل به، يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله، إن الله هو الحق المبين " قال: فصاح ابن الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس

وَكَذَلِكَ مَنْ نَقَلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ جَوَزَ سُؤَالَ الرَّسُولِ أَوْ غَيْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ أَوْ نَقَلَ ذَلِكَ عَنْ إِمَامٍ مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ - غَيْرِ مَالِكٍ - كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمَا فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ بَعْضُ الْجُهَالِ يَنْقُلُ هَذَا عَنْ مَالِكٍ ، وَيَسْتَنْدُ إِلَى حِكَايَةِ مَكْذُوبَةٍ عَنْ مَالِكٍ ... وَأَصْلُهَا ضَعِيفٌ .ا.هـ.
وقال أيضا في " الفتاوى " (353/1): وَالْحِكَايَةُ الَّتِي تُذَكِّرُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ لِلْمَنْصُورِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ اسْتِقْبَالِ الْحُجْرَةِ فَأَمَرَهُ بِذَلِكَ ، وقال: " هُوَ وَسَيْلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ " كَذَبَ عَلَى مَالِكٍ ، لَيْسَ لَهَا إِسْنَادٌ مَعْرُوفٌ .

من جهة نقلها عن أصحاب مالك:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (228/1):
وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ لَمْ يَذْكُرْهَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ الْمَعْرُوفِينَ بِالْأَخْذِ عَنْهُ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ حَمِيدٍ ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِذَا أَسْنَدَ ، فَكَيْفَ إِذَا أُرْسِلَ حِكَايَةُ لَا تُعْرَفُ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ ؟ هَذَا إِنْ ثَبِتَ عَنْهُ ، وَأَصْحَابُ مَالِكٍ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ بِمِثْلِ هَذَا النِّقْلِ لَا يَثْبُتُ عَنْ مَالِكٍ قَوْلٌ لَهُ فِي مَسْأَلَةٍ فِي الْفِقْهِ ؛ بَلْ إِذَا رَوَى عَنْهُ الشَّامِيُّونَ كَالْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ ، وَمَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ الطَّاطِرِيِّ ضَعُفُوا رَوَايَةَ هَؤُلَاءِ ، وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى رَوَايَةِ الْمَدَنِيِّينَ وَالْمَصْرِيِّينَ فَكَيْفَ بِحِكَايَةِ تُنَاقِضُ مَذْهَبَهُ الْمَعْرُوفَ عَنْهُ مِنْ وَجْهِ رَوَاهَا وَاحِدٌ مِنَ الْخُرَاسَانِيِّينَ لَمْ يَذْكُرْهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ ؟ .ا.هـ.

سبب إيراد القاضي عياض لها:

قال في " الفتاوى " (225/1 - 226): وَالْقَاضِي عِيَاضٌ لَمْ يَذْكُرْهَا فِي كِتَابِهِ فِي بَابِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ ؛ بَلْ ذَكَرَ هُنَاكَ مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ أَنَّ حُرْمَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَوْتِهِ وَتَوْفِيرَهُ وَتَعْظِيمَهُ لَزِمَ ؛ كَمَا كَانَ حَالُ حَيَاتِهِ وَكَذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِهِ وَذَكَرَ حَدِيثَهُ وَسُنَنَهُ وَسَمَاعَ اسْمِهِ .ا.هـ.

الثابت عن مالك خلاف القصة:

قال في " الفتاوى " (353/1): وَهُوَ خِلَافُ الثَّابِتِ الْمَنْقُولِ عَنْهُ بِأَسَانِيدِ الثِّقَاتِ فِي كُتُبِ أَصْحَابِهِ كَمَا ذَكَرَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الْقَاضِي وَغَيْرُهُ مِثْلَ مَا ذَكَرُوا عَنْهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَقْوَامٍ يُطِيلُونَ الْقِيَامَ مُسْتَقْبِلِي الْحُجْرَةِ يَذْعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَأَنْكَرَ مَالِكٌ ذَلِكَ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ مِنَ الْبِدْعِ الَّتِي لَمْ يَفْعَلْهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَقَالَ: لَا يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلُهَا .
وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَهُ مَالِكٌ ، فَإِنَّ الْأَثَارَ الْمُتَوَاتِرَةَ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عَمَلِهِمْ وَعَادَتِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ اسْتِقْبَالُ الْحُجْرَةِ عِنْدَ الدُّعَاءِ مَشْرُوعًا لَكَانُوا هُمْ أَعْلَمَ بِذَلِكَ ، وَكَانُوا أَسْبَقَ إِلَيْهِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَالِدَاعِي يَدْعُو اللَّهَ وَحْدَهُ .ا.هـ.

مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني مكحول، عن عطية، عن بشر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أيما عبد أتاه موعظة من الله في دينه فإنما هي نعمة من الله سيقت إليه، فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله ليزداد بها إثما، ويزداد عليه سخطا " يا أمير المؤمنين حدثني مكحول، عن عطية، عن بشر، قال: قال رسول الله ﷺ: " أيما وال بات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة " " يا أمير المؤمنين إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولوكم لقرابتكم من رسول الله ﷺ، فقد كان بهم رءوفا رحيفا مواسيا لهم بنفسه وذات يده، وعند الناس لحقيق أن يقوم له فيهم بالحق، وأن يكون بالقسط له فيهم قائما، ولعوراتهم ساترا، لم يغلق عليه دونهم الأبواب، ولم يقم عليه دونهم الحجاب، يبتهج بالنعمة عندهم، ويبتئس بما أصابهم من سوء، يا أمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم وأسودهم، مسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف بك إذا اتبعك منهم فئام وراء فئام، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو شكوى، أو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه "

يا أمير المؤمنين حدثني مكحول، عن عروة بن رويم، قال: " كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة رطبة يستاك بها، ويروع بها المنافقين، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التي كسرت بها قرون أمتك، وملأت بها قلوبهم رعبا؟ " " فكيف بمن شقق أبشارهم، وسفك دماءهم، وخرّب ديارهم، وأجلاهم عن بلادهم، وغيبهم الخوف منه؟ "

يا أمير المؤمنين حدثني مكحول، عن زياد بن حارثة، عن حبيب بن مسلمة، " أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدشة خدشها أعرابيا لم يتعمده، فأتاه جبريل فقال: إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا، فدعاه النبي ﷺ فقال: " اقتص مني " فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي، ما كنت لأفعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسي، فدعا الله له بخير " " يا أمير المؤمنين روض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي "

يقول فيها رسول الله ﷺ: " لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها " " يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقي لمن كان قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقى لك كما لا يبقى لغيرك، يا أمير المؤمنين تدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: { مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا

أحصاها { [الكهف: 49] قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك، فكيف ما عملته الأيدي وأحصته الألسن يا أمير المؤمنين ؟ "

بلغني أن عمر بن الخطاب قال: " لو ماتت سخلّة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن أسأل عنها " فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك يا أمير المؤمنين ؟ تدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: { يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى } " قال: " يا داود، إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك عن نبوتي ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة، يا داود إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاة ترعى الإبل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة، ليَجبروا الكسرة، ويدلوا الهزيل على الكلاء والماء، يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه، يا أمير المؤمنين "

حدثني يزيد بن يزيد بن جابر، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، أن عمر بن الخطاب استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام [ص: 507] مقيما، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك ؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله ؟ قال: لا، قال: وكيف ذلك ؟ قال: لأنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال: " ما من وال يلي شيئا من أمور الناس إلا يؤتى به يوم القيامة يده مغلولة إلى عنقه، فيوقف على جسر من النار، ينتفض ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يعاد فيحاسب فإن كان محسنا نجاه إحسانه، وإن كان مسيئا انحرف به ذلك الجسر فهو به في النار سبعين خريفا " قال له: ممن سمعت هذا ؟ قال: من أبي ذر، وسلمان، فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ، فقال عمر: واعمرآه من يتولاها بما فيها ؟ فقال أبو ذر: " من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض " قال: فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة على مكة أو الطائف أو اليمن، فقال له النبي ﷺ: " يا عباس يا عم النبي، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها " نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، وإنه لا يغني عنه من الله شيئا، إذ أوحى إليه: { وأنذر عشيرتك الأقربين } [الشعراء: 214] فقال: " يا عباس يا عم النبي، ويا صفية عمة النبي، ويا فاطمة بنت محمد، إني لست أغني عنكم من الله شيئا، لي عملي ولكم عملكم " وقد قال عمر بن الخطاب: " لا يقضي بين الناس إلا حصيف العقل،

أرب العقدة، لا يطلع منه على عورة، ولا يحنق على جراءة، ولا يأخذه في الله لومة لائم "

وقال علي رضي الله عنه: " السلطان أربعة: فأمر قوي طلق نفسه وعماله فذلك [ص:508] كالمجاهد في سبيل الله، يد الله بأسطة عليه بالرحمة، وأمر طلق نفسه وأرتع عماله لضعفه، فهو على شفا هلاك، إلا أن يتركهم، وأمر طلق عماله وأرتع نفسه، فذلك الحطمة "

الذي قال رسول الله ﷺ: " شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده، وأمر أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا "

بلغني يا أمير المؤمنين " أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: أتيتك بخبر من أمر الله تعالى ذكره بمفاتيح النار، فوضعت على النار تسع إلى يوم القيامة، فقال النبي ﷺ: صف لي النار، فقال: إن الله تعالى ذكره أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، لا يطفأ لهبها ولا جمرها، والذي بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعا، ولو أن ذنوبا من شرابها صب في مياه أهل الأرض جميعا لقتل من ذاقه، ولو أن ذراعا من السلسلة التي ذكرها الله عز وجل وضع على جبال الأرض لذابت وما اشتعلت، ولو أن رجلا أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه، فبكى النبي ﷺ، وبكى جبريل لبكائه فقال: بلى يا محمد، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبدا شكورا ؟ ولم بكي يا جبريل وأنت الروح الأمين، أمين الله على وحيه ؟ " فقال: إني أخاف أن أبتلى بمثل ما ابتلي به هاروت، وماروت، فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي عز وجل، فأكون قد أمنت مكره، فلم يزالا يبكيان حتى نودي من السماء: أن يا جبريل ويا محمد، إن الله عز وجل قد أمنكما أن تعصياه فيعذبكما "

وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب قال: " اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي على من حال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين " يا أمير المؤمنين، إن أشد الشدة القيام لله عز وجل، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وإن من طلب العز بطاعة الله رفعه وأعزه، ومن طلبه بمعصية الله أدله الله ووضع، فهذه نصيحتي والسلام عليك، ثم نهضت، فقال: إلى أين ؟ فقلت: إلى البلد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء

الله، قال: " قد أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك وقبلتها بقولها، والله عز وجل الموفق للخير والمعين عليه، وبه أستعين
وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها،
فإنك المقبول القول غير المتهم في نصيحتك، قلت: أفعل إن شاء الله، قال محمد
بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله، وقال: أنا في
غنى عنه، وما كنت أبيع نصيحتي بعرض من أعراض الدنيا كلها، وعرف
المنصور مذهبه فلم يجد عليه في رده "، قال الحاكم: " هذا حديث تفرد به
أبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح الأديب، وهو مقدم في أصحاب الأصمعي،
يلقب بأبي حدث عن يحيى بن صاعد وغيره من الأئمة " (1)

والله ما أحدثك ولا أحدث قوما أنت فيهم

قال شريك: « كان أبو جعفر المنصور قد استخفى عند رجل فأكرمه ، فلما
أفضت الخلافة إليه قدم عليه ذلك الرجل يهنئه فأكرمه أبو جعفر ، وقال له :
« سل حاجتك » ، فقال له : أنت تعلم أنني من الله في نعمة ، ما لي حاجة إلا
أنني أشتي أن يحدثني الأعمش ، فاكتب إليه كتابا ليحدثني » ، فكتب له أبو
جعفر كتابا بخطه إلى الأعمش يعرفه فيه وجوب حقه عليه ، ويأمره بأن
يحدثه ، فلما مضى الرجل بالكتاب وافى (2) باب الأعمش فدقه ، وكان
الأعمش يكره أن يدق عليه بابه فقال : من ذا ؟ ادخل » ، فدخل والأعمش ،
يلحف كسبا للشاة - فقال له : ما لك ؟ فقال : « هذا كتاب أمير المؤمنين إليك
، فقال : هاته فأخذه ، ثم قال : يا بسرة - يعني أن اسم الشاة بسرة - فرفعت
رأسها ، فجعل يضفرها الكتاب حتى أكلته ، ثم قال : إيش فيه ؟ قال : فيه أن
تحدثني » ، فقال : ما أحدثك بحرف ، فقال : سبحان الله يا أبا محمد يكتب إليك
أمير المؤمنين في شيء فلا تفعله ، فقال : « والله ما أحدثك ولا أحدث قوما
أنت فيهم » (3)

¹ (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوِجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى :
458هـ)، شعب الإيمان ، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه : الدكتور عبد العلي عبد الحميد
حامد ، أشرف على تحقيقه وتخريره أحاديثه : مختار أحمد الندوي ، مكتبة الرشد للنشر
والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، الطبعة : الأولى ، 1423 هـ -
2003 م ، 9 / 503-509

² (وافى : أتى وأدرك ولحق

³ (الخطيب البغدادي ، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، 2 / 372

يا أمير المؤمنين، إن الذي داخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وامتلات بلاد الله بذلك بغياً وفساداً أنت هو

وذكر الغزالي وابن بليان وغيرهما، أن أبا جعفر المنصور حج ونزل في دار الندوة، وكان يخرج سحراً فيطوف بالبيت، فخرج ذات ليلة سحراً، فبينما هو يطوف إذ سمع قائلاً يقول: اللهم أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بني الحق وأهله من الطمع. فهرول المنصور في مشيته حتى ملأ سمعه ثم رجع إلى دار الندوة. وقال لصاحب شرطته: إن بالبيت رجلاً يطوف فأتني به. فخر صاحب الشرطة فوجد رجلاً عند الركن اليميني. فقال: أجب أمير المؤمنين. فلما دخل عليه، قال: أنا الذي سمعتك آنفاً تشكو إلى الله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني.

فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الذي داخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وامتلات بلاد الله بذلك بغياً وفساداً أنت هو.

فقال له المنصور: ويحك كيف يداخني الطمع، والصفراء والبيضاء ببابي وملك الأرض في قبضتي.

فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين، وهل داخل أحداً من الطمع ما داخلك؟ استرعاك الله أمور المؤمنين وأموالهم فأهملت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، واتخذت بينك وبين رعيته حجاباً من الجبس والآجر وحجبة معهم السلاح وأمرت أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان، نفر استخلصتهم لنفسك وأمرتهم على رعيته، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الجائع ولا العاري، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق. فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيته تجمع الأموال وتقسمها، قالوا: هذا خان الله ورسوله فما لنا لا نخونه؟ فأجمعوا على أن لا يصل إليك من أموال الناس إلا ما أرادوا. فصار هؤلاء شركاءك في سلطانتك، وأنت غافل عنهم، فإذا جاء المظلوم إلى بابك وجدك وقفت رجلاً ينظر في مظالم الناس، فإن كان الظالم من بطانتك علل صاحب المظالم بالمظلوم وسوّف من وقت إلى وقت، فإذا اجتهد وظهرت أنت صرخ بين يديك، فضربه أعوانك ضرباً شديداً ليكون نكالاً لغيره، وأنت ترى ذلك ولا تتكر. لقد كانت الخلفاء قبلك من بني أمية إذا أتت إليهم الظلّامة أزيلت في الحال، ولقد كنت أسافر إلى الصين يا أمير المؤمنين، فقدمت مرة فوجدت الملك الذي به قد فقد سمعه، فبكى، فقال له وزراؤه: ما يبكيك أيها الملك؟ لا أبكى لك عينا إلا من خشيته.

فقال: والله ما بكيت لمصيبة نزلت بي وإنما أبكي لمظلوم يصرخ بالبواب فلا أسمعه. ثم قال: إن كان سمعي ذهب فإن بصري لم يذهب. نادوا في الناس لا يلبس أحد ثوباً أحمر إلا مظلوم. وكان يركب الفيل طرفي النهار ويدور في البلد لعله يجد أحداً لا بساً ثوباً أحمر فيعلم أنه مظلوم فينصفه. وهذا الأمير رجل مشرك غلبت عليه رأفته على شح نفسه بالمشركين، وأنت مؤمن بالله ورسوله وابن عم رسول الله ﷺ.

يا أمير المؤمنين! لا تجعل الأموال إلا لإحدى ثلاث: فإن قلت إنما أجمع الأموال لصالح الملك فقد أراك الله عبرة في الملوك والقرون من قبلك ما أغنى عنهم ما أعدوا من الأموال والرجال والكراع، حين أراد الله بهم ما أراد، وإن قلت إنما أجمع للولد، فقد أراك الله عبرة فيمن تقدم ممن جمع المال للولد فيلم يغن ذلك عنهم شيئاً بل ربما مات فقيراً ذليلاً حقيراً؛ وإن قلت إنما أجمعه لغاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله ما فوق منزلتك إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح.

فبكى المنصور بكاء شديداً ثم قال: وكيف أعمل وقد فرت مني العباد ولم تقربني، افتح الباب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم وخذ المال مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن من هرب أن يعود إليك. فقال المنصور: نفعل إن شاء الله تعالى.

وجاء المؤذن فأذن للصلاة فقام وصلى فلما قضى صلاته طلب الرجل فلم يجده، فقال لصاحب الشرطة: علي بالرجل الساعة. فخرج يتطلبه فوجده عند الركن اليماني فقال له: أجب أمير المؤمنين. فقال: ليس إلى ذلك من سبيل.

فقال: إذن يضرب عرقبي.

فقال: ولا إلى ضرب رقبتك من سبيل. ثم أخرج من مزود كان معه رقاً مكتوباً فقال له: خذه فإن فيه دعاء الفرج من دعا به صباحاً ومات من يومه مات شهيداً، ومن دعا به مساء ومات من ليلته مات شهيداً. وذكر له فضلاً عظيماً وثواباً جزيلاً. فأخذه صاحب الشرطة وأتى به المنصور فلما رآه قال له: ويلك أو تحسن السحر؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين. ثم قص عليه القصة، فأمر المنصور بنقله وأمر له بألف دينار، وهو هذا.

اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمك بما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك. وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك،

وخضع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لي من كل هم وغم أصبحت أو أميت فيه فرجاً ومخرجاً. اللهم، إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستجبه مما قصرت فيه، أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً، فإنك أنتن المحسن إلي وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إلي بالنعم وأتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بك حملتني على الجراءة عليك، فجد بفضلك وإحسانك علي، إنك أنت الرؤوف الرحيم.⁽¹⁾

واحدة بواحدة والبادي أظلم

وحدث عبد الله البلتاجي، قال: دخل ابن أبي ليلى على أبي جعفر المنصور، وكان ابن أبي ليلى قاضياً فقال أبو جعفر: إن القاضي يرد عليه. من ظرائف الناس ونوادرهم أمور، فإن كان ورد عليك شيء فحدثني، فقد طال علي يومي.

قال: والله يا أمير المؤمنين، قد ورد علي منذ ثلاثة أيام أمر ما ورد علي مثله. أتتني عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها أو تسقط من انحنائها فقالت: أنا بالله وبالقاضي أن يأخذ لي بحقي وأن يعينني على خصمي. قلت: ومن خصمك؟ قالت: ابنة أخ لي.

فدعوت بها فجاءت امرأة ضخمة ممتلئة شحماً فجلست منبهرة. فذهبت العجوز تتظلم، فقالت الشابة: أصلح الله القاضي، مرها فلتسكت حتى أتكلم بحجتي وحجتها فإن لحت بشيء فلترد علي، فإن أذنت لي أسفرت. فقالت العجوز: إن أسفرت قضيت لها.

فقلت لها: أسفري، فأسفرت عن وجه والله ما ظننت أنه يكون مثله إلا في الجنة. فقالت: أصلح الله القاضي، هذه عمتي مات والدي وتركني يتيمة في حجرها فربتني فأحسننت التربية، حتى إذا بلغت مبلغ النساء قالت لي: يا بنت أخي، هل لك في التزويج؟ قلت: ما أكره ذلك يا عمة. قالت العجوز: نعم.

قالت: فخطبني وجوه أهل الكوفة فلم ترض إلا رجلاً صيرفياً، فتزوجني، فكنا كأننا ريحانتان ما أظن أن الله خلق غيره يغدو إلى سوقه ويروح علي بما رزقه الله تعالى. فلما رأت العمة موقعه مني وموقعي منه حسدتنا على ذلك،

¹ (الإتليدي ، إعلام الناس بما وقع للبرامكة ، ص 35

وكانت لها ابنة فشوفتها وهيأتها لدخول زوجي، فوقعت عينه عليها، فقال: يا عمّة هل لك أن تزوجيني ابنتك؟ قالت: نعم بشرط. فقال لها: وما الشرط؟ قالت: تصير أمر ابنة أخي إلي. قال: قد صيرت أمرها إليك. قالت: فإني قد طلقته ثلاثاً بته. وزوجت ابنتها زوجي، فكان يغدو عليها ويروح، فقلت لها: يا عمتي أتأذنين لي أن أنتقل عنك؟ قالت: نعم. فانتقلت عنها وكان لعمتي زوج غائب فقدم فلما توسط منزلها قال: ما لي لا أرى ربيبتنا؟ قالت: طلقها زوجها فانتقلت عنا. فقال: إن لها من الحق علينا أن نعزيها بمصيبتها. فلما بلغني مجيئه إلي تهيأت له وتشوفت. فلما دخل علي عزاني بمصيبتي، ثم قال: إن فيك بقية من الشباب؛ فهل لك أن أتزوج بك؟ قلت: ما أكره ذلك ولكن على شرط. قال لي: وما الشرط؟ قلت: تصير أمر عمتي بيدي. قال: فإني قد فعلت وصيرت أمرها بيدك. قلت: فإني قد طلقته ثلاثاً بته. قالت: فقدم علي بثقله من الغد ومعه ستة آلاف درهم فأقام عندي ما أقام، ثم إنه اعتل وتوفي فلما انقضت عدتي جاء زوجي الأول الصيرفي يعزيني بمصيبتي فلما بلغني مجيئه تهيأت وتشوفت له، فلما دخل علي قال لي: يا فلانة إنك تعلمين أنك كنت أعز الناس علي وأحبهم إلي، وقد حلت المراجعة، فهل لك في ذلك؟ قلت: ما أكره ذلك، ولكن اجعل أمر ابنة عمتي بيدي. قال: فإني قد فعلت. قلت: فإني قد طلقته ثلاثاً بته، أصلح الله القاضي، فرجعت إلى زوجي فما اعتدائي عليها. فقالت العجوز: أنا فعلت مرة، وفعلت مرة بعد أخرى. فقلت: إن الله لم يوقت في هذا وقتاً، وقد قال تعالى: " ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ". فواحدة بواحدة والبادي أظلم. فقال القاضي: إن زوج العمّة لم يكن له أن يتزوج ابنة أخيها وهي في عدته؛ فأرادت العجوز أن تتولى التفريق بينه وبينها استيفاء لها ومجازاة لها على فعلها، فقلت لها: قد فرقت بينكما، قومي إلى منزلك، انتهى.⁽¹⁾

**ولكنكم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما نهاكم الله عنه فسلبكم العز
وألبسكم الذل ونصر أعداءكم عليكم**

وذكر المنصور يوماً في مجلسه زوال ملك بني أمية وما جرى عليهم، وأنهم عاشوا سعداء وماتوا فقراء، فقال له إسماعيل بن علي الهاشمي: إن عبد الله بن مروان بن محمد في حبسك، وله قصة مع ملك النوبة. فأحضره واسأله عنها. فأحضره، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال المنصور: رد السلام أمن ولم تسمح نفسي بذلك، ولكن اقعد! فقعد، فقال: ما قصتك مع ملك النوبة؟

فقال: يا أمير المؤمنين، كنت ولي عهد أبي فلما طلبتنا دعوت عشرة من غلماني ودفعت لكل واحد ألف دينار وأوسقت خمس بغال وشدت في وسطي جوهراً له قيمة عظيمة وخرجت هارباً إلى بلاد النوبة، فلما قربنا بعثت غلاماً لي، فقلت له: امض إلى هذا الملك وأقرئه السلام وخذ لنا منه الأمان وابتغ لنا ميرة. فمضى وأبطأ حتى أسأت به الظن، ثم أقبل ومعه رجل فدخل وسلم وقال: الملك يقرئك السلام ويقول لك: من أنت وما جاء بك إلى بلادي؟ أمحارب، أم راغب في ديني، أم مستجير بي؟ فقلت له: رد على الملك، ما أنا بمحارب ولا راغب في دينك ولا ممن يبتغي بدينه بدلاً بل مستجير به. فذهب الرسول ورجع إلي وقال: الملك يقول لك إني أجيء إليك غداً فلا تحدث نفسك حدثاً ولا شيئاً من الميرة.

فقلت لأصحابي: افرشوا الفراش، ففرش لي وجلست من الغد أرقبه، وإذا هو قد أقبل وعليه بردان قد انتزر بأحدهما وارتي بالآخر، حافي الرجلين، ومعه عشرة معهم الحراب: ثلاثة يقدمونه وسبعة خلفه، فاستصغرت أمره وسولت لي نفسي قتله، فلما قرب إذا سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ قالوا: الخيل. فوافي بها عشرة آلاف عنان، ووافت الخيل عند دخوله فأحدقوا بنا، فلما دخل جلس على الأرض، قال: فقلت لترجمانه: لِمَ لَمْ يقعد على الموضع الذي وطئ له؟ فسأله، فقال: قل له إنه ملك وكل ملك حقه أن يكون متواضعاً لله وعظمته إذ رفعه الله على عبادِهِ.

ثم نكت بإصبعه الأرض طويلاً ورفع رأسه وقال: قل له كيف سلبتم هذا الملك، فأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟ فقلت: جاء من هو أقرب منا قرابة إليه، فسلبنا وغلبنا وطردهنا فخرجت إليك مستجيراً بالله، ثم بك. قال: فلم كنتم تشربون الخمر وهو محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا في ديننا وفي ملكنا من غير رأينا.

قال: فلم تركبون على الديباج وعلى خيولكم سروج الذهب والفضة وهي محرمة عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا في ديننا وفي ملكنا بغير رأينا.

قال: فلم كنتم إذا خرجتم إلى الصيد مررتم على القرى وكلفتهم أهلها ما لا طاقة لهم به بالضرب والإهانة ولا يقتنعكم ذلك حتى تحطموا زرعهم في طلب دراج قيمته نصف درهم، والتكليف والعناء محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيد وغلمان وأتباع.

قال: لا! ولكنكم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما نهاكم الله عنه فسلبكم العز وألبسكم الذل ونصر أعداءكم عليكم، والله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد، وإني أخاف أن تنزل بك النقمة إذ كنت من الظلمة فتشملني معك، فإن النقمة إذا نزلت شملت، فأخرج بعد ثلاث، فإن وجدتك بعدها أخذت ما معك وقتلتك ومن معك.

ثم وثب قائماً وخرج وقمت ثلاثاً ورجعت إلى مصر فأخذني عاملك وبعث بي إليك، وها أنا ذا والموت أحب إلي من الحياة.

فرق له المنصور وهم بإطلاقه، فقال له إسماعيل بن علي: في عنقي بيعة هذا.

قال: فما ترى؟ قال: ينزل في دار من دورنا ويجري عليه ما يجري على مثله ففعل به ذلك، انتهى. ⁽¹⁾

بليتان. المنصور والطاعون

وخطب المنصور يوماً بالشام، فقال: أيها الناس ينبغي لكم أن تحمدوا الله تعالى على ما وهبكم في فاني منذ وليتكم صرف الله عنكم الطاعون الذي كان يجيئكم.

فقال أعرابي: إن الله أكرم من أن يجمعك أنت والطاعون علينا.

فاحذر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده

دخل عمرو بن عبيد على المنصور بعد ما بايع للمهدى فقال له يا أبا عثمان هذا ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين فقال له عمرو يا أمير المؤمنين أراك قد وطدت له الأمور وهي تصير إليه وأنت عنه مسئول فاستعبر المنصور وقال له عظمي يا عمرو قال يا أمير المؤمنين إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منها ببعضها وإن هذا الذي في يديك لو بقى في يد غيرك لم يصل إليك فاحذر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده فوجم أبو جعفر

من قوله فقال له الربيع يا عمرو غممت أمير المؤمنين فقال عمرو إن هذا
صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا وما عمل وراء
بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه قال أبو جعفر فما أصنع قد قلت لك
خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني قال عمرو ادعنا بعدلك تسخ أنفسنا
بعونك ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم أنك صادق . (1)

فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم

قال الأوزاعي دخلت على المنصور فقال لي ما الذي بطأ بك عنى قلت يا أمير
المؤمنين وما الذي تريد منى فقال الاقتباس منك قلت انظر ما تقول فإن
مكحولا حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله قال من بلغه عن الله نصيحة
في دينه فهي رحمة من الله سيقت إليه فإن قبلها من الله بشكر وإلا كانت حجة
من الله عليه ليزداد إثما ويزداد عليه غضبا وإن بلغه شيء من الحق فرضى
فله الرضا وإن سخط فله السخط ومن كرهه فقد كره الله لأن الله هو الحق
المبين فلا تجهلن قال وكيف أجهل قال تسمع ولا تعمل بما تسمع قال
الأوزاعي فسل على الربيع السيف وقال تقول لأمر المؤمنين هذا فانتهره
المنصور وقال أمسك ثم كلمه الأوزاعي وكان في كلامه أن قال إنك قد
أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به والله سائلك عن صغيرها وكبيرها
وفتيلها ونقيرها ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله قال ما من راع
يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة فحقيق على الوالى أن يكون
لرعيته ناظرا ولما استطاع من عوراتهم ساترا وبالقسط فيما بينهم قائما لا
يتخوف محسنهم منه رهقا ولا مسيئهم عدوانا فقد كانت بيد رسول الله جريدة
يستاك بها ويردع عنه المنافقين فأتاه جبريل فقال يا محمد ما هذه الجريدة بيدك
اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب
أموالهم يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى
القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فهبط جبريل فقال يا محمد
إن الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمتك واعلم أن كل ما فى يدك لا يعدل
شربة من شراب الجنة ولا ثمره من ثمارها قال رسول الله لقاب قوس أحدكم
من الجنة أو قذة خير له من الدنيا بأسرها إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ولو
بقى الملك لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ولو أن ثوبا من ثياب أهل
النار علق بين السماء والأرض لآذاهم فكيف من يتقصه ولو أن ذنوبا من
صديد أهل النار صب على ماء الأرض لآجنه فكيف بمن يتجرعه ولو أن حلقة

من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف من سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه وقد قال عمر بن الخطاب لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرة ولا تأخذه في الله لومة لائم واعلم أن السلطان أربعة أمير يظلف نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف وأمير رتع ورتع عماله فذاك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدي فأعيزك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول الله تنفع مع المخالفة لأمره فقد قال رسول الله يا صفية عمة محمد ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إني لا أغني عنكما من الله شيئا وكان جدك الأكبر سأل رسول الله إمارة فقال أي عم نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها نظرا لعمه وشفقة عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفع ولا عنه دفعا هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت وإن رددتها فلنفسك نحست والله الموفق للخير والمعين عليه قال بلى نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين . (1)

لا يعز ملك يكون فيه مثل هذا

ويروى أن يزيد بن عمر بن هبيرة للمنصور دخل يوما فقال له المنصور حدثنا فقال يا أمير المؤمنين إن سلطانكم حديث وإمارتكم جديدة فأذيقوا الناس حلاوة عدلها وجنبوهم مرارة جورها فوالله يا أمير المؤمنين لقد محضت لك النصيحة ثم نهض فنهض معه سبعمائة من قيس فأتاه المنصور بصره ثم قال لا يعز ملك يكون فيه مثل هذا . (2)

ذلك إليك يا أمير المؤمنين

ودخل معن بن زائدة الشيباني على أبي جعفر المنصور وقد أسن فقارب في خطوه فقال له المنصور لقد كبرت سنك يا معن قال في طاعتك يا أمير المؤمنين قال وإنك لجلد قال على أعدائك يا أمير المؤمنين قال وإن فيك لبقية

¹ (أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، 3 / 48)

² (أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، 3 / 51)

قال هي لك يا أمير المؤمنين قال فأبي الدولتين أحب إليك هذه أم دولة بني أمية قال ذلك إليك يا أمير المؤمنين إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلي . (1)

لماذا خلق الله الذباب؟

حدث يحيى بن معاذ أن أبا جعفر المنصور كان جالساً، فألح على وجهه ذباب حتى أضجره، فقال: انظروا من بالباب فقالوا: مقاتل بن سليمان فقال: علي به، فلما دخل عليه، قال له: هل تعلم لماذا خلق الله الذباب؟ قال: نعم. ليذل به الجبابرة، فسكت المنصور. (2)

وأراك تفعل ما تقول

قال المدايني : لما حج المنصور قال للربيع : أبغني فتى من أهل المدينة أديباً ظريفاً عالماً بقديم ديارها ورسوم آثارها فقد بعد عهدي بديار قومي وأريد الوقوف عليها . فالتمس له الربيع فتى أعلم الناس بالمدينة وأفهمهم بظريف الأخبار وشريف الأشعار فعجب به المنصور وكان يسايره أحسن مسaire ويحاضره أزين محاضرة ولا يبتدئه بخطاب إلا على وجه الجواب فإذا سألته أتى بأوضح دلالة وأفصح مقالة . فأعجب به المنصور غاية الإعجاب وقال للربيع : ادفع إليه عشرة آلاف درهم وكان الفتى مملقاً مضطراً فتشاغل الربيع عن القضاء واضطرته الحاجة إلى الاقتضاء وقيل قال له الربيع : لا بد من معاودته وإن أحببت دفعت إليك سلفاً من عندي حتى أعاوده فيما أمر لك . فأبقى ذلك حتى إذا كان في بعض الليالي قال عند منصرفه مبتدئاً : وهذه الدار يا أمير المؤمنين يا بيت عاتكة الذي أت عزل ثم سكت فأنكر المنصور هذا من حاله وفكر فيأمره فعرض الشعر على نفسه فإذا فيه .

(وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ** مذاق الحديث يقول ما لا يفعل)

فقال للربيع : أدفعت للرجل ما أمرنا له به قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : فليدفع إليه مضاعفاً .

وهذا أحسن إفهام من الفتى وأحسن فهم من المنصور . ولم يسمع في التعريض بألطف منه . (3)

¹ (أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، 3 / 53)

² (الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، 1 / 358)

³ (عبد القادر بن عمر البغدادي ، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق محمد نبيل طريفي/اميل بديع اليعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1998م ، 2 / 46-47)

إِذَا لَا تَأْتِينَا أَبَدًا

ودخل عمرو بن عبيد على أبي جعفر المنصور ، فقال : عِظْني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ؛ يا أمير المؤمنين ، إن هذا الأمر لو كان باقياً لأحد قبلك ما وصل إليك ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ؟ قال : فبكى المنصور حتى بل ثوبه . ثم قال : حاجتك يا أبا عثمان وكان المنصور لمّا دخل عليه طرح عليه طيلساناً ، فقال : يُرْفَعُ هذا الطيلسان عني فرفع ، فقال أبو جعفر : لا تدع إتياننا ؛ قال : نعم ، لا يضمّني وإياك بلد إلا دخلت إليك ، ولا بدت لي حاجة إلا سألتك ، ولكن لا تُعْطِني حتى أسألك ، ولا تدعني حتى آتيك ، قال : إذا لا تأتينا أبداً .⁽¹⁾

فانظرْ على أي حالة تنقضي

وقال رجل لأبي جعفر المنصور : أين ما تُحَدِّثُ به في أيام بني أمية ؟ إن الخلافة إذا لم تقابل بإنصاف المظلومين ، ولم تعامل بالعدل في الرعية ، وقسمة الفيء بالسوية ، صار عاقبة أمرها بواراً ، وحق بولاتها سوء العذاب .

قال : فتنفس ثم قال : قد كان ما تقول ، ولكننا يا أخي استعجلنا الفانية على الباقية ، وكأن قد انقضت هذه الدار . فقال له الرجل : فانظرْ على أي حالة تنقضي .⁽²⁾

موقف هارون مع نقفور

هارون الرشيد كانت تسلم له الجزية من كل الأقاليم ، وكان يحكم اثنين وعشرين دولة من دول العالم الآن ، وهو في بغداد ، وقد صعد مرة على قصره في بغداد ، وكان مكتوباً على سيفه الحاج الغازي هارون الرشيد ، يغزو سنة ويحج سنة ، وكان يتنفل في النهار مائة ركعة ، صعد على القصر وكان يستبشر بالمطر ، فالناس في قحط ، فمرت سحابة ، قال : اللهم اسقنا الغيث ، اللهم اسقنا الغيث ، فمرت السحابة ، فتبسم وقال : أمطري أنى شئت ، فإن خراجك سوف يأتيني إن شاء الله ، يقول : اذهبي حيثما شئت ، إن تريدين

¹ (عبد القادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، 106/1

² (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، زهر الأداب وثمر الأبواب ، تحقيق : أ. د / يوسف على طویل ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة : الأولى 1417 هـ - 1997 م ،

الذهاب إلى إفريقيا ، ف إفريقيا في حكمي، وإن تريدن آسيا إلى السند ، ف السند لنا، وإن تريدن الشمال إلى طاشقند ف طاشقند لنا.

ماتت امرأة كانت تحكم الروم، فتولى نقفور بعدها، فكتب لـ هارون الرشيد كتاباً، وهو لا يعرف هارون الرشيد يقول: أَمَّا بَعْدُ:
فإن المرأة التي كانت قبلي كانت ضعيفة العقل، وكانت تدفع لك الجزية، وأما أنا الآن فلن أدفع لك درهماً ولا ديناراً، فوصل الكتاب وقرأه هارون الرشيد ، ومن الاستهتار به أنه لم يكتب في ورقة أخرى، بل أخرج القلم وكتب:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.
أَمَّا بَعْدُ فالجواب ما تراه لا ما تسمعه.
ثم قال لقائده: جهز جيشاً، فجهز جيشاً وما أمسى إلا وقد طوق الروم وأخذوا قائدهم وكتفوه، وقالوا له: هل تدفع الجزية؟ قال: أدفع الجزية، قالوا: مضاعفة، قال: مضاعفة، فقد كانوا يدفعون على الواحد عشرة دراهم، فجعل هارون على الواحد عشرين درهماً.

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
أما نصف البيت فنؤمن به، وأما نصفه الآخر فنكفر به، ولكن نقول:
تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى مريض المستأسد الضاري
فالأمة تعيش في سؤدد وقوة وعظمة حتى يتخلى الناس عن الجهاد، ويتولى جيلها وشبابها عن حمل السلاح، وحتى يكون الكافر المستعمر يدرّب قوته، ويجرب سلاحه.

تجز ذوابتها للجهاد

قال العتبيّ: سبأ الروم نساءً مسلماتٍ فبلغ الخبر الرقة وبها الرشيد ومنصور بن عمار هناك، فقص منصور يحضّ على الغزو، فإذا خرقةً مصرورةً مختومة قد طرحت إلى منصور، وإذا كتاب مضمومٌ إلى الصرة فقرأه فإذا فيه: إني امرأة من بيوتات العرب، بلغني ما فعل الروم بالمسلمات، وبلغني تحضيضك على الغزو، فعمدت إلى أكرم شيء في بدني عليّ، وهما ذوابتاي، فجززتهما وصررتهما في هذه الصرة المختومة، فأشدك بالله العظيم لما جعلتهما قيد فرس غازٍ في سبيل الله، فعلى الله ينظر إليّ نظرةً على تلك الحال فيرحمني، فبلغ ذلك الرشيد فبكى ونادى النفير.

تعليق

قد أتت هذه المرأة بما دلّ على خلوص دينها و صحّة يقينها، وغضبها لربّها، وغيرتها على أهل ملّتها، وامتناعها عندما بلغها من انتهاك أعداء الله محارمه التي حرّمها، واستخفافهم بحدود الإسلام التي عظّمها، وقصدت بما أتته من جزّها ذوابتيها التقرب إلى خالقها ورجاء مغفرته لها، والله يحقّق برأفته وسعة رحمته رجاءها، ويغفر لنا ولها، ولم تقصد بما فعلته الأمر الذي حرّم عليها فيؤثّمها، فقد جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه لعن الغارفة وهي التي تجزّ ناصيتها عند المصيبة، وإلى الله نرغب في أن يجعلنا ممّن يغضب له ويحام عن دينه ويوالي ويعادي فيه، بتوفيقه (1).

والحكم لله

حبس الرشيد رجلاً، فلما طال حبسه كتب إليه: إن كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسي مثله، والأمد قريب، والحكم لله. فأطلقه. (2)

جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء ؟

حكى عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الخراساني ، قال : حجبت مع أبي سنة حج الرشيد ، فإذا نحن بالرشيد ، واقف حاسر حاف على الحصباء وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي ويقول : يا رب أنت أنت ، وأنا أنا ، أنا العواد بالذنوب وأنت العواد بالمغفرة ، اغفر لي فقال لي أبي : انظر إلى جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء ؟. (3)

قيل : وأمر الرشيد يحيى بن خالج بحبس رجل جنى جناية فحبسه ، ثم سأل عنه الرشيد فقيل : هو كثير الصلاة والدعاء ، فقال للموكل به : عرض له بأن تكلمني وتسالني إطلاقه ، فقال له الموكل ذلك ، فقال لأمير المؤمنين أن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي ، والأمر قريب ، والموعود الصراط ، وإلحاحك الله ، فخر الرشيد مغشياً عليه ثم أفاق وأمر بإطلاقه (4).

¹ (المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 415-414/1

² (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 141/1

³ (الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي ، الكشكول ، 185/1

⁴ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري ، المحاسن والأضداد ، 32/1

فتح عمورية على يد المعتصم سنة 223 هـ:

"في هذه السنة أوقع ملك توفيل بن ميخائيل بأهل سلطته من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة، قتل فيها خلقاً كثيراً من المسلمين، وأسر ما لا يحصون كثرة، وكان من

جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات ومثل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وسمل أعينهم -قبحه الله-.

ولما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقه، وثلثه لولده، وثلثه لمواليه وخرج بالجيش إغاثة للمسلمين فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وشمر راجعاً إلى بلاده وتفارط ولم يمكن الاستدراك فيه، فقال للأمراء أي بلاد الروم أمنع؟ فقالوا: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام وهي عندهم أشرف من القسطنطينية" (1) فعزم على فتحها.

رب وامعتصماه انطلقت ... ملء أفواه الصبايا اليتيم

صادفت أسماعنا لكنها ... لم تصادف نخوة المعتصم

تجهّز المعتصم جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء، وأخذ معه آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيول والبغال شيئاً لم يسمع بمثله، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال وقدم المعتصم إليها صبيحة يوم الجمعة لست خلون من رمضان فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها، وقد تحصّن أهلها تحصيناً شديداً وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة، وقسم المعتصم الأبراج بالأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذي أقطعه وعينه له، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين، وكان قد تنصّر عندهم وتزوج منهم، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجع إلى الإسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبنى بناءً ضعيفاً بلا أساس، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي دلهم عليه ذلك الأسير فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألح عليها المنجنيق لجعلوا فوقها البرادع ليردوا حرة الحجر فلم تغن شيئاً وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسخ. فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك،

وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا الجيش في طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما من أنتما؟ فقالا: من أصحاب فلان لأمير سموه من أمراء المسلمين، فحملا إلى المعتصم فقررهما فإذا معهما كتاب من "مناطس" نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة على المسلمين ومناجزهم القتال كائناً في ذلك ما كان. فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة، فأسلما من فورهما، فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع، وأن يوقفا تحت حصن "مناطس" فينثر عليهما الدراهم والخلع، ومعهما الكتاب الذي كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلغنها وتسبهما، ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة، فضاقت الروم ذرعاً بذلك، وألح عليهم المسلمون في الحصار، وقد زاد المعتصم في المجانيق والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب، ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها، أعمل المجانيق في مقاومة السور وكان قد غنم في الطريق غنماً كثيراً جداً ففرقها في الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويجيء بملء جلده تراباً فيطرحه في الخندق، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك، وبينما الناس في الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنوا من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة، فبعث المعتصم من نادى في الناس: إنما ذلك سقوط السور ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً لكن لم يكن ما هدم يسع الخيال والرجال إذا دخلوا، وقوى الحصار وقد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه، فضعف ذلك الأمير -وندوا- الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقيه من الحصار فذهب إلى مناطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا: لا نترك ما نحن موكلون بحفظه. "قال" "وندوا": إن الحرب على وعلى أصحابي، ولم يبق معي أحد إلا جرح، فصيروا أصحابكم على التلثة يرمون قليلاً وإلا افتضحتم. وذهبت المدينة فأبوا أن يمدوه بأحد".

فلما ينس منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به (ليطلب الأمان على الذرية) فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد خلت

من المقاتلة، فركب المسلمون وتقدموا إلى الثملة، ولم يقدر الروم على دفع المسلمين بعد أن تكاثروا ودخلوا المدينة قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم وقد حشروهم في كنيسة هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب وهو مناطس في حصن منيع فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذي فيه "مناطس" فناداه المنادي ويحك يا مناطس! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك فقالوا: ليس بمناطس ها هنا مرتين، فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس: هذا مناطس ... هذا مناطس، فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلع عليه الحسن الرومي فقال له: ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين، فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جيء به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشى إلى مضرب الخليفة مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل فأوثق هناك. وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تحصى ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقى من ذلك، وإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بهما الروم على شيء من حرب المسلمين".⁽¹⁾

وأما اليوم فـ:

ربّ وا معتصماه انطلقت ملء أفواه الصبايا اليتيم
لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم
أمتي هل لك بين الأمم منبرٌ للسيف أو للقلم
أتلقاك وطرفي حاسرٌ خجلاً من أمسك المنصرم
الإسرائيل تعلو راية في حمى المهدي وظل الحرم
أوما كنت إذا الموت اعتدى موجة من لهبٍ أو من دم
كم من امرأة اليوم تقول: وا معتصماه! وإسلاماه! في أفغانستان و فلسطين
و الفلبين ولا يجيبها مجيب، كم من طفل يقتل! كم من مسجد يهدم! كم من
شعيرة لله عز وجل تسحق! ثم لا مجيب يجيب! بلغت الأمة من الذلة والمهانة
يوم تركت الجهاد وتخلت عن الدين مبلغاً لا يعلمه إلا الله، يقول عليه الصلاة
والسلام: { إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد، سلط الله

⁽¹⁾ (نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان ، ص336

عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تراجعوا دينكم { وبيع العينة منتشر وهي أن تباع السلعة من الرجل ديناً، ثم يشتريها بثمن أقل قسطاً قسطاً ومقدماتاً وهذا موجود وفاشٍ { وأخذتم أذناب البقر { تتحول الأمة من أمة جهاد إلى أمة مزارعة، والزراعة ليست حراماً، لكن أبطال الإسلام وشباب لا إله إلا الله وحملة التوحيد يتحولون إلى باعة بطاطس، وخيار وباذنجان وجرجير وخس في الأسواق، ويصبح حمل السلاح لا يطيقه إلا القليل، ويصبح الآلاف من الشباب لا يستطيع أحدهم شحن المسدس والرمي به، ولا يحمل الرشاش، بل أجزم جزمًا لو اعتدي على كثير من البيوت الآن لما استطاع الشباب المدافعة عن بيوتهم، بعضهم لا يملك سلاحاً، عندهم سكاكين للبصل في المطبخ، والسلاح أصبح كيماوي ومزدوج، وبعضهم عنده سلاح لكنه لا يستطيع أن يرمي، ولا يصيب الهدف، وما لديه تدريب قال تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال: 60] والرسول عليه الصلاة والسلام ربي شبابيه على القوة العسكرية وعلى حمل السلاح والأنفة، اسمع إلى أبي تمام يصور معركة المعتصم في عمورية، لما انتهى المعتصم، وعاد إلى بغداد، عاد وعلم النصر فوق رأسه والعلماء يكونون لنصر الله ويفرحون، واستقبلته الأمة ونساء الأمة وأطفال الأمة، لأنهم أثبت عدة لئلا إله إلا الله، وقف أبو تمام يحيي هذا البطل ويقول:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلاً معسولة الحلب
ثم قال:

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب
ثم يروي أبو تمام قصة المنجمين الذين أتوا قبل المعركة إلى المعتصم وقالوا: لا تحاربوهم هذا الشهر، قال: ولم؟ قالوا: لأن برج الثور حل علينا، وبرج الثور إذا حل، لا ينتصر المقاتل، قال: أمنت بالله وكفرت بكم، قال: أبو تمام:

أين الرواية أم أين الدراية كم صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
طلاسم وأحاديث منمقة ليست بنفع إذا عدت ولا غرب
فالنصر في شهب الأرماع لامة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
فالنصر في السيوف وليس في النجوم، إلى أن يقول في آخرها:
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب

إلى أن يقول للخليفة: أنت لست الذي انتصر، بل الله الذي رمى بك: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال:17]:

رمى بك الله جنبها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم يصب
إنه تدبير الله وقوته { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }
[غافر:51-52] { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ }
[محمد:7] { إِن يَنصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ } [آل عمران:160] إن يخذلكم بأعمالكم وتصرفاتكم وأكلكم الربا
وسكوتكم على المنكرات؛ تبرج النساء، وانتشار المخدرات، وضياح الشباب:
{ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ } [آل عمران:160] من يقدم
لكم النصر؟ فهذه أمور عاشها السلف . (1)

ليس هكذا جاءنا الخبر

قال إبراهيم بن يحيى الزبدي لما حمل ذو النون بن إبراهيم إلى جعفر المتوكل أنزله في بعض الدور وأوصى به زرافة وقال أنا إذا رجعت غدا من ركوبي فأخرج إلى هذا الرجل فقال له زرافة إن أمير المؤمنين قد أوصاني بك فلما رجع من الغد من الركوب قال له انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام فلما أخرجه إليه قال له سلم على أمير المؤمنين فقال ذو النون ليس هكذا جاءنا الخبر إنما جاءنا في الخبر أن الراكب يسلم على الراجل قال فتبسم أميرا لمؤمنين وبدأه بالسلام فنزل إليه أمير المؤمنين فقال له أنت زاهد أهل مصر قال كذا يقولون فقال له زرافة فإن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهاد قال فأطرق مليا ثم قال يا أمير المؤمنين إن الجهل علق بنكتة أهل الفهم يا أمير المؤمنين إن لله عبادا عبدوه بخالص من السر فشرفهم بخالص من شكره فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فرغا حتى إذا صارت إليه ملأها من سر ما أسروا إليه أبدانهم دنياوية وقلوبهم سماوية قد احتوت قلوبهم من المعرفة كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفرج وأطباق السموات لم يخبثوا في ربيع الباطل ولم يرتعوا في مصيف الآثام ونزهوا الله أيراهم يثبون على حبال مكره هيبة منهم له وإجلالا أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشيء لا يدوم وبلذة من العيش مزهودة فأولئك الذين أجلسهم على كراسي أطباق أهل المعرفة بالأدواء والنظر في منابت الدواء فجعل تلامذتهم أهل الورع والبصر فقال لهم إن أتاكم عليل من فقدي فداووه أو مريض من

تذكرني فأدنوه أو ناس لنعمتي فذكروه أو مبارز لي بالمعاصي فناذبوه أو
محب لي فواصلوه يا أوليائي فلکم عاتبت ولکم خاطبت ومنکم الوفاء طلبت لا
أحب استخدام الجبارين ولا تولي المتكبرين ولا مصافاة المترفين يا أوليائي
وأحبابي جزائي لكم أفضل الجزاء وإعطائي لكم أفضل العطاء وبذلي لكم
أفضل البذل وفضلي عليكم أوفر الفضل ومعاملتي لكم أوفى المعاملة
ومطالبتي لكم أشد مطالبة وأنا مقدس القلوب وأنا علام الغيوب وأنا عالم
بمجال الفكر ووسواس الصدور من أرادكم قصمته ومن عاداكم أهلكته ثم قال
ذو النون بحبك وردت قلوبهم على بحر محبته فاغترفت منه ريا من الشراب
فشربت منه بمخاطر القلوب فسهل عليها كل عارض عرض لها عند لقاء
المحبوب فواصلت الأعضاء المبادرة وألفت الجوارح تلك الراحة فهم رهائن
أشغال الأعمال قد اقتلعتهم الراحة بما كلفوا أخذه عن الانبساط بما لا يضرکن
ترکه قد سكنت لهم النفوس ورضوا بالفقر والبوس واطمأنت جوارحهم على
الدؤوب على طاعة الله عز و جل بالحركات وظننت أنفسهم عن المطاعم
والشهوات فتوالهوا بالفكرة واعتقدوا بالصبر وأخذوا بالرضا ولهوا عن
الدنيا وأقروا بالعبودية للملك الديان ورضوا به دون كل قريب وحميم فخشعوا
لهيبته وأقروا له بالتقصير وأذعنوا له بالطاعة ولم يبالوا بالقلّة إذا خلوا بأقل
بكاء وإذا عوملوا فأخوان حياء وإذا كلموا فحكماء وإذا سئلوا فعلماء وإذا
جهل عليهم فحلمااء فلو قد رأيتهم لقلت عذارى في الخدور وقد تحركت لهم
المحبة في الصدور بحسن تلك الصور التي قد علاها النور إذا كشفت عن
القلوب رأيت قلوبا لينة منكسرة بالذكر نائرة وبمحاذثة المحبوب عامرة لا
يشغلون قلوبهم بغيره ولا يميلون إلى ما دونه قد ملأت محبة الله صدورهم
فليس يجدون لكلام المخلوعين شهوة ولا بغير الأنيس ومحاذثة الله لذة
إخوان صدق وأصحاب حياء ووفاء وتقى وورع وإيمان ومعرفة ودين قطعوا
الأودية بغير مفاوز واستقلوا الوفاء بالصبر على لزوم الحق واسنعانوا
بالحق على الباطل فأوضح لهم الحجة ودلهم على المحجة فرفضوا طريق
المهالك وسلكوا خير المسالك ودلهم أولئك هم الأوتاد الذين بهم تهوّه
المواهب وبهم تفتح الأبواب وبهم يشأ السحاب وبهم يدفع العذاب وبهم
يتسقى العباد والبلاد فرحمة الله علينا وعليهم (1).

إنه مر على يدي ظالم

قال إسرائفيل حضرت ذا النون في الحبس وقد دخل الجلاوذ بطعام له فقام ذو النون فنفض يده فقيل له ان أخاك جاء به فقال إنه مر على يدي ظالم .

أنت البحر وهم الأنهار

دخل شقيق البلخي على هارون الرشيد فقال عظمي فقال إن الله تعالى أقامك مقام الصديق فيريد منك الصدق وأقامك مقام الفاروق فيريد منك أن تفرق بين الحق والباطل وأقامك مقام عثمان فيريد منك الحياء وأقامك مقام علي فيريد منك العمل والعلم قال زدني قال إن لله تعالى دارا يقال لها جهنم وجعلك بوابا لها تدفع الناس عنها وأعانك بالمال والسوط والسيف وقال لك أيها العبد المأمور ادفع الخلق عن هذه الدار بهذه الثلاثة فمن جاءك فقيرا فأعطه من المال ومن لم يطع فأدبه بالسوط ومن قتل بغير حق فاقتص منه بالسيف قال زدني قال أنت البحر وهم الأنهار فإن صفوت صفوا وإن تكدرت تكدروا.

اللهم لا ترنا وجه من لا تحب

عن معروف الكرخي أنه كان يقول عند ذكر السلطان اللهم لا ترنا وجه من لا تحب النظر اليهم . (1)

وقد حكموا أنه أعقل أهل زمانه

قيل للرشيد إن حاتما الأصم قد اعتزل الناس في قبة له منذ ثلاثين سنة لا يحتاج إلى الناس في شيء من أمور الدنيا ولا يكلمهم إلا عند مسألة لا بد له من الجواب لعله لبس به قد ورثته إياه الوحدة وقيل أنه عاقل فقال سأمتحنه فندب له أربعة محمد بن الحسن والكسائي وعمرو بن بحر ورجلا آخر أحسبه الأصمعي فجاءوا حتى وقفوا تحت قبته ونادى أحدهم يا حاتم يا حاتم فلم يجبههم حتى قيل بحق معبودك الا أجبتنا فأخرج رأسه وقال يا أهل الحيرة هذه يمين مؤمن لكافر وكافر لمؤمن لم خصصتموني بالمعبود دونكم ولكن الحق جرى على ألسنتكم لأنكم اشتغلتم بعبادة الرشيد عن طاعة الله فقال أحدهم ما علمك بأننا خدام الرشيد قال من لم يرض من الدنيا إلا بمثل حالكم لا يزل عن مطلبه إلى قصد من لا يخبره ولا يد علي من الرشيد وأشباهه فقال له عمرو بن بحر لم اعتزلت الناس وفيهم من تعلم وفيهم من يقدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال صدقت ولكن بينهم سلاطين الجور يفتنونا عن ديننا فالتخلي منهم أولى قال فعلام وطننت نفسك في العزلة وثبت عليه أدرك قال علمت أن القليل من الرزق يكفيني فأقللت الحركة في طلبه وأن

فرضي لا يقبل إلا مني فأنا مشغول بأدائه وأن أجلي لا بد يأتيني فأنا منتظر له وأنا لا أغيب عن عين من خلقتني فأستحي منه أن يراني وأنا مشغول بغير ما وجب له محمد ثم رد باب القبة وحلف أن لا يكلمهم فرجعوا إلى الرشيد وقد حكموا أنه أعقل أهل زمانه .⁽¹⁾

ولكن وضعت يدك على ما أنزل الله من خزائنه

وخطب معاوية يوماً فقال: أيها الناس إن الله تعالى قال: " وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم " ، فعلام تلومونني إذا قصرت عنكم في عطاياكم؟ فقال له الأحنف بن قيس: إنا والله ما نلومك فيما في خزائن الله، ولكن وضعت يدك على ما أنزل الله من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه.⁽²⁾

عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت

ذكر ابن خلكان في ترجمته : ثم إن عبيد الله - يعني ابن زياد أمير العراق - جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال : أدخلهم عليّ أو لا فأول على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال : إليّ يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحدثه، وأعرض عن بقية الجماعة. قال : ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر في عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية : لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال : إن تكلمت خالفتهم، فقال له معاوية : اشهدوا علي أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليّ بعد ثلاثة أيام. قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم من عيّن غيره، وسعوا في السرّ مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة، ثم قال : ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصاً وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء، فقال له معاوية : لم لا تتكلم يا أبا

¹ (حلية الأولياء ، 8 / 74)

² (الإتيدي ، إعلام الناس بما وقع للبرامكة ، ص 11)

بحر؟ فقال الأحنف : إن وليت أحداً من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجالس الأول في الثناء على عبيد الله، من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم. قال : فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة : اشهدوا علي أنني قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي. قال : فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له : كيف ضيعت مثل هذا الرجل - يعني الأحنف - فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذ الإنسان عوناً وذخراً قال : فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره (1)

من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟

وعندما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوماً، فقال له معاوية : والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القامة؟ فقال له الأحنف : والله يا معاوية إن القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أعمادها، وإن تدن من الحرب فترا ندن منه شبراً، وإن تمشي إليها نهول إليها، ثم قام وخرج وكانت اخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت : يا أمير المؤمنين من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟ قال هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب (2).

لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان فأشار له إلى الوساد فقال له اجلس فجلس على الأرض فقال معاوية ما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد فقال يا أمير المؤمنين إن فيما أوصى به قيس بن عاصم المنقري ولده أن قال لا تغش السلطان حتى يملك ولا تقطعه حتى ينسأك ولا تجلس له على فراش ولا وساد واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين فإنه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له فيكون قيامك زيادة له ونقصا عليك حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين لعله أن يأتي من هو أولى بذلك

¹ (ابن خلكان، وفيات الاعيان ، 186/2

² (ابن خلكان، وفيات الاعيان ، 186/2

المجلس مني فقال معاوية لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام وأنشأ يقول

(ياأيها السائل عما مضى ... وعلم هذا الزمن العائب)
(ان كنت تبغي العلم أو أهله ... أو شاهدا يخبر عن غائب)
(فاعتبر الارض بسكانها ... واعتبر الصاحب بالصاحب) (1)
فلا تُزوّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه. فوفد عليه من كل مصر قوم. وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم، فخلا به معاوية وقال له: ما ترى فيبيعة يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحب إليّ رشداً من نفسك سوى نفسي، وإن يزيد أصبح غنياً في المال، وسيطاً في الحسب، وإن الله سائل كل راعٍ عن رعيته، فاتق الله وانظر من تولى أمر أمة محمد. فأخذ معاوية بهر حتى تنفّس الصُّعداء، وذلك في يوم شات، ثم قال: يا محمد، إنك امرؤ ناصح، قلت برأيك ولم يكن عليك إلا ذاك. ثم، قال معاوية: إنه لم يبق إلا ابني وأبنائهم، فابني أحب إليّ من أبنائهم، أخرج عني. ثم جلس معاوية في أصحابه وأذن للوفود، فدخلوا عليه، وقد تقدّم إلى أصحابه أن يقولوا في يزيد، فكان أول من تكلم الضحّاك بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين، إنه لا بُدّ للناس من والٍ بعدك، والأنفس يُغدى عليها ويرّاح. وإن الله قال: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. ولا ندري ما يختلف به العَصْران، ويزيدُ ابن أمير المؤمنين في حُسْن مَعَدِنه، وقصد سيرته، من أفضلنا حِلْماً، وأحكمنا علماً، فولّه عهدك، واجعله لنا علماً بعدك. وإنّا قد بَلَوْنَا الجماعةَ والألفةَ فوجدناه أحقن للدماء، وآمن للسُّبُل، وخيراً في العاجلة والآجلة. ثم تكلم عمرو بن سعيد فقال: أيها الناس، إن يزيدَ أَمَلٌ تأملونه، وأجل تأمنونه؛ طويل الباع، رَحْبُ الذراع، إذا صرّتم إلى عدله وسِعْكم، وإن طلبتم رفده أغناكم؛ جَدَع قارح، سُوبِق فسبق، ومُوجِد فمجد، وقُورِع فقُرع، خلف من أمير المؤمنين ولا خَلْف منه. فقال: اجلس أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسنّت. ثم قام يزيد بن المُقَفِّع فقال: أمير المؤمنين هذا، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، فمن أي فهذا، وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: اجلس، فإنك سيّد الخطباء. ثم تكلم

¹ (أبي عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق : المحامي فوزي عطوي ، دار صعب - بيروت
ص43

الأحنف بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين، أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضا ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة. قال: ففترق الناس ولم يذكروا إلا كلام الأحنف⁽¹⁾.

إذا نعفيك يا أبا بحر

وحكي أن معاوية رضي الله تعالى عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا وكان آخر كلامه أن لعن عليا رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه فقال الأحنف يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للغنم فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليا رضي الله تعالى عنه فلقد لقي ربه وأفرد في قبره وخلا بعمله وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبتة فقال معاوية يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعا أو كرها فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبدا فقال قم فاصعد قال أما والله لأنصفنك في القول والفعل قال وما أنت قائل إن أنصفتني قال أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلي على نبيه محمد ثم أقول أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا ألا وإن معاوية وعليا اقتتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما أنه مبغي عليه وعلى فئته فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ثم أقول اللهم ألعن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية اللهم الغنم لعنا كثيرا أمنوا رحمكم الله يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفا ولو كان فيه ذهاب روعي فقال معاوية إذا نعفيك يا أبا بحر⁽²⁾.

(1) ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 129/2

(2) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق د. مفيد محمد قميحة ، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، 1986 ،

فقد كفيت الشاهد والغائب

وقيل قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس فقال الحاجب إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه فلما وصلوا إليه قال الأحنف لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفه ردت ونازلة نزلت ونائبة نابت الكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين فقال له معاوية حسبك يا أبا بحر فقد كفيت الشاهد والغائب (1).

ومن أتاها منا احترق

كتب عبد الملك إلى الأحنف بن قيس يدعوه إلى نفسه، فقال الأحنف: يدعوني ابن الزرقاء إلى ولاية أهل الشام؟! فو الله لقد وددت بأن بيننا وبينهم جبلاً من نار، فمن أتانا منهم احترق، ومن أتاها منا احترق (2).

عزل الحجاج بن يوسف عن الحرمين

قال عمران بن عد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف الزهري: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين، بعد قتل عبد الله بن الزبير استحضر إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقربه في المنزلة فلم يزل على حاله عنده، حتى خرج إلى عبد الملك زائراً له فخرج معه فعادله لا يترك في بره وإجلاله وتعظيمه شيئاً، فلما حضر باب عبد الملك حضر به معه، فدخل على عبد الملك فلم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال: قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له والله فيها نظيراً في كمال المروءة والأدب والديانة، ومن الستر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة، مع القرابة ووجوب الحق: إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقد أحضرته بابك لتسهل عليه إذنك وتلقاه ببشرك وتفعل ما تفعل بمثله ممن كانت مذاهبه مثل مذاهبه، فقال عبد الملك: ذكرتنا حقاً واجباً ورحماً قريباً، يا غلام ائذن لإبراهيم بن طلحة، فلما دخل عليه قربه حتى أجلسه على فرشه، ثم قال له: يا ابن طلحة! إن أبا محمد أذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل والأدب وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق، فلا تدعن حاجة في خاص أمرك ولا عامته إلا ذكرتها، قال: يا أمير المؤمنين! إن أولى الأمور أن تفتتح بها حوائج وترجى بها الزلف ما كان لله عز وجل رضا، ولحق نبيه ﷺ أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وإن عندي نصيحة لا أجد بداً من ذكرها ولا يكون البوح بها إلا وأنا خال، فأخطني ترد عليك نصيحتي، قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، قال: قم يا

1 (الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف، 297/1

2 (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 4/1

حجاج، فلما جاوز الستر قال: قل يا بن طلحة نصيحتك، قال: الله أمير المؤمنين أمير المؤمنين، قال: الله، قال: إنك عمدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعترسه، وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل، فوليته الحرمين، وفيهما من فيهما، وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار، والموالي المنتسبة الأخير، أصحاب رسول الله ﷺ وأبناء الصحابة، يسومهم الخسف، ويقودهم بالعسف، ويحكم فيهم بغير السنة، ويطوهم بطغام أهل الشام، ورعاع لا روية لهم في إقامة حق، ولا إزاحة باطل، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله ينجيك، وفيما بينك وبين رسول الله ﷺ يخلصك إذا جاثاك للخصومة في أمته، أما والله لا تنجو إلا بحجة تقيمن لك النجاة، فابق على نفسك أو دع، فقد قال رسول الله ﷺ: " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " فاستوى عبد الملك جالساً وكان متكئاً، فقال: كذبت - لعمرى الله - ومننت ولؤمت فيما جئت به، قد ظن بك الحجاج ما لم يجد فيك، وربما ظن الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن الحاسد، قال: فقامت والله ما أبصر طريقاً، فلما خلفت الستر لحقتي لاحق من قبله، فقال للحاجب: احبس هذا، أدخل أبا محمد للحجاج، فلبثت ملياً لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الآذن فقال: قم يا ابن طلحة فادخل، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وأنا داخل وهو خارج فاعتنقتني وقبل ما بين عيني، ثم قال: إذا جرى الله المتحابين بفضل تواصلهم فجازاك الله أفضل ما جرى به أخاً، فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك، ولأعلين كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدمك، قال: فقلت: يهزأ بي، فلما وصلت إلى عبد الملك أدناني حتى أجلسني مجلسي الأول، ثم قال: يا ابن طلحة لعل أحد من الناس شاركك في نصيحتك؛ قال: قلت: لا والله، ولا أعلم أحداً كان أظهر عندي معروفاً ولا أوضح يداً من الحجاج، ولو كنت محابياً أحداً بديني لكان هو، ولكن آثرت الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه والمسلمين، فقال: قد علمت أنك آثرت الله عز وجل، ولو أردت الدنيا لكان لك بالحجاج أمل، وقد أزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استصغاراً لهما، ووليته العراقيين لما هنا من الأمور التي لا يرحضها إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى التولية له عليهما استزادة له ليلزمه من ذمامك ما يؤدي به عني إليك أجر نصيحتك، فاخرج معه فإنك غير ذام صحبته مع تقريظه إياك ويدك عنده، قال: فخرجت على هذه الجملة⁽¹⁾.

الحجاج يؤمن الناس إلا أربعة

عن عبيد الله بن عبد الله بن فضالة الزهراني، قال: نادى منادي الحجاج بن يوسف يوم رستقا باذ: آمن الناس كلهم إلا أربعة: عبد الله بن الجارود وعبد الله بن فضالة وعكرمة بن ربعي وعبد الله بن زياد بن ظبيان، قال: فأتى برأس عبد الله بن الجارود فلم يصدق فرحاً به، وقال: عمموه لي أعرفه فإني لم أراه قط إلا معمماً فعمم له فعرفه، فأمر المنادي فنادى: آمن الناس إلا ثلاثة: عبد الله بن فضالة وعبيد الله بن زياد بن ظبيان وعكرمة بن ربعي، فأما عبيد الله بن زياد فإنه انطلق إلى عمان فأصابه الفالج بها فمات، وأما عكرمة ابن ربعي فإنه لحقته خيل الحجاج في بعض سكك المربد فعطف عليهم فقتل منهم نيفاً وعشرين رجلاً ثم قتلوه، وأما عبد الله بن فضالة فإنه أتى خراسان فلم يزل بها حتى ولي المهلب خراسان فأمر بأخذه حيث أصابه، وقيل له: أكن ذلك ولا تبده فيحذر ويحرز فاحرص على أسره دون قتله، قال: فبعث المهلب ابنه حبيباً أمامه فساق من سوق الأهواز إلى مرو على بغلة شهباء في سبع عشرة ليلة فأخذه غاراً بمرور وهو لا يشعر، ثم كتب إلى الحجاج يعلمه ذلك، فجاء المغيرة بن المهلب إلى منزل حبة ابنة الفضل، امرأة عبد الله بن فضالة وهي ابنة عم عبد الله، فأرسل إليها أن حبيباً قد أخذ عبد الله، وقد كتب إلى الحجاج يعلمه بذلك، فإن كان عندك خير فشأنك وعولي علي من المال ما بدا لك، فأرسلت إليه: لا ولا كرامة، تقتلونني وأخذ منكم المال، هذا ما لا يكون، فتحولت إلى منزل أخيها لأمها خولى بن مالك الراسبي وأرسلت إلى بني سعد فاشتري لها باب عظيم وألقتة على الخندق ليلاً ثم جازت عليه فغشي عليها، فلما أفاقت قالت: إني لم أكن أتعب، فمتى أصابني هذا فشدوني وثاقاً ثم سيروا بي، فخرجت مع خادمها وغلामها ودليلها، لا يعلم بها أحد، فسارت حتى دخلت دمشق على عبد الملك بن مروان، فأتت أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان، وكانت أمها بنت ذؤيب بن حلحلة الخزاعي، قالت: يا أم أيوب قصدتك لمر بهظني وغم كظمني وأعلمتها الخبر وقصت عليها القصة، فقالت أم أيوب: قد كنت أسمع أمير المؤمنين يذكر صاحبك ويظهر التلطي عليه، قالت: وأين رحلتي إليك؟ قالت: سأدخلك مدخلاً وأجلسك مجلساً إن شفعت ففيه، وإن رددت فلا تنصبي، فلا شفاعة لك بعده فأجلستها في مجلسها الذي كانت تجلس فيه لدخول عبد الملك ليلاً، وجلست أم أيوب قريباً منها فقالت لها: إذا دخل فشأنك، فدخل عبد الملك ليلاً مغترراً، فلما دنا أخذت بجانب ثوبه ثم قالت: هذا مكان العائذ بك يا أمير المؤمنين،

ففرع عبد الملك وأنكر الكلام، فقالت أم أيوب: ما يفرعك يا أمير المؤمنين من كرامة ساقها الله عز وجل إليك! فقال: عدت معاذاً، فمن أنت؟ قالت: تؤمن يا أمير المؤمنين من جنتك فيه من كان من خلق الله تعالى ممن تعرف أو لا تعرف، ممن عظم ذنبه لديك أو صغر شامياً أو عراقياً أو غير ذلك من الآفاق؟ قال: نعم، هو آمن، قالت: بأمان الله عز وجل ثم أمانك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فمن هو أيتها المرأة؟ قالت: عبد الله بن فضالة، قال: أرسلني ثوبي أنبئك عنه، قالت: أغدراً يا بني مروان؟ قال: لا، أرسلني ثوبي أحدثك ببلائك عنده، وهو آمن لك ولمعاذك قالت: فحدثني يا أمير المؤمنين ببلائك عنده، قال: ألم تعلمي أنني وليته السوس وجندي سابور وأقطعته كذا وكذا وفرضت له كذا ونوّهت بذكره ورفعت من قدره؟ قالت: بلى والله يا أمير المؤمنين، أفلا أحدثك ببلائه عندك؟ قال: بلى، قالت: أتعلم يا أمير المؤمنين أن داره هدمت ثلاث مرات بسببك لا يستتر من السماء بشيء، قال: نعم، قالت: أفتعلم يا أمير المؤمنين أنك كتبت إلى وجوه أهل البصرة وأشرافها وكتبت إليه فلم يكن منهم أحد أجابك ولا أطاعك غيره، قال: نعم قالت: أفتعلم أنه كان قبل زلته سيفاً لك على أعدائك وسلماً وبساطاً لأوليائك قال: نعم، حسبك قد أجبت وأبلغت، قالت: أفذهب يوم من إساءته بصالح أيامه وطاعته وحسن بلائه، قال: لا، هو آمن، قالت: يا أمير المؤمنين إنه الدما وإنه الحجاج وإنه إن رآه قتله، قال: كلا، قالت: فالكتاب مع البريد يا أمير المؤمنين، قال: فكتب لها كتاباً مؤكداً: إياك وإياه أحسن جائزته ورفده وخل سبيله، ثم وجه به مع البريد، ثم أقبل عليها فقال: ما أنت منه؟ قالت: امرأته وابنة عمه، قال: فضحك وقال: أين نشأت، قالت: في حجر أبيه، قال: فوالله لأنت أعرب منه وأفصح لساناً، فهل معه غيرك؟ قالت: نعم، ابنة عبيد بن كلاب، قال: النميري قالت: نعم، وكذا وكذا جارية، قال: فأنا أوليك طلاقها وعتق جواريه، قالت: بل تهنيه نساءه كما هنأته دمه، فأقبل على أم أيوب فقال لها: يا أم أيوب لا نساء إلا بنات العم. ثم قال: أقيمي عند أم أيوب حتى يأتيك الكتاب بمحبتك إن شاء الله، وقدم الكتاب وقد قدم به على الحجاج من خراسان، فأقامه للناس في سراويل وقد كان نزع ثيابه قبل ذلك وعرضه على الناس في الحديد ليعرفوه، فلما أمسى دعا به الحجاج فقال له عبد الله: أتأذن لي في الكلام؟ قال: لا كلام سائر اليوم، قال: فكساه وحمله وأجازه وخلي سبيله، وانصرف إلى أهله فسألهم عن حبة، فأخبر بأمرها وقيل له: ما ندري أين توجهت، ثم بلغه ما صنعت، فكتب إليها: إنك قد صنعت ما لم تصنع أنثى فأعلميني بمقدمك أتلقاتك ويتلقاك

الناس معي، فلم تعلمه حتى قدمت ليلاً وهو عند ابنة عبيد بن كلاب، فقالت: لا والله لا يؤذن بي الليلة، فلما أصبح، أخبر بمكانها فأثاها⁽¹⁾.

الوليد يوافق الحجاج على عسفه بآل المهلب

قال الأصمعي: كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يذكر عسفه آل المهلب ومطالبته إياهم بما اختانوا من الأموال، فوقع في كتابه بخطه: ليس للخائن حرمة تبعث الأحرار عن ترفيهم، فأياك وتضييع حق قد وجب، وأمانة مال خطير يزين الدولة ويحصن الخلافة، ويؤخذ من خائن لم يشكر عليه، ويدفع إلى ناصح يحتاج إليه، فلما قرأ الحجاج كتابه أنشأ يقول متمثلاً بشعر من بني كلاب:

وإني لصوان لنفسي وإنني ... على الهول أحياناً بها لرحوم
وإني لأزري في خلال كثيرة ... على المرء أن يختال وهو لئيم⁽²⁾

يصارح الحجاج برأيه في أخيه

قال محمد بن الحسن بن دريد: بلغني أن طاووساً كان يقول: بينا أنا جالس مع الحجاج بمكة إذ مر رجل يلبي حول البيت، فرفع صوته بالتلبية، فقال الحجاج: علي بالرجل، فأتي به، قال: ممن الرجل؟ قال: من المسلمين، فقال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعم سألت، قال: عن البلد، قال: من أهل اليمن، قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ قال: تركته عظيماً جسيماً، ركاباً خراجاً ولاجاً، قال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعم سألت؟ قال: عن سيرته؟ قال: تركته ظلوماً غشوماً، مطيعاً للمخلوق، عاصياً للخالق، قال: فما الذي حملك علي بهذا فيه، وأنت تعرف مكانه مني؟ قال: أتراه مكانه منك أعز بمكاني من الله عز وجل وأنا قاضي دينه، ووافد بيته، ومصدق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فسكت الحجاج فما أحرار جواباً، وقام الرجل فدخل الطواف.

فاتبعته فإذا هو في الملتزم، وهو يقول: اللهم إني أعوذ بك، اللهم فاجعل لي في الكهف إلى جودك، والرضا بضمانك، مندوحة عن سواك الباخلين، وغنى عما في أيدي المستأثرين، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة، فلما كان عشية عرفة، رأيتُه واقفاً على الموقف فدنوت منه، فسمعتُه يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي، فلا تحرمني

¹ (الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 87-88)

² (الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 111)

الأجر على مصيبتني بتركك القبول مني، قال: فلما كان غداة جمع أفاض مع الناس، فسمعتة يقول: يا سوءتاه منك يا رب وإن غفرت. ثم لم أره بعد ذلك⁽¹⁾.

ويحك أخبرته؟

أتى الحجاج برجلين من الخوارج، فقال لأحدهما: ما دينك؟ قال: دين إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، فقال: يا حרسي! اضرب عنقه، ثم قال للآخر: أنت ما دينك؟ قال: دين الشيخ يوسف بن الحكم - يعني أبا الحجاج - قال: ويحك أخبرته؟ لقد كان صواماً قواماً، يا حرسي! خل عنه، فقال: ويحك يا حجاج! أشقيت نفسك واثمت بربك، قتلت رجلاً على دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: " ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه " : فقال: أبيت، يا حرسي! اضرب عنقه، فانطلق به فأنشأ يقول:
سبحان رب قد يرى ويسمع ... وقد مضى في علمه ما تصنع
ولو يشا في ساعة بل أسرع ... فيرسلن عليك ناراً تسطع
فيترك السرير منك بلقع
فضربت عنقه⁽²⁾.

إهانة الحجاج لأنس وما نجم عنها

عن عوانة بن الحكم الكلبي قال: دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف، فلما وقف بين يديه سلم عليه فقال أيها يا أنيس، يوم لك مع علي، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشأفة، ولأقلعنك كما تقلع الصمغة، فقال أنس: إياي يعني الأمير أصلحه الله؟ فقال: إياك سك الله سمعك⁽³⁾، قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت ولا أي ميتة مت. ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً وشفق عجباً، وتعاضمه ذلك من الحجاج. وكان كتاب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك، أما بعد، فإن الحجاج قال لي هجراً، وأسمعني نكراً، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لي على يديه فإني أمت بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتني إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

¹ (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 136

² (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 221

³ (سك الله سمعك يقال: استكت الأذنان واصطكت الركبتان.

فبعث عبد الملك إلى إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وكان مصادقاً للحجاج، فقال له: دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق، فأبدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فادفع كتابه إليه وأبلغه مني السلام وقل له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك. وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكاتك للحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إلي بذلك أنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي، والسلام، فلما قرأ أنس بن مالك كتابه وأخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عني خيراً وعافاه وكافأه عني بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه. فقال إسماعيل بن عبد الله لأنس: يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غنى ولا بأهل بيتك، ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك لقد أن يضر وينفع، فقاربه وداره، فقال أنس: أفعل إن شاء الله. ثم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج، فلما رآه الحجاج قال: مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه، فقال له إسماعيل: وأنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به، قال: وما أتيتني به؟ قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضباً ومنك بعداً، قال: فاستوى الحجاج جالساً مرعوباً فرمى إليه إسماعيل بالطومار، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما نفذه قال: قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه، فقال له إسماعيل: لا تعجل، قال: كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة؟ وكان في الطومار: إلى الحجاج بن يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف: أما بعد، فإنك عبد طمت بك الأمور فسموت فيها وعدوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية إداً، وأردت أن تبورني، فإن سوغتكم مضيت قدماً، وإن لم أسوغها رجعت القهقري، فلعنك الله عبداً أخفش العينين منقوص الجاعرتين، أنسيت كاسب آبائك بالطائف وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب؟! (1) والله

(1) يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب : كانت المرأة تستعمل عجم الزبيب لتضييق قبلها في ما ذكر بعض أهل العلم وهو حبه، والنوى كله يقال له عجم واحده عجمة، قال الأعشى: مقادك بالخيال أرض العدو ... وجذعائها كلقيط العجم

لأغمرنك غمر الليث الثعلب والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا فلم تقبل له أحسانه ولم تجاوز له إساءته، جرأة منك على الرب عز وجل، واستخفافاً منك بالعهد، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً خدع عذرة وعيسى بن مريم لعظمتته وشرفته واکرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ خدمه ثمانين سنين يطلعه على سره ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك مني سهم مثكل بحتفٍ قاضٍ و " لكل نبأٍ مستقر وسوف تعلمون " الأنعام: 67. (1)

الحجاج وابن الحنفية وشكوى الثاني لعبد الملك

قال محمد بن هشام السعدي التميمي: خرج الحجاج بن يوسف وابن الحنفية من عند عبد الملك بن مروان، فلما صاروا في الطريق قال الحجاج لمحمد بن الحنفية: لقد بلغني أن أباك كان إذا فرغ من القنوت يقول كلاماً حسناً أحببت أن أعرفه، فتحفظه؟ قال: لا، قال: سبحان الله، ما أوحش لقاءكم، وأفظع لفظكم، وأشدّ خنزوانتكم، ما تعدّون الناس إلا عبيداً، ولقد خضتم الفتنة خوفاً وقتلتم المهاجرين والنصارى. فنظر إليه ابن الحنفية وأنكر لفظه وأحفظه، فوقف وسار الحجاج. ورجع ابن الحنفية إلى باب عبد الملك فقال للآذن: استأذن لي، فقال: ألم تكن عنده قبل وخرجت أنفاً، فما ردّك وقد ارتفع أمير المؤمنين؟ قال: لست أبرح حتّى ألقاه. فكره الآذان غضب الخليفة فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، هذا محمد بن الحنفية مستأذنٌ عليك، فقال: ألم يكن عندي قبل، لقد ردّه أمرٌ، إذن له. فلما دخل عليه تحلّل عن مجلسه كما كان يفعل فقال: يا أمير المؤمنين هذا الحجاج أسمعني كلاماً تكمّشت له (2)، وذكر أبي بكلام تقمّعت له (3)، وما أحرّت حرفاً، قال: فما قال لك حتّى أعمل على حبسه؟ قال: وكأنّما تفقأ في وجهه الرمان ونخسه شوك، فخبّره عمّا سأله عنه، فقال لصاحب شرطته: عليّ بالحجاج الساعة. فأتاه في منزله حين

قيل: صارت من صلابتها مثل النوى. وقال أبو عبيدة: عجم عجماً أي ليك لأنه نوى الفم فهو أصلب ليس بنوى خل ولا نبيذ فهو أصلب وأملس، وإنما أراد صلابتها وضمّرها، ولقيط أراد ملفوظ مثل جريح ومجروح، ويروى كلفيظ العجم أي ملفوظ ملقى.

(1) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 317

(2) تكمّشت له " أي انقبضت منه، يقال لما تغصّن وتشنّج من الفاكهة وغيرها قد تكمّش فهو متكّمش.

(3) ذكر أبي بكلام تقمّعت له " يقال: قد تقمّع الرجل وانقمع إذا انخرل وانكسر.

خلع ثيابه فحمله حملاً عنيفاً، وانصرف ابن الحنفية. فجاء الحجاج فوقفه
بالباب طويلاً ثم قال: إيدن له، فدخل فسلم عليه، فقال له عبد الملك:
لا أنعم الله بعمرٍ عينا... تحية السُّخط إذا التقينا

يا لكع (1) وهرأوة البقار (2)، ما أنت ومحمد ابن الحنفية؟! قال: يا أمير
المؤمنين، ما كان إلا خيراً، قال: كذبت والله لهو أصدق منك وابر، ذكرته
وذكرت أباه، فوالله ما بين لابتيها أفضل من أبيه؛ وما جرى بينك وبينه؟ قال:
سألته يا أمير المؤمنين عن شيء بلغني كان أبوه يقوله بعد القنوت، قال: لا
أعرفه، فعلمت أن ذاك مقت منه لنا ولدولتنا، فأجبتة بالذي بلغك. فقال له عبد
الملك: أسأت ولوئت، والله لولا أبوه وابن عمه لكنا حيارى ضللاً، وما أنبت
الشعر على رؤوسنا إلا الله عز وجل وهم، وما أعزنا بما ترى إلا رحمهم
وريحهم الطيبة، والله لا كلمتك كلمة أبداً، أو تجيئني بالرضا منه، وتسَلَّ
سخيمته. قال: فمضى الحجاج من فوره، فألفاه وهو يتغذى مع أصحابه، قال:
فاستأذن فأبى أن يأذن له، فقال له بعض أصحابه: أتى برسالة أمير
المؤمنين، فأذن له، فقال: إن أمير المؤمنين أرسلني أن أسَلَّ سخيمتك،
وأقسم أن لا يكلمني ابداً حتى آتية بالرضى منك، وأنا أحب، برحمتك من
رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا عفوت عما كان، وغفرت ذنباً إن كان.
فقال: قد فعلت على شريطة فتفعلها، قال: نعم، قال: على صرم الدهر. قال: ثم
انصرف الحجاج فدخل على عبد الملك فقال: ما صنعت؟ قال: جئت برضاه
وسللت سخيمته وأجاب إلى ما أحب وهو أهل ذلك. قال: فأبى شيء آخر ما
كان بينك وبينه؟ قال: رضي على شريطة، على صرم الدهر، فقال: شنشنة
أعرفها من أخزم، انصرف. فلما كان من الغد دخل ابن الحنفية على عبد
الملك فقال له: أتاك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فرضيت وأجبتة؟ قال:
نعم يا أمير المؤمنين، قال: ثم مال إليه فقال: هل تحفظ ما سألك عنه؟ قال:
نعم يا أمير المؤمنين وما منعني أن أبثه إياه إلا مقتي له فأنه من بقية ثمود.
فضحك عبد الملك ثم قال: يا سليمان - لغليم له - كاتباً ودواةً وقرطاساً، قال:
فكتب بخطه: بسم الله الرحمن الرحيم، كان أمير المؤمنين علي عليه السلام
إذا فرغ من وتره رفع يده إلى السماء وقال: اللهم حاجتي العظمى التي إن
قضيتها لم يضرني ما منعني، وإن منعني لم ينفعني ما أعطيتني. فكأك

1 (وقول عبد الملك: " يا لكع " يريد يا عبد أو يا لنيم.

2 (وقوله " " وهرأوة البقار " يعني عصا الراعي التي يذود بها البقر، يريد أنه لا يصلح إلا
لأداني الأمور.

الرقاب، فكَّ رقبتي من النار، ربِّ ما أنا إن تقصد قصدي بغضب منك يدوم عليّ، فوعزَّتْك ما يحسنَّ ملكك إحساني، ولا تقبَّحه إساءتي، ولا ينقص من خزانك غنائي، ولا يزيد فيها فقري. يا من هو هكذا اسمع دعائي وأجب ندائي، وأقلني عثرتي، وارحم غربتي ووحشتي ووحديتي في قبري، ها أنا ذا يا ربِّ برمّتي⁽¹⁾. ويأخذ بتلابيبه ثم يركع. فقال عبد الملك: حسن والله رضي الله عنه⁽²⁾.

حسن السياسة وإقامة المملكة

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته. فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، فأدّيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته. وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً، أعطيه حظاً من لطيف عنايتي ونظري. وصرفت السيف إلى النطف المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب⁽³⁾.

خلفته ظلوماً غشوماً عاصياً للخالق مطيعاً للمخلوق

قال زيد بن عمر: سمعت طاووساً يقول: بينما أنا بمكة إذ رُفِعْتُ إلى الحجاج بن يوسف، فثنى لي وساداً فجلستُ، فبينما نحن نتحدث إذ سمعتُ صوت أعرابي في الوادي رافعاً صوته بالتلبية، فقال الحجاج: عليّ بالمُلبّي، فأتني به، فقال: ممن الرجل؟ قال: من أفناء الناس؛ قال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعمّ سألتني؟ قال: من أيّ البلدان أنت؟ قال: من أهل اليمن؛ قال له الحجاج: فكيف خلّفت محمد بن يوسف، يعني أخاه، وكان عامله على اليمن. قال: خلّفته جسيماً خراجاً ولأجاً؛ قال: ليس عن هذا سألتك. قالت: فعمّ سألتني؟ قال: كيف خلّفت سيرته في الناس؟ قال: خلفته ظلوماً غشوماً عاصياً للخالق مطيعاً للمخلوق. فازور من ذلك الحجاج وقال: لما أقدمك على هذا، وقد تعلم

⁽¹⁾ وما رواه محمد بن الحنفية من قول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاه: " ها أنا ذا يا ربِّ برمّتي " العرب تقول: أخذ فلان كذا وكذا برمّته، يريدون أخذه كلّهُ واستوفاه ولم يغادر شيئاً منه؛ وكذلك قولهم أخذه بأسره، والأسر القيد، وبه سمّي الأسير أسيراً وهو الآخذ بمعنى المأخوذ، وكانوا يشدّونه بالقدّ إذا أسروه. وأما الرّمة فالحبيل البالي كانوا يشدّون الأمتعة به، ومنه قول ذي الرّمة: أشعث باقي رمة التقليد وقيل: إنّما سمّي ذا الرّمة لقوله هذا، وهو غيلان بن عقبة، فأما الرّمة بالكسر فالعظم البالي، ويقال: رمّ العظم يرمّ وهو رميم، ومنه قول الشاعر: والنيب إن تعرّمني رمةً خلقاً ... بعد الممات فإني كنت أترّ

⁽²⁾ (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 475-476

⁽³⁾ (المؤلف : ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 5/1

مكانه مني؟ فقال له الأعرابي: أفتراه بمكانه منك أعز مني بمكاني من الله تبارك وتعالى، وأنا وافدٌ بيته وقاضٍ دينه ومُصدّقٌ نبيّه صلى الله عليه وسلم قال: فوجم لها الحجاج! ولم يدر له جواباً حتى خرج الرجل بلا إذن. قال: طاووس: فتبعته حتى أتى الملتزم فتعلق بأستار الكعبة، فقال: بك أعوذ، وإليك ألوذ، فاجعل لي في اللفف إلى جوارك، الرضا بضمانك، مندوحة عن منع الباخلين، وغنى عما في أيدي المستأثرين. اللهم عُدْ بفرجك القريب، ومَعْرِفِكَ القديم، وعادتك الحسنة. قال طاووس: ثم اختفى في الناس فألفيته بعرفات قائماً على قدميه وهو يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجِّي ونصبي وتعبي، فلا تحرمني أجر المصاب على مصيبتة، فلا أعلم مصيبة أعظم ممّن وَرَدَ حَوْضُكَ وانصرف محروماً من سعة رحمتك⁽¹⁾.

صدق ورب الكعبة

وعن الوضاحي عن معمر بن وهيب قال: كان عبد الملك عندما استعفى أهل العراق من الحجاج بن يوسف قال لهم: اختاروا أي هذين شئتم يعني أخاه محمد بن مروان أو ابنه عبد الله مكان الحجاج، فكتب إليه الحجاج: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق استعفوا من سعيد بن العاص إلى عثمان بن عفان فأعفاهم منه فساروا إليه من قابل فقتلوه، فقال عبد الملك: صدق ورب الكعبة، وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له⁽²⁾.

يا سيف اضرب عنقه فضرب عنقه

حكى عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده وقال أيها الناس إن العراق كدر ماؤها وكثر غوغاؤها وأملولح عذبتها وعظم خطبها وظهر ضرامها وعسر أحماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع وذهن جامع وقلب ذكي وأنف حمي فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمين العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد فقام الحجاج وقال يا أمير المؤمنين أنا للعراق قال ومن أنت لله أبوك قال أنا الليث الضمضام والهزبر الهشام أنا الحجاج بن يوسف قال ومن أين قال من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف قال أجلس لا أم لك فلست هناك ثم قال مالي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة فلم يجبه أحد فقام إليه الحجاج وقال أنا مجندل الفساق ومطفىء نار النفاق

¹ (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1/246

² (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 8/1

قال ومن انت قال أنا قاصم الظلمة ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن
العفو والعقوبة آفة الكفر والريبة قال إليك عني وذاك فلست هناك ثم قال من
للعراق فسكت القوم وقام الحجاج وقال انا للعراق فقال إذن أظنك صاحبها
والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة فما آيتك وما
علامتك قال العقوبة والعفو والاقتدار والبسط والازورار والادناء والابعاد
والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيبوب
فمن جادلني قطعته ومن نازعني قصمته ومن خالفني نزعته ومن دنا مني
أكرمته ومن طلب الأمان أعطيته ومن سارع إلى الطاعة بجلته فهذه آيتي
وعلامتي وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فان كنت للاعناق قطاعا
وللأموال جماعا وللأرواح نزاعا ولك في الأشياء نفاعا وإلا فليستبدل بي
أمير المؤمنين فان الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل فقال عبد الملك
أنت لها فما الذي تحتاج إليه قال قليل من الجند والمال فدعا عبد الملك
صاحب جنده فقال هيء له من الجند شهوته وألزمهم طاعته وحذرهم
مخالفته ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق قال
عبد الملك بن عمير فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت فقال
هذا الحجاج قدم أميرا على العراق فتناولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن
صحن المسجد فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد
المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل
الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة فكان الواحد منهم يدخل المسجد
ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج
قال وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي فلما رأى الحجاج على
المنبر قال لصاحب له أسبه لكم قال اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن
صابئ وقال لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق
وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما
كان بشيء والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص
بأهله قال هل اجتمعتم فلم يزد عليه أحد شيئا فقال إني لا أعرف قدر
اجتماعكم فهل اجتمعتم فقال رجل من القوم قد اجتمعنا أصلح الله الأمير
فكشف عن لثامه ونهض قائما فكان أول شيء نطق به أن قال والله إني لأرى
رؤسا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها واني لأرى الدماء تفرق بين
العمائم واللحي والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نشر كنانة بين يديه فعجم
عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم

الفتنة واضطجعت في مراقد الضلال والله لأنكلن بكم في البلاد ولأجعلنكم مثلاً في كل واد ولأضربنكم ضرب غرائب الابل وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ولا أعزم إلا أمضيت فايأي وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال وكان ويكون يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فاتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا فليس مني الإهدار والاكثار إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمر المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيئاً فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه هذا أدبكم الذي تأدبتم به أما والله لأؤدبنكم أدبا غير هذا الأدب اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال أيها الأمير إني على الضعف كما ترى ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار أفقبله بديلاً مني فقال نقبله أيها الشيخ فلما ولي قال له قائل أتدري من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا ابن صابئ الذي يقول : هممت ولم افعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حالله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول فوطئ في بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج ردوه فلما ردوه قال له الحجاج أنت الفاعل بأمر المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين يا سياف اضرب عنقه فاضرب عنقه⁽¹⁾.

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب

ومن حكايات الحجاج ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه أما بعد فقد بلغني عنك أسراف في الدماء وتبذير في العطاء وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية وفي العمد بالقود وفي الأموال أن تردّها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأيي فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناءه فإن كنت أردت الناس لي فما أغناني عنهم وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عني أمران لين وشدة فلا يؤمنك إلا الطاعة ولا يوحشك إلا المعصية وإذا أعطاك الله عز و جل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب في أسفل الكتاب :

إذا أنت لم تترك أمورا كرهتها ... وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
فإن ترمني غفلة قرشية ... فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وأن ترمني وثبة أموية ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادث جمة ... فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه
فلا تعد ما يأتيك مني وإن تعد ... يقمن به يوما عليك نوابه
فلا تمنعن الناس حقا علمته ... ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك أن تعطي الحقوق فإنما ... النوافل شيء لا يثيبك واهبه
فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد فقد ورد كتاب
أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال ولعمري ما بلغت في عقوبة
أهل المعصية ولا قضيت حقوق أهل الطاعة فإن كان قتلي العصاة إسرافا
وإعطائي المطيعين تبذيرا فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت
القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدا فأقاديهم ولا قتلت إلا لك ولا أعطيت إلا
فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب
إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي ... أذاك فليلي لا توارى كواكبه
وما لأمريء بعد الخليفة جنة ... تقيه من الأمر الذي هو راكمه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة ... لقامت عليه بالصباح نوابه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ... واقص الذي تسري إلي عقاربه
وأعط المواسي في البلاء عطية ... لرد الذي ضاقت علي مذاهبه
فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي ... ويخشى غدا والدهر جم نوابه
وأمرني إليك اليوم ما قلت قلته ... وما لم تقله لم أقل ما يقاربه
ومهما أردت اليوم مني أردته ... وما لم ترده اليوم إنني مجانبه

وقف بي على حد الرضا لا أجوزه ... مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
والأ فدعني والأمور فإني ... شفيق رفيق أحكمته تجاربه
فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال خاف أبو محمد صولتي ولم يعاود لأمر
كرهته إن شاء الله تعالى فمن يلومني على محبته يا غلام أكتب إليه الشاهد
يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عينا بما هناك ⁽¹⁾.

ما فعل ربك بك ؟

قال بعضهم : رأيت في المنام الحجاج بن يوسف ، كأني قلت له : ما فعل ربك
بك ؟ فقال : قتلني بكل رجل قتلته قتلة ، ثم رأيت بعد ذلك بمدة في النوم ،
وكأني أقول له : ما فعل بك ربك ؟ فقال : أليس قد قلت مرة يا ابن الفاعله
⁽²⁾؟

من يلومني على الحجاج؟

كتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان كتاباً يقول فيه: أما بعد فإنه
ينزع بي شيطان في المنام يقول لي: أضعت دينك ودنياك بإصلاح دنيا عبد
الملك، قتلت له الرجال، وأخذت له الأموال، وفعلت وفعلت؛ وأعلمته أنه من
نزع في على باطل، وأنا من ديني على يقين، وأحببت أن لا يخفى على
أمير المؤمنين شيء من سري، كما لا يخفى عليه شيء من علانيتي.
فلما ورد كتابه على عبد الملك كتب جوابه بيده: أما بعد فإن الله عز وجل وله
الحمد قد وكل بي ملكاً يقول لي في النوم واليقظة: أضعت دينك ودنياك
بإصلاح دنيا الحجاج فسلطته بسلطان الله عز وجل لك على الأموال فأخذها
من غير حلها، وعلى النفوس فقتلها بغير حقها، فإذا قرأت هذه الأحرف فصر
إلي والسلام.

فلما ورد كتاب عبد الملك على الحجاج قال لمحمد بن يونس كاتبه: إن عاقبة
التكلف مذمومة، أبر لي قلمين لم يكتب بأغلظ من أحدهما ولا بأدق من الآخر،
ففعل محمد، فأخذ ذلك القلم الغليظ وكتب به: بسم الله الرحمن الرحيم، لأمير
المؤمنين عبد الملك بن مروان، وكتب بالدقيق: من الحجاج بن يوسف، أما
بعد فإن كان قتلي الرجال طاعة لله تعالى ولك سرفاً، وأخذي الأموال طاعة لله
ولك تبذيراً، فمرني بأمر آتية إليه إن شاء الله تعالى.

¹ (المستطرف ، 1 - 119 - 120

² (الآبي ، نشر الدر ، 131/7

فلما ورد الكتاب على عبد الملك قال: من يلومني على الحجاج؟ اكتبوا إليه وأقروه على عمله⁽¹⁾.

انطلق فلا شفاك الله ولا عافاك !.

الأصمعي قال: سمعت عمي يقول: أخبرت إن الحجاج بن يوسف لما فرغ من أمر عبد الله بن الزبير قدم إلى المدينة فلقي شخصاً خارجاً من أهل المدينة، فلما رآه الحجاج قال له: يا شيخ من أهل المدينة أنت؟ قال نعم قال الحجاج من أيهم؟ قال من بني فزارة، قال كيف حال أهل المدينة؟ قال شر حال! قال ومم؟ قال لما لحقهم من البلاء بقتل ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الحجاج ومن قتله؟ قال قتله الفاجر اللعين حجاج بن يوسف عليه لعين الله وصلبه من قلة المراقبة لله، فقال الحجاج، وقد استشاط غضباً: وإنك يا شيخ ممن أحزنه ذلك واسخطه؟ قال الشيخ أي والله اسخطني ذلك سخط الله على الحجاج وأخزاه! قال الحجاج: أو تعرف الحجاج إن رأيتك؟ فقال أي والله إني به لعارف فلا عرفه الله خيراً ولا وقاه ضيراً، فكشف الحجاج عن لثامه وقال لتعلم أنك أيها الشيخ يسيل دمك الساعة، فلما أيقن بالهلاك تحامق وقال هذا والله العجب أما والله يا حجاج لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة، أنا العباس بن أبي ثور المصروع اصرع في كل شهر خمس مرات وهذا أول جنوني، فقال الحجاج انطلق فلا شفاك الله ولا عافاك! ⁽²⁾.

ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا

قال صعصعة بن صوحان: خرجنا مع الحجاج حاجاً إلى بيت الله الحرام. فبينما نحن في بعض الطريق إذا نحن بصوت أعرابي يلبي بين الغيضة. فلما فرغ من التلبية قال: كلامك اللهم لك، من قال مخلوق هلك، وفي الجحيم قد سلك والجاريات في الفلك، على مجاري من سلك، قد اتبعنا رسلك، ما خاب عبد أملك، أنت له حيث علك فقال الحجاج: تلبية موحد ورب الكعبة. لا يفوتنكم الرجل. فأسرع ما كان حتى أتى بأعرابي على ناقة برحاء بلحاء. فقال الحجاج: من أين أقبلت يا أخا العرب؟ وإلى أين تريد؟ قال جئت من الفج العميق. قال من أي الفجاج أنت؟ قال من العراق وأرضها. قال من أي العراق أنت؟ قال من مدينة الحجاج بن يوسف. قال فما سيرته فيكم؟ قال بسيرة فرعون في بني إسرائيل، يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم. قال فهل خلفته ظاعناً أو مقيماً؟ قال بل ظاعناً. قال إلى أين؟ قال إلى الحج ولن يتقبل الله

¹ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر، 192/1

² (ابن حبيب، عقلاء المجانين، 12/1

منه. قال وهل خلف أحداً بعده ؟ قال نعم أخاه محمداً. قال فما سيرته فيكم ؟ قال ظلوم غشوم، واسع البلعوم، عاص مشؤوم. قال له الحجاج هل عرفتني ؟ قال الأعرابي اللهم لا. قال الحجاج أنا الحجاج بن يوسف. قال الأعرابي: أشر والله ممن أظلت الخضراء. وأقلت الغبراء. ويشرب من الماء بغيض مبعوض. لعين ملعون. في الدنيا والآخرة. فقال الحجاج والله يا أعرابي لأقتلك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك. قال الأعرابي إن لي رباً يخلصني وينجينني منك. قال يا أعرابي إني سائلك ؟ قال إذا والله أخبرك. فقال أحسن من القرآن شيئاً ؟ قال نعم. قال فأسمعنا. فاستفتح وقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجاً. قال ليس هكذا يا أعرابي. قال وكيف ؟ قال يدخلون في دين أفواجاً. فقال الأعرابي قد كان ذلك قبل أن يتولى الحجاج. فلما ولي جاؤوا يخرجون من دين الله. فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه. ثم قال ما تقول في محمد رسول الله ﷺ ؟ قال وما عسى أن أقول في محمد ﷺ صاحب القضيبي والناقة والحوض والشفاعة وزمزم والسقاية، ومن قرن الله اسمه باسمه. يدعى في كل يوم وليلة عشر مرات في الأذان والإقامة. قال فما تقول في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. قال وما عسى أن أقول في صديق في السماء وصديق في الأرض وصاحبه في الغار وأسلم وهو يملك ثمانين ألف دينار أنفقها في سبيل الله وعلى رسول الله ﷺ. ومع ذلك يا حجاج يوم قرأ النبي ﷺ "جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله". وقال عليه السلام سمعتم ما قال ربكم تبارك وتعالى إلا من كان عنده شيء فليأتني بما أمكنه فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأتى بجميع ما عنده. وقام عمر رضي الله عنه فأتى بنصف ما عنده. وقام عثمان رضي الله عنه وأتى بثلاث ما عنده. فقالوا خذ يا رسول الله. والله عندنا المزيد. فنزل جبريل عليه السلام وقال يا رسول الله إن ربك العلي الأعلى يقرئك السلام ويقول لك: اقرأ أبا بكر مني السلام وقل له أنا راض عنه، فهل هو راض عني ؟ فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه. فبكى أبو بكر بكاءً شديداً وقال يا رسول الله أنا راض راض فوعد الله أن يرضيه وذلك قوله تعالى: "ولسوف يعطيك ربك فترضى". قال الحجاج: فما تقول في عمر بن الخطاب ؟ قال وما عسى أن أقول في فاروق السماء وفاروق الأرض. فرق بين الحق والباطل على لسانه. وإذا كان يوم القيامة يأتي الحق والإسلام ويتعلقان فيه فيجزع عمر رضي الله عنه منهما فيقولان له لا تجزع فنحن الحق والإسلام اللذان كنت تقوم بنا في الدنيا. ومن ذلك يا حجاج إن رسول الله ﷺ كان عند

حفصة فدخلت عليه صفية فقال لها لا تخبري عائشة فخرجت وأخبرت أم سلمة. فأخبرت أم سلمة عائشة رضي الله تعالى عنهن. فتظاهر عليه أزواجه فجاءهن عمر مغضباً فقال لهن: لم تتظاهرن على رسول الله صلى الله عليه وسلم عسى ربه أن طلقن أن يبدله أزواجاً. فنزلت الآية كذلك موافقة لقول عمر رضي الله عنه. قال الحجاج فما تقول في عثمان بن عفان ؟ فقال الأعرابي وما عسى أن أقول في حافر بئر أرومة. ومجهز جيش الفطرة. ومن سبح في كفه الحصى. واستحيت منه ملائكة السماء. ومن ذلك يا حجاج يوم دخل على رسول الله ﷺ وكان جالساً على الأيسر وركبته مكشوفة. فدخل أبو بكر والنبي عليه الصلاة والسلام على حاله. فلما استؤذن لعثمان بادر له وغطى ركبته فدخل عثمان رضي الله عنه وجلس جلسة المريض يمزحه فنظر أبو بكر إلى عمر وعمر إلى أبي بكر. فقالا يا رسول الله تغطيت من عثمان وعثمان صهرك ونحن أصهارك. فقال النبي ﷺ ألا أغطي وأستحي ممن تستحي منه الملائكة ؟ فقال الحجاج: ما تقول في حق علي بن أبي طالب ؟ قال الأعرابي: وما عسى أن أقول في ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته البتول. ومن قال له رسول الله ﷺ: يا علي إن الله ألف بين روحي وروحك وكان عرشه على الماء وزوجك فاطمة واختارك لها من قبل أن يخلق الدنيا بألف عام. فقال الحجاج: فما تقول في الحسن والحسين ؟ قال الأعرابي وما عسى أن أقول فيمن ولدتهما البتول، ورباهما الرسول وراعاهما جبرائيل فهل لهما مثل وعديل ؟ فقال الحجاج فما تقول في معاوية ؟ قال وما عسى أن أقول في خال المؤمنين وكاتب وحي رسول رب العالمين ورديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته لدل فقال له النبي ﷺ ما يلبني منك يا معاوية ؟ فقال بطني يا رسول الله. فقال النبي عليه الصلاة والسلام ملأه الله علماً وحلماً. فقال الحجاج ما تقول في يزيد بن معاوية ؟ قال الأعرابي كما قال من هو خير مني لمن هو شر منك. قال الحجاج ومن هو خير منك وشر مني ؟ فقال الأعرابي موسى عليه السلام خير مني، وفرعون شر منك. قال الحجاج فما قال فرعون لموسى ؟ قال قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. فقال الحجاج: فما تقول في عبد الملك بن مروان ؟ فقال الأعرابي: ذلك والله أخطأ خطيئة ملأت بين السماء والأرض. فقال الحجاج وكيف ذلك ؟ قال الأعرابي: ولاك على أمور المسلمين تحكم في أموالهم ودمائهم بجور وظلم. قال فعند ذلك هم الحجاج بالسيف وأشار إلى سيفه ليضرب عنق الأعرابي. قال فحرك الأعرابي شفتيه. فخر

السيف ناحيةً، والسياف ناحية. وولى الأعرابي ذاهباً. فقال الحجاج: بحق معبودك ألا أخبرتني بأي دعاء دعوت ؟ فقال الأعرابي: بدعاء ان علمتك إياه غفر الله لك ما عليك من حسابهم من شيء. وما من حسابك عليهم من شيء. ثم قال الأعرابي يا حجاج ! قلت : اللهم ! يا رب الأرباب. ويا معتك الرقاب. ويا هازم الأحزاب. ويا منشئ السحاب. ويا منزل الكتاب. ويا رازق من تشاء بغير حساب. يا ملك، ويا تواب. يا راد موسى إلى أمه. ويوسف إلى أبيه. أسألك أن ترزقني وتكفيني شره إنك على كل شيء قدير⁽¹⁾.

انتحل الشر بحذافيره

وسأل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف عن خلقه فتلكأ وأبى أن يخبره فأقسم عليه أن لا بد فقال حسود كنود لجوج حقود فقال عبد الملك ما في إبليس شر من هذه الخصال فبلغ ذلك خالد بن صفوان فقال لقد انتحل الشر بحذافيره ومرق من جميع خلال الخير بأسره وتأنق في ذم نفسه وتجرد في الدلالة على لؤم طبعه وأفرط في إقامة الحجة على كفره وخرج من خلال الموجبة لرضا ربه وقال أبو تمام
مسا ولو قسمن على الغواني ... لما أمهرن إلا بالطلاق⁽²⁾

إنك جديرٌ بالبُكاءِ ، حقيقٌ بطُول الحُزنِ ما أقمت في الدنيا

ودخل سَوَّارُ بن عبد الله علي المنصور - والمصحفُ من حجره ، وعيناهُ تهملان - فقال السلام عليكم . يا أمير المؤمنين فقال يا سَوَّارُ ، ألا مرةً على المؤمنين ؟ ؟ هدمت ديني ، وذهبت بآخرتي ، وأفسدت ما كان من صالح عملي . قال سَوَّارُ : فانتهزتها فُرصةً ، وطلبتُ ثواب الله في عظته فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنك جديرٌ بالبُكاءِ ، حقيقٌ بطُول الحُزنِ ما أقمت في الدنيا . وقد استرعاك الله أمر المسلمين ، واستحفظك أموالهم ، يسألك عما عملت فيما استرعاك في اليوم الذي أعلمت في كتابه ، فقال ' يومئذ يصدُرُ الناسُ أشتاتاً لُيروا أعمالهم . فمن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ومن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شراً يَرَهُ ' . فازداد بُكاءً ، وقال : ' يا ليتني متُّ قبلَ هذا وكُنْتُ نَسِياً مَنْسياً ' . ثم قال يا سَوَّارُ إني أعالج نفسي ، وأُعَاتِبُها منذ وليتُ أمور المسلمين على حمل الدِّرة على عُنقي ، والمشى في الأسواق على قدمي ، وأن أسدَّ بالجريش من الطعام جوعتي ، وأوارى بأخشن الثياب عورتي ، وأضع قدر من أَراد

¹ (ابن حبيب، عقلاء المجانين، ص 61-62

² (الوطواط ، غرر الخصائص الواضحة، 26/1

الدُّنيا ، وأرفع قدر من أراد الآخرة ، وسعى لها ، فلم تُطعني ، وعصتني ،
ونفرت نفوراً شديداً .⁽¹⁾

هذا زمانك

عن عوانة بن الحَك، قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، الرحيل، إذ مر بهم رجاء بن حيوة. وكان من خطباء أهل الشام فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:
يا أيها الرجل المرخي عمامته ... هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا
قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً، ثم مر بهم عدي بن أرطاة، فقال له
جرير:

يا أيها الراكب المزجي مطيته ... هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لآقيه ... أني لدى الباب كالمصفود في قرن
لا تنس حاجتنا لقيت مغفرة ... قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني
قال: فدخل عدي على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين! الشعراء ببابك وسهامهم
مسمومة وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدي! مالي وللشعر، قال: أعز الله
أمير المؤمنين، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح فأعطى، ولك في
رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فقال: كيف؟ قال: امتدحه
العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: أو تروي من
قوله شيئاً؟ قال: نعم، وأنشد:

رأيتك يا خير البرية كلها ... نشرت كتابا جاء بالحق معلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا ... عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان أمراً مدنساً ... وأطفأت بالبرهان ناراً تضرما
فمن مبلغ عني النبي محمداً ... وكل امرئ يجزى بما كان قدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه ... وكان قديماً ركنه قد تهدما
تعالى علواً فوق عرش إلها ... وكان مكان الله أعلى وأعظما
قال ويحك يا عدي! من بالباب منهم؟ قال: عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة،
قال: أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتها فهبت كعاباً ... طفلة ما تبين رجع الكلام
ساعة ثم إنها بعد قالت ... ويلتا قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعدٍ جئت تسري ... تتخطى إلي روس النيام
ما تجشمت ما يزين من الأم ... ر ولا جئت طارقاً لخصام

⁽¹⁾ أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نشر الدر ، 5/ 99 ، 104

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم نفسه، لا يدخل علي والله أبداً، فمن بالبواب سواه؟
قال: همام بن غالب، يعني الفرزدق، قال: أوليس هو الذي يقول:
هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انقض باز أقتم الريش كاسرهُ
فلما استتوت رجلاي بالأرض قالتا ... أحي يرجي أم قتيل نحاذره
لا يبطأ والله بساطي، فمن سواه بالبواب منهم؟ قال: الأخطل، قال: أدي! هو
الذي يقول:

ولست بصائم رمضان طوعاً ... ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عنساً بكور ... إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير يدعو ... قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً ... وأسجد عند منبلج الصباح
والله لا يدخل علي وهو وكافر أبداً، فهل بالبواب سوى من ذكرت؟ قال: نعم
الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:
الله بيني وبين سيدها ... يفر مني بها وأتبعه
غرب عنه، فما هو بدون من ذكرت، فمن هاهنا أيضاً؟ قال: جميل بن معمر
قال: يا عدي هو الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن تمت ... يوافق في موتي ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب ... إذا قيل قد سوي عليها صفيحها
فلو كان عدو الله تمنى لقائها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحاً، والله لا يدخل
علي أبداً، هل سوى من ذكرت أحد؟ قال: جرير بن عطية، قال: أما إنه الذي
يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارجعي بسلام
فإن كان لا بد فهو، قال فأذن لجرير، فدخل وهو يقول:
إن الذي بعث النبي محمداً ... جعل الخلافة في الإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووفاءه ... حتى ارعوى وأقام ميل المائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً ... والنفس مولعة بحب العاجل
فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جرير، اتق الله ولا تقولن إلا حقاً، فأنشأ
جرير يقول:

أذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم قد كفاني ما بلغت من خبري
كم باليمامة من شعناء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعدك تكفي فقد والده ... كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطير
يدعوك دعة ملهوف كأن به ... خبلاً من الجن أو مساً من النشر

خليفة الله ماذا تأمرون بنا ... لسنا إليكم ولا في دار منتظر
ما زلت بعدك في هم يؤرقني ... قد طال في الحي إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود باديها ... ولا يعود لنا بادٍ على حضر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً ... كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا ... بورك يا عمر الخيرات من عمر
فقال: يا جرير! ما أرى لك هاهنا حقاً، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، أنا ابن
سبيل ومنقطع بي، فأعطاه من صلب ماله مائة درهم، وقد ذكر أنه قال له:
ويحك يا جرير! لقد ولينا هذا الأمر وما نملك إلا ثلثمائة درهم، فمائة أخذها
عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية، قال: فأخذها
وقال: والله لهي أحب مما اكتسبته إلي، قال: ثم خرج فقال له الشعراء: ما
وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء،
ويمنع الشعراء، وإني لراض، وأنشأ يقول:
رأيت رقي الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطاني من الجن راقيا⁽¹⁾

إنك قد ابتليت بهذا وابتلي بك

عن رجاء بن حيوة ، قال : كنت واقفا على باب سليمان إذ أتاني آت لم أراه قبل
ولا بعد ، فقال : يا رجاء ، إنك قد ابتليت بهذا وابتلي بك ، وفي قربه الوتغ⁽²⁾
فعليك بالمعروف وعون الضعيف ، يا رجاء ، من كانت له منزلة من سلطان ،
فرفع حاجة ضعيف لا يستطيع رفعها ، لقي الله وقد شد قدميه للحساب بين يديه
. واعلم يا رجاء أنه من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله في حاجته واعلم يا
رجاء أن من أحب الأعمال إلى الله فرحاً أدخلته على مسلم ثم فقده فكان يرى أنه
الخضر عليه السلام .

فإننا نكره أن نسمع الخير إلا من أهله

وروى ضمرة ، عن إبراهيم بن أبي عبلة ، قال : كنا نجلس إلى عطاء
الخراساني ، فكان يدعو بعد الصبح بدعوات ، فغاب فتكلم رجل من المؤذنين ،
فأنكر رجاء بن حيوة صوته ، فقال : من هذا ؟ قال : أنا يا أبا المقدام . قال :
اسكت ؛ فإننا نكره أن نسمع الخير إلا من أهله .

احذروا صاحب الكساء

¹ (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 1 / 24 - 25

² () الوتغ: الهلاك.

قال صفوان بن صالح : حدثنا عبد الله بن كثير الدمشقي القارئ ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، قال : كنا مع رجاء بن حيوة ، فتذاكرنا شكر النعم ، فقال : ما أحد يقوم بشكر نعمة ، وخلفنا رجل على رأسه كساء ، فقال : ولا أمير المؤمنين ؟ فقلنا : وما ذكر أمير المؤمنين هنا ! وإنما هو رجل من الناس . قال : فغفلنا عنه ، فالتفت رجاء فلم يره ، فقال : أتيتم من صاحب الكساء ، فإن دعيتم فاستحلفتم فاحلفوا . قال : فما شعرنا إلا بالخليفة ومعه الحرس قد أقبل ووقف علي رجاء ومن معه فقال : هيه يا رجاء ، يذكر أمير المؤمنين ، فلا تحتج له ؟ ! قال : فقلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرتكم شكر النعم ، فقلتم : ما أحد يقوم بشكر نعمة ، قيل لكم : ولا أمير المؤمنين ، فقلت : أمير المؤمنين رجل من الناس ! فقلت : لم يكن ذلك . قال : الله ؟ قلت : الله . قال : فأمر بذلك الرجل الساعي ، فضرب سبعين سوطا ، فخرجت وهو متلوث بدمه فقال : هذا وأنت رجاء بن حيوة . قلت : سبعين سوطا في ظهرك خير من دم مؤمن . قال ابن جابر : فكان رجاء بن حيوة بعد ذلك إذا جلس في مجلس يقول ويتلفت : احذروا صاحب الكساء .

إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا

عن رجاء بن أبي سلمة قال قدم يزيد بن عبد الملك بيت المقدس فسأل رجاء بن حيوة أن يصحبه فأبى واستغفاه فقال له عقبة بن وساج إن الله ينفع بمكانك فقال إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا فقال له عقبة إن هؤلاء القوم قل ما باعدهم رجل بعد مقاربة إلا ركبه قال إني أرجو أن يكفيهم الذي أدعهم له .

لأنني نظرت للعامة ولم أنظر له

عَنْ الْمُعَلَّى بْنِ رُوْبَةَ؛ قَالَ: قَالَ لِي رَجَاءُ بْنُ حَيوَةَ: وَلِيَ الْأَمِيرُ الْيَوْمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوْهَبِ الْقَضَاءِ، وَلَوْ اخْتَرْتُ بَيْنَ أَنْ أَحْمَلَ إِلَى حَفْرَتِي وَبَيْنَ مَا وَلِيَ ابْنُ مُوْهَبٍ لاخترت أن أحمل إلى حفرتي؛ فقلت له: فَإِنَّ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّكَ أَنْتَ أَشْرْتُ بِهِ؛ قَالَ: صَدَقُوا لِأَنِّي نَظَرْتُ لِلْعَامَةِ وَلَمْ أَنْظُرْ لَهُ.(1)

استخلاف عمر بن عبد العزيز

عن عبد الرحمن بن حسان الكناني قال: لما مرض سليمان بدابق قال لرجاء بن حيوة: من لهذا الأمر بعدي، أستخلف ابني قال: ابنك غائب، قال: فابني الآخر، قال: صغير، قال: فمن ترى قال: أرى أن تستخلف عمر بن عبد

(1) أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلْفِ بْنِ حَيَّانَ بْنِ صَدَقَةَ الضَّبِّي البَغْدَادِيّ، أَخْبَارُ الْقَضَاءِ ، حَقَّقَهُ وَصَحَّحَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ: عبد العزيز مصطفى المراغي ، نشر المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى عام 1366هـ=1947م ، 1 / 24

العزیز، قال: أتخوف إخوتي لا يرضون، قال: فول عمر، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتاباً وتختم عليه وتدعوهم إلى بيعته مختوماً، قال: لقد رأيت انتني بقرطاس، فدعا بقرطاس، فكتب فيه العهد، ودفعه إلى رجاء، وقال: اخرج إلى الناس فلبائعوا على ما فيه مختوماً، فخرج، فقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبائعوا لمن في هذا الكتاب، قالوا: ومن فيه قال: هو مختوم لا تخبرون بمن فيه حتى يموت. قالوا: لا نباع. فرجع إليه فأخبره، فقال: انطلق إلى صاحب الشرطة والحرس، فاجمع الناس ومرهم بالبيعة، فمن أبى فاضرب عنقه، قال: فبائعوه على ما فيه. قال رجاء بن حيوة: فبينما أنا راجع إذ سمعت جلبة موكب، فإذا هشام، فقال لي: يا رجاء قد علمت موقعك منا، وإن أمير المؤمنين صنع شيئاً ما أدري ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عني، فإن يكن قد عدلها عني فأعلمني ما دام في الأمر نفس حتى ينظر، فقلت: سبحان الله، يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه، لا يكون ذا أبدأ، قال: فأدارني ولاحاني، فأبيت عليه، فانصرف، فبينما أنا أسير إذ سمعت جلبة خلفي، فإذا عمر بن عبد العزيز وقال لي: يا رجاء إنه قد وقع في نفسي أمر كبير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون قد جعلها إلي ولست أقوم بهذا الشأن، فأعلمني ما دام في الأمر نفس لعلني أتخلص منه ما دام حياً، قلت: سبحان الله يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه، قال: وثقل سليمان، فلما مات أجلسه مجلسه وأسندته وهيأته وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين قلت: أصبح ساكناً، وقد أحب أن تسلموا عليه وتبائعوا بين يديه على ما في الكتاب، فدخلوا وأنا قائم عنده، فلما دنوا قلت: إنه يأمركم بالوقوف، ثم أخذت الكتاب من عنده وتقدمت إليهم وقلت: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبائعوا على ما في هذا الكتاب، فبائعوا وبسطوا أيديهم. فلما بايعتهم وفرغت قلت: أجركم الله في أمير المؤمنين، قالوا: فمن ففتحت الكتاب فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيرت وجوه بني عبد الملك، فلما سمعوا: وبعده يزيد بن عبد الملك كأنهم تراجعوا فقالوا: أين عمر، فطلبوه فإذا هو في المسجد، فأتوه فسلموا عليه بالخلافة، فعقر به فلم يستطع النهوض حتى أخذوا بضبعيه، فدنوا به إلى المنبر وأصعدوه، فجلس طويلاً لا يتكلم، فقال رجاء: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين فتبائعونه، فنهض القوم إليه فبائعوه رجلٌ رجلٌ ومد يده إليهم، قال فصعد إليه هشام بن عبد الملك، فلما مد يده إليه قال: يقول هشام إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار يلي هذا الأمر أنا وأنت. ثم قام: فحمد الله

وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إني لست بفارض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال. ثم نزل فأتاه صاحب المراكب فقال: ما هذا قال: مركب الخليفة. قال: لا حاجة لي فيه، انتوني بدابتي، فأتوه بدابته فانطلق إلى منزله، ثم دعا بدواة فكتب بيده إلى عمال الأمصار. قال رجاء: كنت أظن أنه سيضعف، فلما رأيت صنعه في الكتاب علمت أنه سيقوى. وقال عمرو بن مهاجر: صلى عمر بن عبد العزيز المغرب، ثم صلى على جنازة سليمان بن عبد الملك. (1)

الأطبلين بها شرف الآخرة

وقال سعيد بن صفوان كان بين عبد الملك بن أرطاة ورجاء بن حيوة الكندي وبين عمر بن عبد العزيز صداقة وصحبة في نسكهم وعبادتهم وكان رجاء بن حيوة من أهل الأردن وكان من أعبد أهل زمانه وكان مرضيا حكيما ذا أناة ووقار وكانت الخلفاء تعرفه بفضلته فيتخذونه وزيرا ومستشارا وقيما على عمالهم وأولادهم وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان بن عبد الملك ما ليس لأحد يثق به ويستريح إليه قال وولى سليمان عمر على المدينة وكانت لعمر بن عبد العزيز عند سليمان منزلة وناحية وخاصة دون بني مروان فأراد سليمان أن يعلم علم عمر وحاله التي هو عليها فبعث إليه رجاء بن حيوة ليأتي بخبره وطريقته وحاله في سيرته وطعمته للذي كان يحدث به بنفسه فقدم رجاء بن حيوة على عمر بن عبد العزيز فلم يأل عن الإطافه وإكرامه وتقريبه وأقام عنده أياما فكان كلما أصبح دخل على عمر بعد صلاة الصبح فيتحدثان لا يدخل عليهما أحد حتى يخرج رجاء من عنده قال فبينما رجاء ذات يوم عنده وقد رأي رؤيا فأصبح وقد حفظها قال فجعل يحدث نفسه وعمر يحدثه فأنكره عمر فقال يا أبا المقدام إني لأنكر بعض حالك اليوم فما شأنك قال إن الذي ترى وإنكارك إياي لرؤيا رأيته الليلة فأنا أعجب وأحدث بها نفسي فقال عمر اقصصها رحمك الله فقال نعم وإن لك فيها نصيبا رأيته الليلة كأن أبواب السماء فتحت فبينما أنا أرمقها إذ أقبل ملكان يهويان معهما سرير لم أر مثله حسنا حتى وضعاه بالمدينة ثم صعدا وأنا أنظر إليهما حتى دخلا أبواب السماء فلبثا مليا ثم أقبلا ومعهما ثياب بيض لم أر مثلها وشممت عبق مسك لم أشم مثله قط فمهداها على ذلك السرير فدنوت منهما فقلت ما هذه الثياب قالوا هذا السندس والإستبرق الذي ذكر في القرآن ثم صعدا فلبثا مليا ثم أقبلا معهما برجل أدعج العينين ذي وفرة شديد

سواد الشعر بعيد ما بين المنكبين مربع الجسم عليه هيبة ووقار حتى أقعده على ذلك السرير من فوق تلك الفرش فدنوت منها فقلت من هذا الرجل فقالوا هذا محمد ﷺ قال فهبته هيبة شديدة وتأخرت ناكصا على عقبي حتى كنت منه بمكان منظر ومسمع فبينما أنا كذلك إذ أتى برجل قد نهزه القتير ضرب الجسم حسن اللحم مشدودة يداه على عنقه حتى وقف بين يديه فأقبل رسول الله ﷺ يثني عليه فيما كان من فعالة في الإسلام ويقول أنت صاحبي في الغار وأنت أبو بكر الصديق والأمر ههنا إلى غيري ولست أملك لك من الله شيئا فلم يزل قائما بين يديه ثم أمر به فأطلق عنه وأجلس عند رأس السرير على الأرض ثم أتى برجل حسن اللحم نهزه القتير مجموعة يداه إلى عنقه حتى وقف بين يديه فأقبل رسول الله ﷺ يثني عليه بفعالة في الإسلام ويقول أما إنك الفاروق الذي أعز الله عزوجل به الدين وأنت صاحب اليهودي والأمر ههنا إلى غيري ولست أملك لك من الله شيئا فلم يزل قائما بين يديه مليا ثم أطلق عنه وأجلس مع أبي بكر فما زال كذلك يؤتى بخليفة خليفة حتى أفضى الأمر إليك فلما سمع عمر ذلك منه ارتاع فاستوى جالسا ثم قال يا أبا المقدام فماذا صنع بي قال أتى بك مجموعة يداك إلى عنقك ثم وقفت بين يديه طويلا ثم أمر بك فأطلق الغل ثم أجلس مع أبي بكر وعمر بن الخطاب فاشتد عجب عمر بن عبد العزيز لرؤيا رجاء بن حيوة ثم قال يا أبا المقدام والله لولا ما أثق به من صحبتك وورعك وجدك واجتهادك ووفائك وصدقك لأنبأتك أنني لا ألي شيئا من أمر الخلافة أبدا ولكني قد سمعت كلامك ورؤياك وما أخلق بي سوف أبتلى بأمر هذه الأمة فوالله لئن ابتليت بذلك وإنها شرف الدنيا لأطلبن بها شرف الآخرة .

وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان

قال رجاء بن حيوة دخلت على عمر حين احتضر، فقال: يا رجاء إني أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان، وهو يقلب طرفه يميناً ويصعده ويحدره، ثم رفع يديه فقال: اللهم ربي، أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، فإن عفوت فقد مننت، وإن عذبت فما ظلمت، إلا أنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك المصطفى، ورسولك المرتضى، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فعليه السلام والرحمة. ثم قضى رحمه الله. (1)

ما أحبَّ الله من عفوك عنه

طلب عبد الملك بن مروان رجلاً فأعجزه ثم ظفر به، فقال رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين! قد صنع الله ما أحببت من ظفرك به، فاصنع ما أحبَّ الله من عفوك عنه. (1)

مري السبع فليواسين الثامنة

قال رجاء بن حيوة: رأيت امرأة تسأل عن دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فأرشدناها إلى الدار فرأت داراً متهشمة فقالت لخياط هناك: استأذن لي على فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز. فقال: ادخلي وصوتي لها فإنها تأذن لك. فدخلت فلما أبصرت ما هنالك قالت: جئت أرم فقري من بيت الفقراء وإذا رجل يعمل في الطين وهناك امرأة فسألتها عن أمير المؤمنين فقالت: هو ذاك يعمل في الطين. فقالت له: يا أمير المؤمنين، مات زوجي وترك لي ثمانى بنات! فبكى عمر بكاء شديداً ثم قال لها: ما تريدين؟ قالت: تفرض لهن. فقال: نفرض للكبرى ما اسمها؟ قالت: فلانة. فكتبها فقالت: الحمد لله. قال: وما اسم الثانية؟ قالت: فلانة. فكتبها فقالت: الحمد لله حتى لثقب السابعة، فقالت: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين! فطرح القلم من يده وقال لها: لو أنك وليت الحمد أهله لأتممناهن لك مري السبع فليواسين الثامنة. (2)

الخير سريع الذهاب

وسأل عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيوة عن حال رعيته مع العمال فقال رأيت الظالم مقهوراً والمظلوم منصوراً والغني موفوراً والفقير مبروراً فقال الحمد لله الذي وهب لي من العدل ما تطمئن إليه قلوب رعيتي وتعرض له متظلم في بعض الطرق فوقف له وأزال شكايته فقليل له هلا صرت حتى يستقر بك المنزل فقال الخير سريع الذهاب وخشيت أن أفوته بنفسى وإنما هي فرصة قدمت فيها العزم واستصحب الحزم (3)

أفضها يا أمير المؤمنين

وقال سليمان عند موت ابن له لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إي لأجد في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة، فقال عمر كذا ذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر. فنظر إلى رجاء بن حيوة كالمستريح إلى مشورته فقال رجاء: أفضها يا أمير المؤمنين فما بذاك من بأس، فقد دمعت عينا

¹ (ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس ، ص 80

² (الطرطوشي ، سراج الملوك ، 1 / 110

³ (الوطواط ، غرر الخصائص الواضحة ، ص 18

رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم وقال: العين تدمع، والقلب يوجع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. فأرسل سليمان عينه فبكى حتى قضى أرباً ثم أقبل عليهما وقال: لو لم أنزف هذه العبرة لا تصدعت كبدي، ثم لم يبك بعدها.⁽¹⁾

السخي لا تؤدبه التجارب

عن محمد بن إدريس الشافعي أن رجاء بن حيوة عاتب ابن شهاب في الإسراف وكان يدان فقال: لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم أيديهم عنك فتكون قد حملت على أمانيك؛ قال: فوعده أن يقتصد، فمر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل فوقف به رجاء فقال: يا أبا بكر هذا الذي افترقنا عليه؟! فقال له ابن شهاب: إنزل فإن السخي لا تؤدبه التجارب⁽²⁾

فلا تباع السنة

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : كنا مع محمد بن الحسن إذ أقبل الرشيد فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن فإنه لم يقم وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب على محمد بن الحسن فقام ودخل ودخل الناس من أصحاب الخليفة فأمهل الرشيد يسيراً ثم خرج الأذن فقام محمد بن الحسن ودخل وجزع أصحابه فأمهل ثم خرج طيب النفس مسروراً فقال قال لي مالك لم تقم مع الناس قال قلت كرهت أن أخرج عن الطبقة الذين جعلتني فيهم إنك أهلتني للعلم وكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه وإن ابن عمك ﷺ قال من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار وإنما أراد بذلك العلماء فمن قام بحق الخدمة وإعزاز الملك فهو هيبة للعدو ومن قعد فلا تباع السنة التي منكم أخذت وهو دين لكم قال صدقت يا محمد ثم سارني.⁽³⁾

والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي

بعث هارون الرشيد إلى محمد بن الحسن فأحضره مجلسه ثم بعث إلى الحسن بن زياد فأحضره وأحضر رجلاً من الطالبين وأحضر كتاب أمان فدفعه إلى محمد بن الحسن فقرأه وقال ما تقول فيه قال هذا أمان صحيح ورفع صوته وقال يا أمير المؤمنين هذا أمان صحيح ودم هذا الرجل الذي كتب له الكتاب حرام فأمر بالكتاب فأخذ من يده ودفع إلى الحسن بن زياد فأخذه فقرأه وقال بصوت ضعيف هذا أمان فغضب هارون ودخل أبو

¹ (ابن حمدون، التذكرة الحمدونية ، 1 / 488

² (بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب ، 2 / 221

³ (أخبار أبي حنيفة ، 1 / 126.

البخري وهب بن وهب القاضي فمد يده فأخذ الكتاب ولم يؤمر بذلك فقرأه ثم أخرج سكيناً من خفه فقطعه نصفين ثم رمى به وقال هذا كتاب مفسوخ وليس بأمان بل هو أمان فاسد أقتل هذا الرجل ودمه في عنقي فأخذ هارون دواة كانت بين يديه فضرب بها وجه محمد بن الحسن فشجه قال ابن سماعة وكنت حاضراً فخرج وخرجت على إثره وهو يبكي فلما صار إلى منزله قلت يا أبا عبد الله لم تبكي من شجة في سبيل الله فقال والله ما لها بكيت قال قلت فأني تقصير كان منك قال كان يجب علي أن أقول لأبي البخري من أين قلت وأقيم عليه الحجة وأتكلم بالحق وإن قتلت ثم قال وأي حجة لقاض من قضاة المسلمين يكون في خفه سكين مثل هذه قال وقال الطالب يَوْمَئِذٍ لَهَارُونَ يَا هَارُونَ إِنْ تَقُولُ لِفَقِيهِ الْأَرْضِ لَمَّا لَمْ يَرِ فِي أَمَانِكَ سَفْكُ الدَّمَاءِ وَقَالَا لَكَ دَعِ هَذِهِ النَّسْمَةُ تَمُوتُ بِأَجْلِهَا وَتَنْعَمَ عَلَيْهَا وَتَقْبَلَ قَوْلَ رَجُلٍ مَشْهُورٍ أَنَّهُ ادَّعَى نَسَبًا لَمْ يَقْرَأْ أَبُوهُ الَّذِي ادَّعَاهُ بِهِ فَأَخْرَجَ أَبُو الْبَخْرِيِّ يَوْمَئِذٍ مِنْ نَسَبِهِ الَّذِي ادَّعَاهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ سَلْ عَنْهُ مَزْبَلِي أَهْلَ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ يَزْبُلُونَ فِي الْحَمَامَاتِ حَتَّى يَخْبُرُوكَ بِعَلَامَاتٍ فِي ظَهْرِهِ يَصِفُونَهَا لِلنَّاسِ وَمِثْلَ هَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ غَيْرَ هَذَا وَاللَّهُ مَا أَبَالِي وَقَعْتَ عَلَى الْمَوْتِ أَوْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيَّ وَلَا أَمُوتُ إِلَّا بِأَجْلِي . (1)

مواقف الإمام العز بن عبد السلام :

رغم المناصب الهامة التي تولّاها الشيخ في مصر، فقد التزم بقول كلمة الحق، ومجاهرة الحكام بها في مصر، كما التزم بها من قبل في الشام، فهو لم يسع إلى المناصب الرفيعة، وإنما هي التي سعت إليه لجدارته بها، ولم يكن يبالي بها إذا رأى أنها تحول دون الصدع بالحق وإزالة المنكرات، فقد تيقن من وجود حانة تباع الخمر في القاهرة، فخرج إلى السلطان نجم الدين أيوب في يوم عيد إلى القلعة «فشاهد العساكر مصطفىين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته - على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوىء لك ملك مصر ثم تبيع الخمر؟ فقال السلطان: هل جرى هذا؟ فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمر، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة! يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون - قال: يا سيدي، هذا أنا ما عملته،

هذا من زمن أبي. فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة»(1).

وعندما سأله أحد تلاميذه لما جاء من عند السلطان - وقد شاع هذا الخبر-: " يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بني، رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لنلا تكبر نفسه فتؤذيه. فقلت: يا سيدي، أما خفته؟ قال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قدامي كالقطة»(2).

ولم يتوقف الشيخ مرة عن مصارعة الباطل والصدع بكلمة الحق، مهما كلفه ذلك من المتاعب والتبعات، فقد ذكر أن جماعة من أمراء المماليك -في عهد السلطان أيوب- لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم فيه، واحتدم الأمر، والشيخ مصمم على أنه لا يصح لهم بيعاً ولا شراءً ولا نكاحاً، وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضباً، فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: نعقد لكم مجلساً، وينادي عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي.

فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فلم يرجع عن قراره، فجرت من السلطان كلمة، فيها غلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حمير آخر، ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة، قاصداً نحو الشام، فلم يصل إلى نحو نصف بريد (سنة أميال) إلا وقد لحقه غالب المسلمين، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحائهم.

فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكك! فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه، فرجع واتقفوا معه أن ينادي على الأمراء؛ لبيعهم.

ثم حاول نائب السلطنة أن يلاطفه، فلم يفد معه، فانزعج النائب وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا. فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال، فما اكرث لذلك، ولا تغير، وقال: يا ولدي! أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله! ثم خرج كأنه قضاء الله، قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره

¹ (طبقات الشافعية الكبرى، 212/8)

² (المرجع السابق 212/8)

على النائب، يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله فبكى، وأخذ يسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي خير، إيش (أي شيء) تعمل؟ قال الشيخ: أنا دي عليكم وأبيعكم. قال: فقيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين. قال: من يقبضه؟ قال: أنا. فتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، وقبضه وصرفه في وجوه الخير» (1).

وحدث ذات مرة أن بعض غلمان وزير الصالح، وهو معين الدين ابن الشيخ، بنى بنياناً على سطح مسجد بمصر وجعل فيه طبلخاناه معين الدين، فأنكر عز الدين ذلك ومضى بجماعته وهدم البنيان، وعلم أن السلطان والوزير يغضبان، فاشهد عليه بإسقاط عدالة الوزير، وعزل نفسه عن القضاء، فعظم ذلك على السلطان، وقيل له: اعزله عن الخطابة وإلا شنع عليك على المنبر كما فعل في دمشق، فعزله. وأرسل إليه السلطان لما مرض وقال: عين مناصبك لمن تريد من أولادك؟ فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ففوضت إليه بعده.

وكانت لسلطان العلماء (العز بن عبد السلام) مواقف إيمانية في ميدان الجهاد ضد التتار أعداء الإسلام والمسلمين، وكان له دور فعال في هذا الأمر، ولم يرّض أن تتحمل جماهير الشعب وحدها نفقات الجهاد، وهو يعلم أن السلطان ورجاله لديهم أموال كثيرة فقال: إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن يؤخذ كل ما لدى السلطان والأمراء من أموال وذهب وجواهر وحلي، ويبقى لكل الجند سلاحه، وما يركبه ليحارب عليه ويتساووا هم والعامّة، وأما أخذ أموال الناس مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال، فلا.

وقد اشترك الشيخ (عز الدين) بنفسه في الجهاد المسلح ضد العدو، وكان دائماً يحرض السلطان (قطن) على حرب التتار حتى كتب الله له النصر في (عين جالوت) عام 658هـ (1260م).

وهكذا تمضي حياة العز بن عبد السلام في كفاح متواصل، وتواضع جم، ونفس أبية مترفعة عن حطام الدنيا، فنال ثوابي الدنيا والآخرة... ويختاره الله إلى جواره، وتمر جنازته تحت القلعة بالقاهرة، وشاهد الملك الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها، فقال لبعض خواصه: " اليوم استقر

أمري في الملك، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزع الملك مني" (1).
رحم الله سلطان العلماء، وراذع السلاطين، ونسأله تعالى أن يرزقنا من أمثاله.

مواقف الإمام ابن تيمية

شجاعته في الحق :

اتصف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بقوة القلب ، ورباطة الجأش في كل موقف يمر به مع قوة إيمان ، وحجة دامغة ، مما نتج عنه شجاعة متناهية في سبيل عقيدة الإسلام ، ومحاربة أعداء دين الله ، وأهل البدع؛ بالبدن واللسان ، وقوة الحجة .

وقد تحدث تلميذه البزار المتوفى عام 749هـ عن مظاهر عديدة من شجاعته في كتابه الذي خصه به ، وسماه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) ، ومما قاله: (كان رضي الله عنه ، من أشجع الناس وأقواهم قلباً ، ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه ، ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه ، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ، ولا يخاف في الله لومة لائم . وأخبر غير واحد: أن الشيخ - رحمه الله - كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم ، وقطب ثباتهم ، إن رأى من بعضهم هلعاً أو رقة أو جبانة ، شجعه وثبته وبشره ، ووعدته بالنصر والظفر والغنيمة ، وبين له فضل الجهاد والمجاهدين ، وإنزال الله عليهم السكينة ، وكان إذا ركب الخيل يتحنك (2) ، ويجول في العدو كأعظم الشجعان ، ويقوم كأثبت الفرسان ، ويكبر تكبيرا أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم ، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت . وأخبرني من لا أتهمه: أن الشيخ - رحمه الله - حين وشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد ، أحضره بين يديه ، قال: فكان من جملة كلامه: إنني أخبرتك أنك قد أطاعك الناس ، وأن في نفسك أخذ الملك ، فلم يكثرث به ، بل قال

¹ (المرجع السابق ، 215/8 ، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 186/1 ، السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، 101/1 ، النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، 118/ 8 ، علي سالم النباهين ، مجلة الأمة القطرية ، العدد 25 ، المحرم 1403 هـ)

² (التحنك هو: وضع العمامة تحت الذقن ولف طرفيها على الرأس .)

له بنفس مطمئنة ، وقلب ثابت ، وصوت عال سمعه كثير ممن حضر: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين ، فتبسم السلطان لذلك ، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنك والله لصادق ، وإن الذي وشى بك إلي كاذب . واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل؛ من كثرة ما يلقي إليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان ، ممن ظاهر حاله للطغام: العدالة ، وباطنه: مشحون بالفسق والجهالة (1) ومن قوته في الحق ، وصدعه بالدعوة هدى الله قادة المغول للإسلام؛ لأن صدقه مع الله منحه الشجاعة والجر بالحق ، وجعل الله له بذلك القبول في القلوب .

وفي الدفاع عن دمشق ، وفتح عكا ، ومعركة شقحب وغيرها من المعارك ، كان المثل النادر بالشجاعة والقوة ، وإذا تفقد من معه فوجدهم ملتزمين بشرع الله ، وحريصين على دينهم ، كان يقول لهم:

سننتصر على الأعداء ، فيقول له بعضهم: قل: إن شاء الله ، فيقول: إن شاء الله تحقيقا لا تعليقاً؛ لأن الله أمرنا بطاعته والاستعداد ، فطعناه فيما أمر ، واستعدينا لملاقاة العدو .

وفي حوار مع السلطان غازان - أحد ملوك التتار - لما ظهر على دمشق ، ما يدل على قوة بأسه ، وعدم خوفه من سطوته ، وكان مما قاله حسبما ذكر الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام 1033 هـ في كتابة: (الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية) ، قال الشيخ ابن تيمية للترجمان: (قل للسلطان أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - فغزوتنا ، وأبوك وجدك هولاء كانوا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت . والسلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل: من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله ، ولا أثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقيادا لأحد منه . . . ثم خرج من بين يدي السلطان مكرماً معزراً بحسن نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين ، فبلغه الله ما أراده ، وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم) (2) .

وقد ذكر عبد السلام حافظ عنه مواقف كثيرة في شجاعة القتال الميداني ، والتصدي للتتار ، وفي قوة العزم ، ومحاربة كل دخيل على منهج الإسلام

¹ (انظر (الأعلام العلية) الفصل الحادي عشر، ص 63-66، والفصل الثاني عشر ص 67, 68.

² (الكوكب الدرية، ص 93, 94.

السليم: من عقائد ومفاسد ، وضلال وغواية ، إلى درء للمحرمات ، ومقاومة مصادرها ، ومن ذلك:

في يوم 17 رجب عام 699هـ نفذ الإمام عزمه على القضاء على آلات الشرب المحرم ، فخرج بنفسه مع بعض رفاقه ، يدورون على الحانات ومحال الخمور ، يريقونها ، ويكسرون آنياتها ، بل ويعزرون أصحابها (1) .

وفي شهر رجب سنة 704هـ قصد الإمام مسجد التاريخ ، يرافقه نفر من أصحابه ومن الحجارين ، حيث أمرهم بإزالة صخرة كانت تزار ، وتندر لها النذور بنهر (فلوط) ، وعنها قال ابن كثير : (فقطعها - يعني ابن تيمية - وأراح الله المسلمين منها ومن الشرك) .

وفي أوائل شهر محرم سنة 705هـ نراه يشارك أيضا في الحملة ضد فئات منحرفة تنكرت لبعض تعاليم الإسلام ، ببلاد الجرد ، والرفض ، والتيامنة ، وقد لحق به نائب السلطنة جمال الدين الأقرم في جنده المسلمين ، فحاربوهم حتى أعلنوا الطاعة وأنابوا إلى الهدى (2) .

وهكذا لو تتبعنا مواقفه الجريئة ، وحماسته للذود عن حياض الإسلام ، لوجدناها بكثرتها تنبئ عن مواقف مشرفة في الدفاع عن حمى الإسلام من أن يتناول عليه أحد ، ويبرز منها ردود وافية على أصحاب المعتقدات المتطرفة ، وأتباع المذاهب المخالفة لحقيقة الإسلام ، وما تنطوي عليه شريعة هذا الدين ، مما جعل له خصوما كثيرين ، سواء من العامة أو من العلماء والفقهاء على اختلافهم ، حيث كان ينقض ادعاءاتهم المريبة ، ويعري مخالفتهم لأصول الدين ، ويرد بآراء قوية ، لم يجرؤ مثله بالتصريح بها . وقد صدق الإمام مالك - رحمه الله - في قوله: (ما منا إلا راد ومردود عليه) .

ما تعرض له من بلاء :

لا شك أن هذه الشجاعة والجرأة في الحق ، مع الحرص على التصدي لأمر كثيرة تفتشت في البيئة الإسلامية ، نتيجة الجهل والبعد عن المنهج السليم ، الذي جاء به رسول الله ﷺ من ربه ، وتلقفه عنه أصحابه لينشروه في الآفاق ، وعندهم أخذ السلف الصالح جيلا بعد جيل ، هذا في بعض الجوانب المتعلقة بما أدخل على الدين نتيجة التقليد ، والاستسلام لرغبات النفس ، والانقياد للعلماء الذين يفتون بغير ما أنزل الله ، حيث كان يخشاهم رسول الله ﷺ على أمته ، هذه

¹ (انظر كتابه: ابن تيمية ص 27.

² (الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ، ص 27.

الشجاعة والجرأة في الحق ما هي إلا هبة من الله لابن تيمية تبوأها بالصدق مع الله والنية المخلصة .

ولهذا فهو ينتصر على خصومه ، ويظهره الله على كيد أعدائه ، ثم يقابل أعمالهم بالصبر وقوة الاحتمال ، فإذا قدر عفا وصفح ، وقد حاول أعداؤه مرارا النيل منه ، بل القضاء على حياته ، ولكن حينما تمكن منهم عفا عنهم وقال: أما أنا فهم في حل من حقي ، ومن جهتي ، وكان القاضي زين الدين ابن مخلوف - قاضي المالكية - يقول بعد ذلك: (ما رأينا أتقى من ابن تيمية ، إذ لم نبق ممكنا في السعي فيه ، ولما قدر علينا عفا عنا) (1) .

ولقد حبس عدة مرات بسبب مكائد الخصوم ، ووشى به إلى السلاطين لعله يقتل ، لكن الله سبحانه ينجيهِ؛ لأن من حفظ الله حفظه ، ومن كان مؤمنا حقا استحق دفاع الله عنه .

ودعي للمناظرات والخصومات عن ردوده على أصحاب الفرق والبدع ، يقول تلميذه البزاز : (ولقد سجن أزمانا وأعصارا وسنين وشهورا ، ولم يولهم -أي: المسيئين إليه والمخاصمين له- دبره فرارا ، ولقد قصد أعداؤه الفتك به مرارا ، وأوسعوا حيلهم عليه إعلانا وإسرارا ، فجعل الله يحفظه منهم شعارا ودثارا ، ولقد ظنوا أن في حبسه مشينة ، فجعله الله له فضيلة وزينة ، وظهر له يوم موته ما لو رآه واده في حياته أقر به عينيه (2) ، فإن الله تعالى؛ لعلمه بقرب أجله ، ألبسه في الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حلله ، كونه حبس على غير جريرة ولا جريمة ، بل على قوة في الحق وعزيمة ، هذا مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق ، وبهر بفنونه البصائر والأحداق ، وملا بمحاسن مؤلفاته الصحف والأوراق ، كتبنا ورغما للأعداء ، أهل البدع المضلة والأهواء (3) .

وهذا الكلام المجمل من تلميذ عاصر أستاذه ، وعرف ما حصل له ، وكأنه يريد بذلك ما حصل له من منع عن الفتوى ، ومن سجن في القاهرة ، ثم سجن في الإسكندرية ، ثم سجن في دمشق حتى توفي وهو في هذا السجن الأخير . إذ أن من يختلف معه رحمه الله في أي أمر يطرحه ، يلجأ إلى حيلة العاجز بالإيقاع به

¹ (السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية، للدكتور عبد الرحمن الفيواني، ص 17.

² (يذكر هذا الموقف بقول الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - لما قيل له عن كثرة خصومه والمخالفين له قال: موعدهم يوم الجنائز.

³ (الأعلام العلية، ص 68.

، والخوض في عرضه ، والافتراء عليه ، حتى توغر الصدور عليه ، وتأمر السلطة بسجنه .

1 - ففي عام 718 هـ كان من ضمن ما تحدث فيه فتواه في الحلف بالطلاق ، واعتبره معاصروه أمرا خطيرا؛ إذ أن هذه المسألة الفقهية لم تثر إلا في زمنه ، إذ أنه أفتى بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة رجعية ، وبعدم وقوع الطلاق بالحلف به إذا حنث ، وأن على الحالف أداء كفارة اليمين فقط ، إذا كان لا يقصد إيقاع الطلاق ، وإنما هدفه اليمين ، فثار عليه القوم آنذاك ، وأقيمت عليه الدعاوى حتى اضطر الحاكم إلى إصدار أمر بمنع الشيخ ابن تيمية من الفتوى بعدم وقوع الطلاق ، وإلى المناداة بهذا في الأسواق العامة؛ ليعرفه الناس ، ويحذروا من الوقوع في شره - كما اعتقدوا - ولكنه رحمه الله؛ لقوة إرادته وإيمانه كان يقول: (لا يسعني كتمان العلم) ، فصار يجاهر برأيه ، ويجيب على من يستفتيه ، مما سبب له السجن في دمشق قرابة نصف عام (1) فهو يخشى أن يلجم بلجام من نار ، كما جاء الوعيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن سئل عن علم فكتمه .

2 - وبعد خروجه من السجن أثار عليه خصومه مسألة أخرى في موضوع: (شد الرحال) ، مع أن الرأي الذي يقول به هو قول الإمام مالك ، أن السفر إلى أضرحة الأولياء غير مشروع ، بل وفيه معصية ، أخذاً من الحديث الشريف المتفق على صحته : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » (2) ، يعني: المسجد النبوي ، وقد ضمن آراءه في هذا كتابه: (الجواب الباهر في زوار المقابر) ، وفي كتابه الآخر: الرد على الأحنائي ، وهو: (استحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية) ، مستدلاً بما جاء عن الله وعن رسوله ، وبما أفتى به صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعدهم من سلف الأمة ، فما زال خصومه بالسلطان حتى سجنه في عام 726 هـ في قلعة دمشق ، ومعه شقيقه زين العابدين عبد الرحمن ، وسجن معه فريق من أصحابه العلماء ، وعزروا بعض الوقت ، وفيهم تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية ، الذي بقي في السجن مدة طويلة بينما جرى إطلاق الآخرين (3) .

¹ (كتاب ابن تيمية، لعبد السلام حافظ ص 108.

² (صحيح البخاري الصوم (1893)، سنن ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (1410).

³ (الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ ص 111، 112.

3 - وقد امتحن رحمه الله بمحن أخرى وخاض فيه أقوام ، ونسبوه للبدع والتجسيم ، وهو من ذلك بريء ، بل كان يحارب البدع ويشدد النكير على أهلها ، وكان أول محنة في ذلك له في شهر ربيع الأول سنة 698هـ بسبب عقيدته الحموية الكبرى ، وهي جواب سؤال ورد له من حماة ، فوضعها ما بين الظهر والعصر في ست كراريس ، فجرى له بسبب تأليفها أمور ومحن ، حيث رجح مذهب السلف على مذهب المتكلمين ، وشنع عليهم ، وقد توسع في بيان ما حصل له: الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (1) .

4 - ولما سكنت فتنة الحموية ، وبعدها بمدة طويلة ظهر الشيخ نصر المنبجي بمصر ، واستولى على أرباب الدولة القاهرة ، وشاع أمره وانتشر ، فقبل لابن تيمية : إنه اتحادي ، وأنه ينصر مذهب ابن العربي ، وابن سبعين ، فكتب إليه نحو ثلاثمائة سطر ينكر عليه ، فتكلم نصر المنبجي مع قضاة مصر في أمره ، وقال: (هذا مبتدع وأخاف على الناس من شره) ، فعقد للشيخ ابن تيمية في رجب عام 705هـ مجلس وسئل عن عقيدته ، فقدم لهم: (الواسطية) ، وقال: (هذه كتبها من نحو سبع سنين قبل مجيء التتار إلى الشام) ، ثم دعي لمصر وعقد له مجلس مناظرة ، وعقد له مجلس ثالث بالقصر ، وبعد أن أودى ، أبرئت ساحته (2) .

5 - وتآلب عليه خصومه في مصر ، بعدما وصلها في رمضان عام 705هـ حيث جمع له القضاة وأكابر الدولة بالقلعة ، وادعى عليه عند القاضي ابن مخلوف المالكي خصم بأنه يقول: إن الله فوق العرش حقيقة ، وأن الله يتكلم بحرف وصوت ، وزاد الحافظ الذهبي : وأن الله يشار إليه الإشارة الحسية ، وطلب عقوبته على ذلك . . . وقد حبس على ذلك في الحب ثمانية عشر شهرا ، وقد ذكر الشيخ مرعي تفاصيل ذلك (3) ، وكان مما قاله: (سبب محنته وابتلائه: قيامه في الله ، والرد على أهل البدع والعقائد الفاسدة ، ومبالغته في الرد على الفقراء الصوفية - الأحمدية والرفاعية - بسبب خروجهم عن الشريعة) (4) . ومن يقرأ ما كتبه ابن تيمية يرى أن قوله في الاستواء بمثل ما قال إمام دار الهجرة مالك رحمه الله: (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة) .

¹ (راجع (الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية) ص 102-114.

² (انظر: (الكواكب الدرية) للشيخ مرعي بن يوسف الذي توسع في تفاصيل هذه المحنة ص 112-116.

³ (الكواكب الدرية ص 126-133.

⁴ (الكواكب الدرية ص 126.

6 - وفي شوال عام 707هـ شكا شيخ الصوفية بالقاهرة - كريم الدين الآملي وابن عطاء وجماعة نحو الخمسمائة - من الشيخ تقي الدين ورأيه في ابن عربي وغيره إلى الدولة ، فخيروه بين الإقامة بدمشق أو الإسكندرية بشروط ، أو الحبس ، فاختار الحبس ، وقال: أنا أمضي إلى الحبس ، وأتبع ما تقتضيه المصلحة .

ولما دخل الحبس ، وجد المحابيس مشغلين بأنواع من اللعب ، يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد ، مع تضييع الصلوات ، فأنكر الشيخ ذلك عليهم ، وأمرهم بملازمة الصلاة ، والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة ، والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه ، ورغبهم في أعمال الخير ، وحضهم على ذلك ، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيرا من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس .

وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده ، وكثر المترددون إليه ، حتى كان السجن يمتلئ منهم .

واستقر الشيخ في الحبس يستفتى ، ويقصده الناس ويزورونه ، وتأتيه الفتاوى المشكلة من الأمراء والأعيان . فلما كثر اجتماع الناس به ، وترددهم إليه ساء ذلك أعداءه وحصرت صدورهم ، فسألوا نقله إلى الإسكندرية ، فنقل (1) . إلى غير ذلك من المواقف التي كانت له من أعدائه ، وهو صابر محتسب ، حيث روي له قوله: (ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، فهي معي لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة) (2) ، لأنما يغيضهم يسره ، ولأنه رحمه الله كالغيث أينما حل نفع .

1 (الكواكب الدرية، ص133-135.

2 (الإمام ابن تيمية، ص 113.

مَحَنُهُ وَوَفَاتُهُ

لقد عاش ابن القيم - رحمه الله - في مجتمع كان يسوده كثير من السلبيات والمفاسد الدينية والأخلاقية، وكان ابن القيم - في ظل هذه الأوضاع السيئة - صاحب رسالة سامية، وأهداف نبيلة، ومبادئ إصلاحية يهدف من ورائها: إلى الرجوع بالناس إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة من التمسك بالكتاب والسنة ونبذ البدع والخرافات والتقليد والتعصب.

لكن طريقه هذا الذي سار فيه لم يكن سهلاً ميسوراً، بل كان محفوفاً بالمشاق، فنزلت به بسبب ذلك محن عديدة، وتعرض لإيذاء واضطهاد وفتن أثناء جهاده لنشر دعوته، وسعيه لإصلاح حال مجتمعه.

فلم يكن من السهل على هذا المجتمع الذي سيطرت عليه الأفكار الدخيلة، وسادته البدع المتوارثة، أن يستجيب لهذا المصلح المجاهد الذي بزغ نوره في هذا الظلام الحالك، وكيف يتم له ذلك ولهذه البدع حُرَّاسٌ وحماة من أمراء البلاد وحُكَّامها، بل ومن بعض المُنتسِبين إلى العلم أنفسهم؟! فقد كان الأمر صعباً إذاً، والمواجهة إلى أشدها، وظهر في الساحة أعداء لابن القيم، يتربصون به الدوائر، ويحكيون ضده الدسائس والمؤامرات، كما فعلوا من قبل مع شيخه وأستاذه .

إنكاره شَدَّ الرَّحْلِ إِلَى قَبْرِ الْخَلِيل، ومحنته بسبب ذلك:

من البدع التي سادت المجتمع وقتئذ، وتقرب الناس بها إلى الله: بدعة شَدِّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل إبراهيم عليه السلام.

فقام ابن القيم - رحمه الله - في وجه هذه البدعة منكرًا لها، ومبينًا مخالفتها لسنة رسول الله ﷺ وهديِهِ، فما كان من أعدائه وشائنيه إلا أن قاموا ضده، وآذوه، ثم حُبِس بسبب ذلك.

قال الحافظ الذهبي: "وقد حبس مدة وأوذي لإنكاره شَدَّ الرحل إلى قبر الخليل" (1).

والظاهر أن هذه هي المرة التي حبس فيها مع شيخه ابن تيمية رحمه الله؛ ذلك أنه في السادس عشر من شعبان سنة 726 هـ اعتُقل الشيخ ابن تيمية في قلعة دمشق، وذلك بسبب ما أفتى به من المنع من شد الرحل إلى قبور الأنبياء، وبعد ذلك بأيام "أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي

الدين في سجن الحكم... وعَزَّر جماعة منهم على دواب ونودي عليهم، ثم أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية؛ فإنه حُبِس بالقلعة، وسكتت القضية"2.

ولعل في إطلاقهم كل رفاقه وإبقائه وحده في الحبس، ما يُبيِّن لنا مدى الحِنَق الذي كان في نفوس أعدائه - من أهل البدع - ضده، ويبيِّن لنا في الوقت نفسه، ما كان لابن القَيِّم من دور بارز، وتأثير بالغ في الناس آنذاك، مما جعل هؤلاء يخشونه على بدعهم، فرأوا أن يحجبوه في السجن.

ولكن شاء الله سبحانه أن يشاطر ابن القَيِّم شيخه محنته هذه، فسُجِن معه في القلعة، ولأجل التهمة نفسها، ولكنه كان (منفرداً عنه)(1).

ولقد كان للحاقدين على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القَيِّم دورٌ قبيح في حبسهما، وتدبير الشر ضدهما، ذلك أنهم حرَّفوا فتوى ابن تيمية: بأنه يُحرَّم زيارة قبور الأنبياء مطلقاً، ويعتبر ذلك معصية، مع أن الشيخ - وكذا تلميذه - "لم يمنع الزيارة الخالية عن شد الرحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك... ولا قال إنها معصية... ولا هو جاهل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: « زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة »». والله سبحانه لا يخفى عليه شيء ولا تخفى عليه خافية"(2).

ويحكي المقرئزي - رحمه الله - هذه الواقعة - مبيناً ملابساتها وظروفها - بأوسع من هذا، وأن ابن القَيِّم - رحمه الله - قد ضُرب في هذه المرة قبل أن يُحبس، فيقول: (وفي يوم الاثنين سادس شعبان - يعني سنة 726 هـ - حُبِس تقي الدين أحمد بن تيمية، ومعه أخوه زين الدين عبدالرحمن بقلعة دمشق. وضُرب شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قَيِّم الجوزية، وشُهرَ به على حمار بدمشق).

وسبب ذلك: أن ابن قَيِّم الجوزية تكلم بالقدس في مسألة الشفاعة والتوسل بالأنبياء، وأنكر مجرد القصد للقبور الشريف دون قصد المسجد النبوي، فأنكر المقادسة عليه مسألة الزيارة، وكتبوا فيه إلى قاضي القضاة جلال الدين القزويني وغيره من قضاة دمشق.

وكان قد وقع من ابن تيمية كلام في مسألة الطلاق بالثلاث: (أنه لا يقع بلفظ واحد، فقام عليه فقهاء دمشق، فلما وصلت كتب المقادسة في ابن القَيِّم، كتبوا في ابن تيمية وصاحبه ابن القَيِّم إلى السلطان، فعرف شمس الدين الحريري -

¹ (ذيل طبقات الحنابلة، (448/2).

² (البداية والنهاية، (129/14).

قاضي القضاة الحنفية بديار مصر - بذلك، فشَنَّع على ابن تَيْمِيَّة تشنيعاً فاحشاً، حتى كتب بحبسه، وضُرِب ابن القَيِّم (1).
وقد ظل ابن القَيِّم محبوساً مدة، ولم يُفَرَّج عنه إلا بعد وفاة شيخه بشهر؛ ذلك أن ابن تَيْمِيَّة قد توفي في محبسه بالقلعة في العشرين من ذي القعدة سنة (728هـ)، (وفي يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة أفرج عن الشيخ الإمام العالم العلامة أبي عبدالله شمس الدين بن قَيِّم الجوزية) (2).
وقد امتحن ابن القَيِّم - رحمه الله - غير هذه المرة أيضاً:
فتواه بجواز السباق بغير مُحَلِّل ومحنته بسبب ذلك:
كان ابن القَيِّم - رحمه الله - يُفتي بجواز إجراء السباق بين الخيل بغير مُحَلِّل، وصَنَّف في ذلك كتابه: (بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنضال) أو: (بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل) (3).
وقد أشار ابن حجر - رحمه الله - إلى محنته هذه، فقال: "وجرت له محن مع القضاة، منها: في ربيع الأول - يعني سنة 746هـ - طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير مُحَلِّل، فأنكر عليه وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يُفتي به من ذلك" (4).
وحكى ابن كثير هذه الحادثة، ولكنه ذكر ما يفيد أن ابن القَيِّم كان يفتي في ذلك برأي شيخه، وصَنَّف هذا المصنف لنصرة رأي الشيخ، ثم صار يفتي به دون نسبته إلى شيخه، فظنوه قوله، فحصل له ما حصل، ثم (انفصل الحال على أن أظهر الشيخ شمس الدين... الموافقة للجمهور) (5).
قال الشيخ بكر أبو زيد: "وقضية الرجوع محل نظر، فلا بد من تثبيت ذلك، وأرجو من الله تعالى أن يمنَّ عليَّ بما يدل على ذلك، نفيًا أو إثباتاً" (6).
قلت: أما كتبه التي بين أيدينا، فليس فيها ما يدل على رجوعه، وبخاصة كتاب (الفروسية)، ولكن ابن كثير - رحمه الله - يحكي ما شاهده بنفسه من إظهاره الموافقة للجمهور، فهل أظهر ابن القَيِّم ذلك دفعاً للشر عن نفسه دون أن يرجع حقيقة عن رأيه؟ الله أعلم.

¹ (السلوك، (273/1/2).

² (البداية والنهاية، (145/14).

³ (أنظر مؤلفات ابن القَيِّم

⁴ (الدرر الكامنة: (23/4).

⁵ (البداية والنهاية: (227/14).

⁶ (ابن قَيِّم الجوزية - حياته وآثاره: (ص43).

والذي يهمننا في هذه القضية: أن ابن القَيِّم - رحمه الله - قد امتحن من القضاة بسببها، وأوذي في سبيل ذلك.

فتواه في مسألة الطلاق الثلاث ومحنته بسبب ذلك:

وقد امتحن ابن القَيِّم مرة أخرى بسبب فتواه بأن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يقع طلاقاً واحدة، وهو اختيار شيخه ابن تيمية أيضاً.

ويشير ابن كثير - رحمه الله - إلى ما وقع له بسبب ذلك، فيقول: "وقد كان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وجرت بسببها فُصُولٌ يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره" (1). ولم يبين لنا ابن كثير ما وقع له بسبب ذلك، لكن الظاهر أنه لم يُحْبَس إلا في المرة التي كان فيها مع شيخه ابن تيمية، وذلك بسبب فتوى شد الرحل، وأما مسألة الطلاق، وكذا مسألة المحلل في السباق، فيظهر أنه جرت له بسببهما فتن ومحن مع القضاة فحسب، وأنه لم يُسَجَّن بسبب ذلك، وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد أنه سُجِّن بسبب هذه الفتاوى كلها (2).

ولم أر ما يدل على ذلك، ولعل كلام ابن رجب صريح في أنه لم يُحْبَس إلا في تلك المرة مع الشيخ، فقد قال: "وقد امتُحِن وأوذي مرات، وحُبِس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة في القلعة..." (3).

ومما يؤكد - أيضاً - أن فتواه في مسألة الطلاق قد سببت له مشكلات مع القضاة، ما حكاها الحافظ ابن كثير - رحمه الله - من الصلح الذي تم بين السبكي وابن القَيِّم، فقد ذكر في أحداث سنة 750 هـ - قبل موت ابن القَيِّم بعام واحد - في السادس عشر من شهر جمادى الآخرة منها، أنه (حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وبين الشيخ شمس الدين بن قَيِّم الجوزية، على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب، في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق) (4).

فالمقصود أنه - رحمه الله - ابتلي وأوذي وامتحن بسبب صدعه بالحق، وإعلانه رأيه وما يعتقده دون مجاملة أو خوف من أحد، فرحم الله ابن القَيِّم رحمة واسعة، وجزاه عما قدَّم خير الجزاء.

¹ (البداية والنهاية: (246/14 - 247).

² (ابن قَيِّم الجوزية - حياته وآثاره: (ص42).

³ (ذيل طبقات الحنابلة: (2/448).

⁴ (البداية والنهاية: (244/14).

لم يدع أحد منهم على نفسه إلا استجاب الله له

كان محمد بن عبد الملك الزيات من العصبه التي كان لها يد في سجن علماء الأمة وتعذيبهم وعلى رأسهم إمام أهل السنه الإمام أحمد بن حنبل . روى الطبر في تاريخه عنه : امر بتتور من خشب فيه مسامير حديد قيام فذكر عنابي ابن دؤاد وأبى الوزير أنهما قالوا : هو أول من أمر بعمل ذلك فضرب به انب اسباط المصرى حتى استخرج منه جميع ما عنده ثم ابتلى به فعذب به أياما .

وقال الذهبى فى ترجمته : وكان يقول بخلق القران ويقول : ما رحمت أحداً قط !!

الرحمه خور فى الطبع فسجن فى قفص حرج جهامة مسامير كالمساس فكان يصيح ارحمنى فيقولون له : الرحمه خور فى الطبيعه⁽¹⁾.

كل عذب بمطلبه فى الدنيا قبل الآخرة :

عن مسعر بن وهب ، وكان مؤدباً للخليفة المتوكل قبل ان يلى الخلافه : جلس – المتوكل – فى مجلسه وجلس عن يمينه الفتح بن خاقان ، وعبيد الله بن خاقان ، وعن يساره بغا الكبير ووصيف وأنا واقف فى زاوية البيت اليمنى مما يليه وخادم اخذ بعضادة الباب واقف ، إذ ضحك المتوكل فأرم القوم وسكتوا فقال : الا تسالونى مم أضحك ؟ فقالوا : مم ضحك امير المؤمنين أضحك الله سنه ؟ فقال : أضحكى أنى ذات يوم واقف على رأس الوثاق وقد قعد للخاصه فى مجلس الذى كنت فہ جالسا وأنا واقف على رأسه واردت الدخول فمنعت ووقفت حيث الخادم الذى واقف وجلس ابن أبى دؤاد فى مجلسك يا فتح وجلس محمد بن عبد الملك الزيات فى مجلسك إسحاق بن ابراهيم فى مجلسك يا بغا ، وجلس نجاح فى مجلسك يا وصيف ، إذ قال الوثاق : والله لقد فكرت فيما دعوت الناس إليه من أن القرآن مخلوق وسرعة إجابة من أجابنا وشدة خلاف من خالفنا حتى حملنا من خالفنا على السوط والسيف والضرب الشديد والحبس الطويل ولا يردده ذلك إلى قولنا فوجدت من أجابنا رغب فى ما أيدينا واسرع إلى إجابتنا رغبة فيما عندنا ووجدت من خالفنا منعه دين وورع عن إجابتنا وصبر على ما يناله من القتل

(1) الجزء من جنس العمل ج 1 ص 352.

والضرب والحبس ، فوالله لقد دخل قلبي من ذلك امر شككت فيما نحن فيه ، وفي محنة من نمتحنه ، وعذاب من نعذبه في ذلك ، حتى هممت بترك ذلك الكلام والخوض فيه ، ولقد هممت أن أمر بالنداء في ذلك وأكف الناس بعضهم عن بعض ، فبدأ ابن ابي دؤاد فقال : الله الله يا أمير المؤمنين أن تميت سنه قد أحيتها وأن تبطل ديناً قد أقمته !! ولقد جهد الأسلاف ، فما بلغوا فيه ما بلغت ، فجزاك الله عن الغسلام والدين خير ما جرى ولما من أوليائه !!

ثم أظرقوا رؤوسهم ساعه يفكرون في ذلك إذ بدأ ابن أبي دؤاد ، وخاف أن يكون من الواثق في ذلك أمر فيقضى عليه ويفسد عليه مذهبه فقال : والله يا أمير المؤمنين إن هذا القول الذي نحن عليه ندعوا إليه الناس لهو الدين الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله وبعث به محمداً نبيه ﷺ ولكن الناس عموا عن قبوله ! فقال الواثق : فإنى أريد أنتباهلوني على ذلك ، فقال ابن أبي دؤاد : ضربه الله الفالج في دار الدنيا قبل الآخره إن لم يكن ما يقول المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات : وهو فمر الله يديه بمسامير من حديد في دار الدنيا قبل الآخره إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق .

فقال إسحاق بن إبراهيم : وهو ، فأنتن الله ريحه في دار الدنيا حتى يهرب منه حميم وقريب إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق

وقال نجاح : وهو ، فقتله الله في أضيق محبس إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق .

ودخل عليهم إيتاخ وهم في ذبك فأخذوه على البديهة وسألوه على ذلك فقال : وهو ، فغرقه الله في البحر إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق .

وقال الواثق : وهو ، فأحرق الله بدنه بالنار في دار الدنيا قبل الآخره إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقاً من أن القرآن مخلوق .

فأضحك أنه لم يدع أحد منهم يومئذ بدعوة على نفسه إلا استجيب . أما ابن أبي دؤاد : فقد رأيت ما نزل به وضربه الله به من الفالج وأما ابن الزات : فأنا أقعدته في تنور من حديد وسمرت يده بمسامير من حديد .

وأما إسحاق بن إبراهيم : فإنه مرض مرضه الذي مات فيه ، فأقبل يعرق عرقاً منناً حتى هرب منه الحميم والقريب زكان يلقي عليه كل يوم عشرون فتؤخذ منه وهي مثل الجيفة فيرمى بها في دجله لا ينتفع بها ، تتقطع مش شدة النتن والعرق ، وأما نجاح : فأنا بنيت له بتاً ذراعاً في ذراعين حتى مات فيه . وأما ايتاخ : فأنا كتبت إلى إسحاق بن إبراهيم وقد رجع من الحج كبله بالحديد وغرقه .

وأما الواثق : فإنه كان يحب انساء وكثرة الجماع فوجه ذات يوم إلى ميخائيل طالبيب فدعى له ، فدخل عله وهو نائم في مشرفة وعليه قطيفة من خز فوقف بين يديه ، فقال : يا ميخائيل ابغنى دواء للباء فقال : يا أمير المؤمنين بدنك فلا تهده ، فإن كثرة الجماع تهد البدن ، ولا سيما إذا تكلف الرجل ذلك ، فاتق الله في بدنك وأبق عليه ، فليس لك من بدنك عوض . فقال له : لا بد منه ثم رفع القطيفة عنه ، فإذا بن فخديه وصيفة قد ضمها إليه ، ذكر من جمالها وهيئتها أمراً عجيباً . فقال : من يصبر عن مثل هذه ؟ قال : فإن كان ولا بد فعليك بلحم السبع ، فأمر أن يؤخذ لك منه رطل فيغلى سبع غليات بخل خمر عتيق ، فإذا جلست على شرابك أمرت أن يوزن لك منه ثلاثة دراهم فانتقلق به على شربك في ثلاث ليال ، فإنك تجد فيه بغيتك ، وأتق الله في نفسك ولا تسرق فيها ولا تجاوز ما أمرتك به .

فلهي عنه أياماً فبينما هو ذات ليلة جالس على شرابه إذ ذكره فقال : على بلحم السبع الساعة فأخرج ه سبع من الجب وذبح من ساعته ، فأمر فككب له منه ثم أمر فأغلى له منه بالخل ثم قدر له منه فأخذ ينتقلق به على أنه لا دواء له إلا أن يسجر تنور بحطب الزيتون ويشحن جوفه بالرطبه ويقعد فيها ثلاث ساعات من النهار ، فإذا استسقى ماء لم يسق ، فإذا مضت ثلاث ساعات كوامل أخرج منها وأجلس جلسة منتصبه على نحو ما أمروا به فإذا أصابه الروح وجد لذلك وجعا شديداً وطلب أن يرد إلى التنور فترك هعلى حالته تلك ولا يرد إلى التنور حتى تمضى ساعتان من النهار فإنه إذا مضى

ساعتين من النهار جرى ذلك الماء وخرج من مخارج البول وإن سقى ماء أو رد إلى التنور كان تلفه فيه .

فامر بالتنور فأخذ له وعري وأجلس فيه وأقبل يصيح ويستغيث ويقول : أحر قتموني إسقوني ماء، وقد وكل به من يمنعه الماء ولا يدعه أن يقوم من موضعه الذى أقعد فيه ولا بتحريك فتتقط بدنه فصارت فيه نفاخات مثل أكبر البطيخ وأعظمه ، فترك على حالته حتى مضت له ثلاث ساعات من النهار ، ثم أخرج وقد كاد يحترق أو يقول القائل فى رأى العين قد احترق فأجلسه المتطببون ، فلما وجد روح الهواء اشتد به الوجع والألم يصحويخور خوار الثور ويقول : ردوني إلى التنور فإنى إن أردت فاجتمع نساؤه وخواصه لما رأوا به من شدة الألم والوجع وكثرة الصياح فرجون أن كون له فرجه فى أن يرد على التنور ، فردوه إلى التنور ثانية ، فلما وجد مس النار سكن صياحه وتفرطت النفاخات التى خرجت ببدنه وخمدت وبرد ف جوف التنور فأخرج من التنور وقد احترق وصار أسود كالفحم فلم تمض به ساعات حتى قضى .

فأضحك أنه لم يدع أحد منهم على نفسه فى تلك الساعة بدعاء إلا استجاب الله له فى نفسه⁽¹⁾.

جزاءاً وفاقاً

كان القاضى أحمد بن أبى دؤاد الأيادى قاضى المعتصم الذى جر البلاد إلى محنة خلق القرآن وبسببه أهين علماء الأمة وعذبوا وسجنوا وقتلوا . هذا الذى تكلم فى عقيدة أهل السنه وشأنها وتكلم فى أحمد بن حنبل وعاب معتقده . وكان ابن أبى دؤاد معتزلياً وبسببه قتل أحمد بن نصر الخزاعى وسجن الإمام أحمد بن حنبل وعذب بالسياط ودعا عليه الإمام أحمد فحبسه الله فى جسده كما حبس الإمام ودخل عليه وعاده عبد العزيز الكنانى وقال له : لم أتك عائداً بل لأحمد الله أن سجنك فى جلدك .

قال ابن كثير : ابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنن حتى بقى طريحاً فى فراشه لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك ، جعل نصف جسده لو سقط عليه الذباب فكأنما نهشته السباع والنصف الآخر لو نهشته السباع لم يحس بها .

(1) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد نقلا عن الجزاء من جنس العمل ص 355.

وقد دخل عله بعضهم فقال : والله ما جئتك عائدا وإنما جئتك لآعزيك فى نفسك وأحمد الله الذى سجنك فى جسدك الذى هو أشد عليك عقوبه من كل سجن ، ثم خرج عنه داعيا عليه بأن يزيده ولا ينقصه مما هو فيه فزداد مرضا إلى مرضه ، وفى سنة 238 هـ صودرت أموال ابنه أبى الوليد ومات قبل أبيه بشهر (2).

وقال فى مكان آخر : فى سنة سبع وثلاثين ومائتين فى ربيع أول أمر الخليفة بالأحتياط على ضياع ابن أبى دؤاد واخذ ابنه با الولد فحبسه فى يوم السبت ثلاث خلون من ربيع الآخر وأمر بمصادرته فحمل مائة آل وعشرين ألف دينار ، ومن الجواهر النفسية ما يقوم بعشرين ألف دينار ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم ثم نفى أهله سامراء إلى مهانين قال ابن جرير : فقال فى ذلك أبو العتاهيه :

لو كنت فى رأى منسوباً إلى رشد كان عزمك عزما فيه توفيق
لكان فى الفقه شغل لو قنعت له عن أن تقول : كتاب الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ؟ ماكان فى الفرع لولا اجهل
والموق (3)

قال الإمام أحمد : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز حين تمر . فلما مات إمام أهل السنة كانت جنازته أكبر جنازه فى تاريخ المسلمين فلما نزلت رأس أحمد بن نثر من على الصليب كان يوما مشهودا وصدق الله قول أحمد ، فأحمد ب أبى دؤاد قاضى قضاة المسلمين انذاك لم يحتفل أحد بموته ولم يلتفت إليه ، ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان جزاءً وفاقاً (4).

ابن هانى شاعر المعز العبيدى الفاطمى :

راس الشعراء الفجره ، اعطاه الله ملكه الشعر فتزلف بها لأصحاب السلطه
وأخذ من الشعر وسيلة للتكسب والتربح وانساق به الحال إلى الفسوق
واخرج من قريحته أباتا أشد كفرا ونفاقا من أجل المال فقد كان يقول للمعز :

(2) ابن كثير : البدايه والنهايه ج1 ص 345-350.

(3) المرق : الحمق والوفاء.

(4) الجزاء من جنس العمل ج 1 ، ص 351.

ما شئت لاما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواد القهار
وقال أيضاً :

ندعوه منتقما عزيزا غفار موبقه الذنوب
وقال ايضاً :

واتيك من ترزقه يرزق من الورى وراكا ومن يحرم من الناس يحرم
وقال ايضاً :

أدار كما شاء الورى وتحيزت على السبعة الأفلاك أنملة العشر
وقال ايضاً :

أرى فى مدحه كالمده لله إنه قنوت وتسبيح يحط من الوزر
وقال ايضاً – لعنه الله :

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريل
ومن ذلك قوله :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح

حل بهاذو المعالى فكل ضئ سواه ريح

قال ابن كثير : استصحبه المعز الفاطمى من بلاد القيروان حين توجه إلى
مصر فمات ببعض الطريق وجد مقتولا على حافة البحر فى رجب سنة
362هـ ، وقد كفره غير واحد من العلماء لآقواله وأشعاره وشدة مدحه للمعز
الفاطمى (1).

(1) ابن كثير : البدايه والنهايه : ج-11 ، 293.

ومما قل فى محمد بن هانى أيضاً :

أبعين مفتقر إليك نظرت لى فأهنتنى وقذفتنى من حالق

لست الملووم أنا الملووم لآننى علقت أمالى بغير الخالق

ولآنه رام غير الله فوكله لله إلى المعز الفاطمى فقله فى النهايه ولآن من وجد الله فما فقد . ومن فقد الله فما وجد .

دخل الحجاج ذات يوم على اسماء بنت أبى بكر بعد قتل ابنها عبد الله بن الزبير وقال لها : إن ابنك ألد فى هذا البيت ، إن الله أذاقه من عذاب أليم وفعل . فقال : كذبت . كان باراً بوالديه ، صواماً قواماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : " يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذاب " فالكذاب فابن أبى عبيد تعنى المختار بن عبيد الثقفى – وأما المبير فأنت .

ياله من متبجح صفيق الوجه يتعرض لابنة الصديق ويؤذيها فى ابنها بعد أن قتله وهو ابن حوارى رسول الله ﷺ ولكن ليس بمستغرب علمن قل إيمانه وذهب حياؤه !! ومن أعظم ذنوب هذا الطاغية قتله للأمام الجليل سعيد بن جبير رضى الله عنه .

عمرو بن لحي الخزاعى :

عن ابن عباس رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : " أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحي بن قمعه بن خندف أبو خزاعة " 0

وفى حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبى كعب عن أبيه مرفوعاً : " وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام " .

لما وليت خزاعه البيت وصار أمره إليهم كانوا قوم سوء فى ولايتهم .

قال ابن كثير ك وذلك لآن فى زمانهم كان أول عبادة الأوثان فى الحجاز وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي – لعنة الله – فإنه أول من دعاهم إلى ذلك وكان ذا مال جزيل جداً يقال : إنه ملك عشرين ألف بعير وممن ذكر الأزرقي والسهيلي : أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنه وكسا أى : عشرة آلاف حلة فى كل سنه يطعم العرب ويجيد لهم العيش بالسمن والعسل ويلت

لهم السويق قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمة عليهم .

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مأب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ويقال ك: ولد عمليق بن لاوز بن سام بن نوح رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام إلى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا فقال لهم : ألا تعطوني منها صنما أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنم يقال له : هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر لناس بعبادته وتعظيمه .

قال ابن اسحاق : واستبدوا بدسن إبراهيم واسماعيل عليهما السلام غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات وفيهم على ذلك بقايا عهد إبراهيم عليه السلام يتمسكون به من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدى ابدن والإهلاك بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه فكانت كنانة وقرى إذا هلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لله إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) . أي : ما يوحدونني لمعرفة حتى إلا جعلوا معي شريكا من خلقي وذكر السهيلي وغيره : أن أول من لبي هذه التلبية عمرو بن لحي وأن إبليس – عليه لعنة الله – تبدى له في صورة شيخ فجعل يلقنه ذلك فيسمح منه ويقول كما يقول واتبعه العرب في ذلك ، ولم يتوقف شيطان عند ها الحد وابتدع – لعنه الله – لهم أشياء في الدين غير بها دين إبراهيم الخليل ما تبعه العرب في ذلك .

وانظر أيضاً إلى ما ابتدعه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنها كبيرهم عمرو بن لحي – قبحه الله – أنها مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم فهو أول من سيب السوائب وهو كاذب مفتر في ذلك ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام بعدما تابعوه فيما هو أظلم من لك وأعظم بكثير وهو عبادة الأوثان وقد قال تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيله ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) 0

ولا يحقيق المكر الشئ إلا بأهله :

قال رسول الله ﷺ : (رايت عمرا بن عامر الخزاعي يجر قصبه - الأمعاء -
فى النار وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيره)⁰

وذلك لكونه استخرج من باطنه بدعه جر لها الجريره على قومه فكذا يجر
أمعاه فى النار .

وقال ﷺ : (رأيت عمرا بن لحي بن قمعه بن خندف وهو يجر قصبه فى النار
). (

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " رأيت جهنم
يحطم بعضها بعضاً ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب
" ⁰ وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول لأكثم بن الجون الخزاعي : " يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن
قمعه بن خندق يجر قصبه فى النار فما رأيت رجلاً أشبه منك به ولا بك منه ،
فقال أكثم : عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله ؟ قال : لا إنك مؤمن وهو
كافر إنه كان أول من غير دين اسماعيل فنصب الاوثان وبحر البحيره وسيب
السائبه ووصل الوصيله وحمى الحامى " ⁽¹⁾⁰

مسيلمه الكذاب :

كذاب اليمامة وكان يدعى رحمان اليمامة ادعى النبوه فى عهد رسول الله
ﷺ وقصدته سجاح - لما ادعت النبوه هى الاخرى - بجنودها لآخذ اليمامة
منه فهابه منه فهابه قومها وقال : إنه قد استفحل أمره لا تلحقكم بعدها ملامه
قال : فعمدوا لحرب مسيلمه فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده فبعث
إليها يستأمنها ويضمن لها ان يعطيها نصف الأرض الذى كان لقريش لو
عدلت فقد رده الله عليك فحباك به وأرسل إليها يجتمعها فى طائفة من قومه
فركب إليها فى أربعين من قومه فلما خلا بها وعرض عليها ما عرض من
نصف الأرض وقبلت ذلك قال مسيلمه : سمع الله لمن سمع واطعمه بالخير
غذا طمع ولا يزال امره فى كل ما يسر مجتمع راكم ربكم فحياكم ومن وحشته

(1) أخرجه بن أبى عاصم وحسنه الألبانى.

أخلاقكم ويوم دينه انجاكم فأحياكم .. إلى آخر هذا الهراء وإلى آخر هذا الهراء وإلى آخر ما فعل اللعين مما يعنت القلم عن ذكره .

فلما رجعت سجاع إلى قومها قالوا : ما أصدقك ؟ فقال : لم يصدقني شيئاً . فقالوا إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق ؟ فبعثت إليه تسأله صداقاً فقال : أرسلني إلى مؤذنك فيعته إليه - وهو شبت بن ربيع - فقال : ناد في قومك أن مسيلمه بن حبيب رسول الله قد وضع صلاتين مما أتاكم به محمد - يعنى صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخر ثم أسلمت بعد ذلك سجاح .

هذا الكذاب الكذب على الله ورسوله فشانه الله وفضحه بكذبه فما يسمى إلا مسيلمه الكذاب وكفى به جزاءً في الدنيا فكيف بالقتل وقد قتله وحشى العبد ؟ فليف بيوم القيامة ؟

(ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسوده أليس في جهنم مثوى للمتكبرين)

يقول تعالى : (ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين)

وجاء في افتراءات مسليمه الكذاب ما يثير اضحك والعجب العجاب : يا ضفدع بنت الضفدعين نقلي لكى لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين رأسك في الماء وذنبك في الطيب .

وكان يقول : والمبذرات ذرعاً والحاصدات حصداً والذاريات قمحاً والطاحنات طحناً ولخابزات خبزاً والثاردات ثرداً والاقمات لقماً إهالة وسمناص لقد فضلتكم على الوبر وما سبقكم أهل المدر رفيقكم فامنعوه والمعتر فاووه والناعى فواسوه .

وكان يقول : والفيل وما ادراك ما الفيل له زلوم طويل .

وكان يقول : والليل الدامس والذنب الهامس .

والله غنها لخرافات يأنف من قولها الصبيان وهم يلعبون .

قال الصديق لوفد بنى حنيفه : ويحكم اين كان يذهب بعقولكم ؟ غن هذا لم يخرج من آل !!

وقد عمر عمرو ابن العاص أيام جاهليته على مسيلمه فقال له مسيلمه : ما أنزل على صاحبكم فى هذا الحين ؟ فقال عمرو : لقد انزل عليه سورة وجيزه بليغه فقال : وما هى ؟ قال : أنزل عليه : (والعصر * إن الانسان لفى خسر) ز قال : ففكر مسيلمه ساعه ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل على مثلها فقال له عمرو : وما هى ؟ فقال مسيلمه : يا وير يا وير إنما أنت إيراد وصدر وسائر حفر نقر .

ثم قل : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب .

وذكر أصحاب التراجم والسير : انه كان يشتبه بالنبي ﷺ فبلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصرى فى بئر ففاض ماؤه بالكليه وفى أخرى فصار ماؤه أجاباً وتوضى وتوضاً وسقى لوضوءه نخلا فيبست وهلكت .

واتى برولدان يبرك عليهما فجعل يمسح رؤوسهم فممنهم من قرع رأسه ومنهم من لثغ لسانه .

ويقال : إنه دعا لرجل أصابه وجع فى عينيه فمسحهما فعمى .

وعن عمير بن طلحه عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة فقال : أين مسيلمه ؟ فقيل له : مه رسول الله ، فقال : لا حتى أراه فلما جاء قال له : انت مسيلمه ؟ قال : نعم قال : من يأتيك ؟ قال : رجس ، قال افى نور ام ظلمه ؟ قال : فى ظلمة فقال : اشهد أنك كذاب زوان محمداً صادق ولكن كذاب ربيعه احب إلينا من صادق مضر !! واتبعه هذا الأعرابى الجلف – لعنه الله – حتى قتل معه يوم عقربا – لا رحمه الله .

ولما قدم هذا العين المدينة وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف عليه رسول الله ﷺ فسمعها وهو يقول : إن جعل لى محمداً الأمر من بعده اتبعه فقال له : لو سألتنى هذا العو – العرجون فى يده – ما أعصيته ولئن ادبرت ليعقرنك الله إنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى فى المنام كأن فى يديه سوارين من ذهب فأهمه

شأنهما فأوحى الله تعالى إليه في المنام انفخهما فنفخهما فطارا فأولهما
بكذابين يخرجان وهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة وهكذا وقع فإنهما
ذهبا وذهب أمرهما أما الأسود فذبح في داره وأما مسيلمه فعقره الله على
يدى وحشى بن حرب رماه بالحربة فأنفذه كما تعقر الإبل وضربه ابو دجانه
على راسه ففلقه وذلك بعقر داره في حديقة الموت وقد قتل قبله وزيراه :
محكم بن الطفيل ، والرجال بن عنفوه .

روى البخارى أن مسيلمه كتب إلى رسول الله ﷺ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من
مسيلمه رسول الله الى محمد رسول الله سلام عليك اما بعد فإنى قد اشتركت
معك فى الأمر فلك المدرولى الوبر ويروى فلكم نصف الأرض ولنا نصفها –
ولكن قريشاً قوم يعتدون .

فكتب إليه رسول الله ﷺ : " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، من محمد رسول الله ﷺ إلى
مسيلمه الكذاب سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله لم
يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين " 0

ولما مات رسول الله ﷺ زعمه أنه استقل بالأمر من بعده واستخف قومه
فاطاعوه أنهم كانوا فاسقين .

وكان يقول :

خذى الدف يا هذه والعبى وبثى محاسن هذا النبى

تولى نبى بنى هاشم وقام نبى بنى يعرب

فلم يمهل الله بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى سلط الله على سيفاً من سيوفه
وحتفاً من حتوفه فعج بطنه وقلق راسه وعجل الله بروحه إلى النار فبئس
القرار .

قال تعالى : (ومن اظلم ممن افترى على الله كباً او قال اوحى إلى ولم يوحى
اليه شئ ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله ولو ترى الظالمون فى غمرات
الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون
بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) 0

فمسيلمه والأسود وامثالهما لعنهما الله أحق الناس دخولاً فى هذه الآيه
الكريمه واولادهم بهذه العقوبه العظيمه (1).

بهاء الله مؤسس البهائيه :

الكذاب الملعون الذى أعلن اتباعه بأنه الموعود الذى اخبر عنه الباب وسماه
بمن يظهره الله وأسست الديانه الجديده بدعوى أنه صاحب الشريعه المستقله
كما كان الشيرازى صاحبها وأنه ناسخ لشريعه البيان كما الشيرازى ناسخاً
لشريعه الفرقان فقبله بعض البابيين وسموا بالبهائيه وأخيراً ارتقى على
عرش الربوبيه والالوهيه يدعى الرساله والنبوه ثم الألوهيه .

فتعالوا إلى الكذاب حين على المازندرانى بهاء الله :

انظر الى دجال الدجاجله الذى يقول : لا يرى فى عيكلى إلا هيكل الله ولا فى
جمالى إلا جماله ولا فى كينونتى إلا كينونته ولا فى ذاتى إلا ذاته ولا فى
حركتى إلا حركته ولا فى سكونى الا سكونه ولا فى قلمى إلا قلمه العزيز
المحمود .

وقال : لم يكن فى نفسى إلا الحق ولا يرى فى ذاتى الا الله .

ويقول : والذى ينطق فى السجن الأعظم فإنه لخالق الأشياء وموجد الأسماء .

وقال الفاجر عن نفسه : قد ظهر من لا يعزب عن علمه شئ .

ويقول العباس بن الخناس – بن البهاء وخليفته : إن الأيام التى ظهر فيها
موسى كانت أيام موسى والأيام التى ظهر فيها المسيح كانت أيام المسيح
وأيام إبراهيم وهكذا أيام الأنبياء كلها واما ذلك اليوم – يوم ظهور
المازندرانى الكذاب – كان يوم الله .

ويقول أيضاً إن الجمال الاقدس الابهى – حسين المازندرانى – قد استوى ذلك
اليوم – يوم دعواه الخبيثه – على عرش الربوبيه الكبرى وتجلى على أهل
الارض والسماء بكل اسمائه الحسنى وصفاته العليا (2) .

(1) ابن كثير : البدايه والنهايه، ج6 ، ص 345-346.

هذا المجرم الأثيم هو قبلة البهائيين يقول : إذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطري الأقدس المقام الذى جعله الله مطاف الملائكة الأعلى ومقبل أهل مدائن البقاء ومصدر الأمر لمن فى الأرض والسماء .

انظر إلى الدين الذى أتى به دجال الجاحل .

الصلاة : من يطالع كتبهم المقدسة – النجسه – لا يجد فيها طريقة ادائها إلا ما كتبه البهاء فى كتابه : الأقدس الفقرة 19 : قد فصلنا الصلاة فى ورقة أخرى طوبى لمن عمل بما أمر به من لدن مالك الرقاب .

فأين ذهبت هذه الورقة ؟ قالوا : إن خصوم البهاء سرقوها منه وهم لذلك يبكون ويتألمون !!

ومحرم الصلاة جماعة بقوله : كتبت عليكم الصلاة فرادى قد رفع حكم الجماعة إلا فى صلاة الميت إنه لهُو الأمر الحكيم .

الصوم : قد كتبت الصيام فى شهر العلاء صوموا لوجه ربكم العزيز المتعال .

وشهر العلاء : هو آخر الشهور البهائية التسعة عشر ويشتمل على الأيام التسعة عشر .

وأما فريضة الصوم فقد عفى عنه المسافر والمريض والحامل والمرضع والهزم والكسول وعند التكسر والتكاسل لا يجوز الصلاة والصيام وهذا حكم الله من قبل ومن بعد .

الزكاة : قال البهاء : سوف نفصل لكم مصابها – إذا شاء الله وأراد .

إنه يفعل ما يشاء بعلم من عنده إنه لهُو العلام الحكيم .

والعلام الحكيم لم يستطع بيان نصابها وتفصيلها !!

بل قالوا : قيعمل فى الزكاة كما نزل فى الفرقان – أى القرآن – والمعروف لمن له ادنى إمام بالإسلام ان تفاصيل الزكاة ونصابها فى السنه لا فى القرآن(1).

الحج : الحج للبيت الأعظم فى بغداد وبيت النقطة فى بغداد وهو واجب على الرجال دون النساء .

الطهاره : رفع حكم دون الطهاره عن كل الأشياء –قذرة كانت ام نجسه – وعو مثل أخرى موهبة من الله إنه هو الغفور الكريم .

فهذه شريعة البهائيين منتته خبيثه كأحكامها وقذرة نجسه .

المحرمات عند البهائيين :

لا يحرمون إلا زوجة الأب وبقية نساء العالم حلال عندهم فى كتبهم ويحرمون تعدد الزوجات فوق الأثنتين .

وانظر ما يقول الفاجر : ومن اتخذ بكرة لخدمته لا بأس عليه كذلك كان الأمر من قلم الوحي بالحق مرقوماً بل من قلم الشيطانها أيها العريبد .

أما الزنا فإنهم لا يعدون الزنا إلا مالم يرض به احد الطرفين ومن اقترف هذه الجريمة بدون الرضا لا عقاب عليه بل يؤخذ منه الأجرة لأنه بالأجرة تنقلب السيئه حسنة ، يقول المازنداني: قد حكم الله لكل زان وزانية ديه مسلمه الى بيت العدل وهى تسعة مثاقيل من الذهب .

أما الزانى المحصن والزانية المحصنه فلا حكم عيها إلا ان يحكم عليهما بيت العدل .

هذا قول نبي البهائيه عباس عبد البهاء .

هذا الفاجر البهاء قصته وفجوره مع قرة العين شيطانة البابيه وقد كانت متزوجه والغريب أنها هى التى منحتة هذا اللقب : بهاء الله فالطاهرة كما كانوا يلقبونها أسمته : بهاء الله فهى أول المتفوهين بكلمة بهاء الله وكفاه هذا جزاء .

(1) الجزء من جنس العمل ج 1 ، ص 286.

وهذا المافون منع من الارتقاء على المنابر .

من أفتراءات البهائية :

يقول البهاء فى رسالته إلى الشاه : قد جعل الله البلاد غادية لهذه الدسكرة الخضراء وزباله لمصباحه الذى أشرقته به الأرض والسماء يقول : أسلمت داعية البهائية وقد تنبأ بهاء الله وعبد البهاء بأصرح واوثق عبارة عن النصر السريع للأمور الروحانية .

ولما سئل عباس عبد البهاء : إذا كانت دولة من دول العالم العظيمة تؤمن بالديانة البهائية أجاب : سيؤمن جميع أهل العالم .

وصرح أيضاً : هذا القرن قرن شمس الحقيقة وهذا القرن قرن تأسيس ملكوت الله على الأرض بل وصرح أيضاً بأنه سنة 1957 م تتأسس وحدة الإنسانية وكذب الكذاب وأبنه .

انظر عميل الروس الذى ادعى الألوهية كيف أظهر الله عجزه ومسكنته ؟

الجزاء من جنس العمل :

وكتب إلى شاه إيران يقول : إنى وجدت فى أيامى مقراً من على قدر أضع رجلى عليه كنت فى كل الأحيان فى غمرات البلايا التى ما أطلع عليها أحكم من أيام اضطربت فيها أحبتى لضرى وكم من ليل ارتفع فيها نحيب البكاء من أهلى خوفاً لنفس ولا ينكر ذلك إلا من كان عن الصدق محروماً .

الكذاب الدجال يبكى وينوح ويشتكى ويعلى العويل والصراخ ويقول : كم من ليل فيها استراحت الوحوش والطيور لفى أوكارها وكان الغلام – الغلام والرب – فى السلاسل والأغلال ولم يد لنفسه ناصرأ لا معيناً .

إله يستصرخ ورب يحتاج ... (فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) 0

هذا الكتاب الذى افتراه على الله وزعم ان كتابه الأكبر الذى يسمونه : الأقدس ناسخ لجميع الكتب السماوية : وأيه واحده منه خير من كتب الأولين والآخرين .

حاول فيه محاكاة القرآن فى فواصل آياته وكذا بقية كتبه : اللإيقان ولوح البقاء .

هذا المجنون الذى اعتنق البابيه ثم ادعى النبوه والرساله ثم الألوهيه ماذا كان جزاؤه فى دار الدنيا قبل أن يذهب به الى الهاويه ؟

قد جن ، ينقل عن احد ابناء حسن المازندانى البهاء انه جن فى آخر حياته فى موته بمدة كما ذكره عمر عنائت نقلا عن أبنه : إن البهاء جن فى أواخر أيامه وكان ابنه – عباس عبد البهاء – يعمل كحاجب له(1).

جن جزاءً وفاقاً .

وكما أن عقله الذى هو منحة له من الله – الذى كان يميز به عن الحيوان وتوحيد الله عز وجل فلما استعمله فى غير ما جعل له وتفتق عقله عن حيل واكاذيب وخدع وافترى على الله كذبا فقد سلبت منه هذه الهبة فأصبح معتوها مجنونا دون عقل يميز وكان الجزاء من جنس العمل .

أبو مسلم الخرسانى :

الذى قتل من عباد الله ما قتل وكان فاتكاً سفاكاً للدماء الأبرياء سجلاً أسوداً عنانه الظلم البين والقتل بالظنه ولا إرفاع الرحمة ولا إقالة للعثرة شر قتله .

ذكر ابن جرير أن ابا مسلم قتل فى حروبه وما كان يتعاطاه لآجل دولة بنى العباس ستمائة ألف صبرا زياد على من قتل بغير ذلك . وسئل عبد الله بن المبارك عن أبى مسلم او خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيرا من أحد ، ولكن الحجاج كان شراء منه .

كتب إليه المنصور : أحذر البغى أبا مسلم فإنه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ونصر عليه من يصصره لليدين والفم واحذر أن تكون سنة فى الذين خلوا من قبلك ومثله من يأتى بعدك .

وكتب أبو مسلم إلى المنصور : إن أخاك السفاح ظهر فى صورة مهدى وكان ضالا فأمرنى أن أجرد السيف وأقتل بالظنه وأقدم بالشبهة وأدفع الرحمة ولا

(1) نقلاً عن الجزاء من جنس العمل جـ1 ، ص 288.

أقيل العشرة فوترت اهل الدنيا فى طاعتكم وتوطئه سلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم ، ثم إن الله سبحانه تداركنى منه بالندم ، واستنقذتى بالتوبه فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفورا وإن يعاقبنى فبذنوبى ، وما ربك بظلام للعبيد .

وكتب إليه المنصور : اما بعد ن ايها المجرم العاصى إنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لآرشد هما تاركا ولأغواهما راكبا تقتل قتل الفراعنه وتبطش ببطش الجبابرة وتحكم بالجور حكم المفسدين وتبذر المال وتضعه فى غير مواضعه فعل المسرفين .

ولما أدخلوه على المنصور جعل يعاتبه فى أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيداً حتى قال له : فلم قت سليمان بن كثير ، وإبراهيم بن ميمون ، وفلانا وفلانا ؟ قال : لأنهم عصونى وخالفوا امرى . فغضب عند ذك المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل إذا عصيت وأنا لا أقتلك وقد عصيتنى ؟ وصفق بيده وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله ، قتبادروا إليه ليقتلوه ، فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين استبقتنى لأعدائك ، فقال : وأى عدو لى أعدى منك ؟ ثم زجرهم المنصور ، فقطعوه قطعاً ثم ألقى فى دجله(1).

ويروى ان المنصور ما قتله وقف عليه فقال :رحمك الله أبا مسلم بايعتنا فبايعناك وعاهدتنا وعاهدناك ووفت لنا فوينا لك وإنا بايعناك على أن لا يخرج علنا أحد فى هذه الأيام إلا قتلناه فخرجت علنا فقتلناك وحكمتنا عليك حكمك على نفسك لنا .

ويقال : ان المنصور قال : الحمد لله الذى أرانا يومك يا عدو الله !

قال ابن جرير : وقال المنصور عند ذلك :

زعمت أن الدين لا يقتضى فاستوف الكيل أيا مجرم

سقيت كأسا كنت تسقى بها أمر فى الحلق من العلقم

(1) ابن كثير : البدايه والنهايه ج 1 ، ص 74،78.

وفى ذلك يقول ابو دلامه :

أبا مسلم ما غير الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبد

أبا مسلم خوفتنى القتل فأنتحن عليك بما خوفتنى الأسد الورد

ثم إن المنصور خطب فى الناس بعد قتل أبى مسلم ، فقال : يا أيها الناس لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر فتحل بكم النقم ، وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه فنكث وغدر وفجر وكفر فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ثم أمر المنصور بمصادرة جميع أمواله وحواصله وضياعه (2).

ضربك زوجك ؟

قال محمد بن حرب : كانت رقاش امرأة من إيراد بن نزار وكان أبوها يحبها حباً شديداً فخطبها رجل من قومها فأعجبت به ووقع من قبلها فامتنع أبوها من تزويجه فسقت أباها شربة فلما وجد حس الموت قال : يا رقش قتلتنى من هو أبعد منى وسوف بنالك وبال النقمه .

قال : فلما هلك أبوها تزوجت هذا الرجل الذى خطبها فلم يلبث ان ضربها فقبل لها : يا رقاش ضربك زوجك ؟ فقال : من قل ناصره اعترف بالذل ثم ثم لم يلبث زوجها ان تزوج عليها فقيل : يا رقاش تزوج عليك زوجك فلو سألتها الطلاق قالت : لا ابغى الشر بالشر وحسبك بالطلاق عيبا بالحره .

فيا أيها المضيع لأكبر الحقوق المعتاض من بر الوالدين بالعقوق الناس لما يجب عليه الغافل عما بين يديه بر الوالدين عليك دين وأنت تتعاطاه باتباع الشين تطلب الجنه بزعمك وهى تحت أقدام أمك حملتك فى بطنها تسعة اشهر كانا تسع حجج وكأبدت عند الوضع ما يذيب المهج وارضعتك من ثديها لبنا واطارت لآجلك وسنا وغسلت بينهما عنك الاذى وأثرتك على نفسها بالغذا وصيرت لك حجرها مهذا وأنالتك غحسانا ورفدا فإن أصابك مرض او شكاية اظهرت من الأسف فوق النهايه واطالت الحزن والنحيب وبذلك مالها للطيب ولو خيرت بين حياتك وموتها لطلبت حياتك بأعلى صوتها هذا وكم عاملتها بسوء الخلق مراراً فدعت لك بالتوفيق سراً وجهاراً فلما احتاجت عند لكبر

(2) ابن كثير : البدايه والنهايه ج 10 ص 79.

إليك جعلتها من أهون الأشياء عليك فشبت وهى جائعه ورويت وهى قانعه
وقدمت عليها اهلك واولادك بالإحسان ، وقابلت اياديها بالنسيان وصعب لديك
امرها وهو يسير طال عليك عمرها وهو قصير هجرتها ومالها سواك نصير
هذا ومولاك قد نهاك عن التافف وعاتبك فى حقها بعتاب لطيف ستعاقب فى
دنياك بعقوق البنين وفى اخراك فى البعد من رب العالمين يناديك بلسان
التوبيخ والتهديد: (ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) 0

"حادثة غريبة لم يوجد مثلها!!.."

ذكر المؤرخون أن مملكة الكرج النصرانية بعد أن أتمت صلحها مع
المسلمين، وصل إلى قمة الحكم فيها امرأة .. فطلب منها الوزراء والأمراء
وكبار رجال الدولة أن تتزوج رجلاً يدير عنها شئون البلاد، ويكون في
الصورة أمام الأعداء وفي المفاوضات وغير ذلك .. فأرادت أن تتزوج من بيت
ملك وشرف .. ولكنها لم تر في مملكة الكرج من يصلح لهذا الزواج، وسمع
بهذا أحد ملوك المسلمين وهو "مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان "
(¹) وهو من ملوك السلاجقة، وكان يحكم منطقة الأناضول (تركيا الآن)،

¹ (مغيث الدين السلجوقي : هو أبو القاسم محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي،
الملقب مغيث الدين، أحد الملوك السلجوقية المشاهير، تولى أبو القاسم المذكور السلطنة بعد
وفاة والده، وخطب له بها بمدينة بغداد على جاري عادة الملوك السلجوقية، يوم الجمعة الثالث
والعشرين من المحرم سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، في خلافة المستظهر بالله، وهو يومئذ في
سن الحلم، وكان متوقداً ذكاء، قوي المعرفة بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال، عارفاً بالتواريخ
والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير، وكان حيص بيص الشاعر المقدم ذكره قد قصده من
العراق ومدحه بقصيدته الدالية المشهورة التي أولها:

ألقى الحدايج ترع الضمر القود ... طال السرى وتشكت وخذك البيد

يا ساري الليل لا جذب ولا فرق ... فالنبت أغيد والسلطان محمود

قيل تألفت الأضداد خيفته ... فال مورد الضنك فيه الشاء والسيد وهي طويلة ومن غرر القصائد،
وأجازه عليها جائزة سنية.

وكان قد تزوج بنتي عمه السلطان سنجر، واحدة بعد الأخرى، وكانت السلطنة في أواخر أيامه
قد ضعفت وقلت أموالها، حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعي، فدفعوا له يوماً بعض صناديق
الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها في حاجته، وكان في آخر مدته قد دخل بغداد، ثم خرج منها،
فمرض في الطريق واشتد به المرض، وتوفي يوم الخميس خامس عشر شوال سنة خمس
وعشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء

وكان له ولد كبير، فأرسل إلى الملكة يطلبها للزواج من ابنه، فرفضت الملكة وقالت: لا يمكن أن يملك أمرنا مسلم..

فماذا فعل الملك مغيث الدين بن قلع أرسلان؟

لقد قال لهم: إن ابني يتنصر ويتزوجها!!!

فوافقوا على ذلك، وبالفعل تنصر الولد، وتزوج من ملكة الكرج، وانتقل إلى مملكتهم ليكون حاكماً عليهم، وبقي على نصرانيته، ولا حول ولا قوة إلا بالله...!!⁽¹⁾

يقول ابن الأثير: "..... حادثة غريبة لم يوجد مثلاً..... كان أهل المملكة في الكرج لم يبق منهم غير امرأة، وقد انتهى الملك إليها فوليته، وقامت

1 () لقد وصل المسلمون في هذه الآونة إلى درجة من التردّي يستحيل معها النصر، فكيف تأتي فكرة التنصر في ذهن الملك وابنه أصلاً، فضلاً عن تطبيقها، ولو كان سيحكم الأرض كلها بعد التنصر؟! ثم يأتي ذلك من ملك عظيم يملك الأناضول؟! لو أتى ذلك من ضعيف مستعبد لقلنا: لعله استكره على ذلك، أما أن يأتي العرض من الملوك، وهم الذين يطلبون، فهذا ما لا يتخيله عقل!!!

ولا أدري من الذي أطلق على الملك لقب "مغيث الدين"؟ ولا أدري أي إغاثة قدمها للدين؟ ولا أدري أيضاً أي دين يغيثه؟ أهو يغيث الدين الإسلامي أم يغيث النصرانية؟! "فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.."

ولاستكمال الصورة يجدر بنا أن نذكر مصيره.. لنرى كيف يكون حال من باع دينه بدنياه.. لقد تنصر الأمير المسلم وتزوج الملكة الكرجية، ومرت الأيام، ثم علم الأمير الزوج أن زوجته الملكة تهوى مملوكاً لها، وكان يسمع عنها القبايح الشنيعة ولا يتكلم، فهو وحيد في مملكة واسعة، ثم إنه دخل عليها يوماً فرآها مع مملوكها في فراشه، فأنكر ذلك، وأراد أن يمنعها من استمرار العلاقة، فقالت له الملكة بكل جبروت: "إما أن ترضى بهذا وإلا فلا تبقى.."، فقال: أنا لا أرضى بهذا، فنقلته إلى بلد آخر، ووكلت به من يمنعه من الحركة، وحجرت عليه، ثم تزوجت غيره!!!

نعوذ بالله من الخذلان، ونسأل الله أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم أن نلقاه..

د / راغب السرجاني ، قصة التتار ، ص 65

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا.." مسلم في صحيحه ج 1 / ص 110 حديث رقم: 118 ، قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" 2 / 398: أخرجه مسلم (1 / 76) و الترمذي (3 / 220 - 221 بشرح التحفة) وصححه ، وكذا ابن حبان (1868) وأحمد (2 / 304 - 523) و الفريابي في "صفة المنافق" (ص 65 من "دقائق الكنوز") من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً . وله شاهد من حديث أنس بن مالك مرفوعاً به دون المبادرة (810) أخرجه الحاكم (4 / 438 - 439) عن سنان بن سعد عنه . قلت : و إسناده حسن .

بالأمر فيهم، وحكمت، فطلبوا لها رجلاً يتزوجها ويقوم بالملك نيابة عنها، ويكون من أهل بيت مملكة، فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الأمر.

وكان صاحب أرزن الروم، هذا الوقت، هو مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان بن مسعود قلج أرسلان، وبيته مشهور من أكابر ملوك الإسلام، وهم من الملوك السلجوقية، وله ولد كبير، فأرسل إلى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها، فامتنعوا من إجابته، وقالوا: لا نفعل هذا، لأننا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم. فقال لهم: إن ابني يتنصر ويتزوجها؛ فأجابوه إلى ذلك، فأمر ابنه فتنصر ودان بالنصرانية، وتزوج الملكة، وانتقل إليها، وأقام عند الكرج حاكماً في بلادهم، واستمر على النصرانية، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها، وخير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاه.

ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكاً لها، فكان زوجها يسمع عنها القبايح ولا يمكنه الكلام لعجزه، ثم إنه يوماً دخل عليها فرأها نائمة مع مملوكها في فراش، فأنكر ذلك وواجهها بالمنع منه، فقالت: إن رضيت بهذا، وإلا أنت أخبر. فقال: إنني لا أرضى بهذا، فنقلته إلى بلد آخر، ووكلت به من يمنعه من الحركة، وحجرت عليه، وأرسلت إلى بلد اللان وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة، فتزوجت أحدهما، فبقي معها يسيراً، ثم إنها فارقت، وأحضرت إنساناً آخر من كنجة، وهو مسلم، فطلبت منه أن يتنصر ليتزوجها، فلم يفعل، فأرادت أن تتزوجه وهو مسلم، فقام عليها جماعة من الأمراء، ومعهم إيواني، وهو مقدم العساكر الكرجية، فقالوا لها: قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثم تريدين أن يتزوجك مسلم، وهذا لا نمكن منه أبداً، والأمر بينهم متردد والرجل الكنجي عندهم لم يجبههم إلى الدخول في النصرانية وهي تهواه. (1)

اسكت يا أنوك

ومما ذكر عن سفيان أنه أجاب أبا جعفر عندما قال له : إلىّ إليّ ادن مني ؛ بقوله : إني لا أطأ ما لا أملك ولا تملك . فقال أبو جعفر : يا غلام أدرج البساط وارفع الوطاء فتقدم سفيان فصار بين يديه , وقعد ليس بينه وبين الأرض شيء وهو يقول : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } (طه : 55) فدمعت عينا أبي جعفر , ثم تكلم سفيان دون أن يستأذن فوعظ وأمر ونهى وذلك رَ وأغلظ في قوله , فقال له الحاجب : أيها الرجل أنت مقتول . فقال سفيان : وإن كنت مقتولاً فالساعة . فسأله أبو جعفر مسألة فأجابه . ثم قال سفيان : فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد بغير إذنهم , وقد قال عمر في حجة حجها , وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه : (ما أرانا إلا وقد

أجحفنا ببیت المال) وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار - وأنت حاضر ذلك , وأول كاتب كتبه في المجلس - عن إبراهيم بن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غداً) فقال أبو عبيد الكاتب : أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا ؟ فقال له سفيان : اسكت فإنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون . ثم خرج سفيان , فقال أبو عبيد الكاتب : ألا تأمر بقتل هذا الرجل ؟ فوالله ما أعلم أحداً أحق بالقتل منه . فقال أبو جعفر : اسكت يا أنوك (أي يا أحمق) فوالله ما بقي

على الأرض أحد اليوم يُستحيا منه غير هذا و مالك بن أنس .

فوالله للناس عندي أهون من هذا

دخل ابن أبي ذئب على عبد الصمد وهو والي المدينة فكلمه في شيء فقال له عبد الصمد إني لأراك مرانيا فأخذ ابن أبي ذئب عودا أو شيئا من الأرض فقال من أرائي فوالله للناس عندي أهون من هذا .

وإنك لتستعمل الظلمة وتدع أهل الخير

قال محمد بن عمر : حج أبو جعفر فدعا الحسن بن زيد ودعا ابن أبي ذئب فأراد أن يغري الحسن بابن أبي ذئب وعرف أبو جعفر أن صاحب الحسن غير مغفول عنه فقال لابن أبي ذئب نشدتك الله ما تعلم من الحسن بن زيد قال أما إذ نشدتني فإنه يدعونا فيستشيرنا فنخبره بالحق فيدعه ويعمل بهواه إن انتهى شيئا أخذ به وإن لم يردده تركه

قال فقال الحسن بن زيد نشدتك الله يا أمير المؤمنين إلا سألته عن نفسك قال فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب نشدتك بالله ما تعلم مني ألت أعمل بالحق أليس تراني أعدل فقال ابن أبي ذئب أما إذ نشدتني بالله فأقول اللهم لا ما أراك تعدل وإنك لجائر وإنك لتستعمل الظلمة وتدع أهل الخير والفضل

قال قال محمد بن عمر فحدثني محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي وإبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي وأخبرت عن عيسى بن علي قالوا نحن عند أبي جعفر حين كلمه ابن أبي ذئب بما كلمه به من ذلك الكلام الشديد فظننا أن أبا جعفر سيعاجله فجعلنا نكف إلينا ثيابنا ونتحى مخافة أن يصيبنا من دمه قال وجزع أبو جعفر واغتم قال له قم فاخرج قال ورزقه الله السلامة من أبي جعفر فخرج ابن أبي ذئب إلى أم ولده سلامة وهي معه فقال احتسبي دنائيرك التي كان حسن بن زيد يجريها عليك قالت ولم قال سألني أبو جعفر عنه فقلت له كذا وكذا وحسن حاضر فقالت ففي الله خلف وعوض منها قال فخرج حسن بن زيد وذكر ذلك لابن أبي الزناد قال والله ما ساءني كلامه ولقد علمت أنه أراد الله بذلك ولم يرد به الدنيا ولا رضى أبي جعفر ولكن كان ذلك الحق عنده فأراد الله به فلما كان رأس الهلال زاده حسن بن زيد خمسة دنائير أخرى في كل شهر فصارت عشرة فلم يزل يجريها عليه في كل شهر حتى مات وقال إنما زدته ذلك لإرادته الله. (1)

إنما يقوم الناس لرب العالمين

قال أبو العيناء: لما حج المهدي دخل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يبق أحد إلا قام ابن أبي ذئب فقال له المسيب بن زهير: قم هذا أمير المؤمنين. فقال ابن أبي ذئب: إنما يقوم الناس لرب العالمين، فقال المهدي: دعه فلقد قامت كل شعرة في رأسي.

فنكس المنصور رأسه

وقال أبو العيناء. وقال ابن أبي ذئب للمنصور: قد هلك الناس فلو أعنتهم من الفيء. قال: ويلك لولا ما سددت من الثغور لكنت تؤتى في منزلك فتذبح. فقال: قد سدت الثغور وأعطى الناس من هو خير منك عمر. فنكس المنصور رأسه والسيف بيد المسيب ثم قال: هذا خير أهل الحجاز.

الظلم ببابك فاش

قال أحمد: وقد دخل على أبي جعفر المنصور فلم يذهله أن قال له الحق وقال الظلم ببابك فاش. وأبو جعفر أبو جعفر.

ورب هذه البنية إنك لجائر

قال أبو نعيم: حججت سنة حج أبو جعفر ومعه ابن أبي ذئب ومالك بن أنس، فدعا ابن أبي ذئب فأقعه معه على دار الندوة فقال له: ما تقول في الحسن بن زيد بن حسن. يعني أمير المدينة فقال: إنه ليحترى العدل. فقال له: ما تقول في مرتين فقال: ورب هذه البنية إنك لجائر. قال: فأخذ الربيع الحاجب بلحيته. فقال له أبو جعفر: كف يا بن اللخناء، وأمر لابن أبي ذئب بثلاثمائة دينار.

فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان؟ قال أشرار من أهل بيت أشرار. قالوا: اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد وكان عامله على المدينة - قال: ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال: يأخذ بالإحنة، ويقضي بالهوى. فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، والله لو سألته عن نفسك لرمأك بداهية أو وصفك بشر. قال: ما تقول في؟ قال: اعفني. قال: لا بد أن تقول. قال: لا تعدل في الرعية، ولا تقسم بالسوية. قال: فتغير وجه أي جعفر. فقال إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي صاحب الموصل: طهرني بدمه يا أمير المؤمنين. قال: اقعد يا بني، فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طهور. قال: ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلام، فقال: يا أمير المؤمنين، دعنا مما نحن فيه، بلغني أن لك ابناً صالحاً بالعراق، يعني المهدي. قال: أما إنك قلت ذلك، إنه

الصوام القوام البعيد ما بين الطرفين. قال ثم قام ابن أبي ذئب فخرج.
فقال أبو جعفر: أما والله ما هو بمستوثق العقل، ولقد قال بذات نفسه.
الحمد لله الذي جعل في رعية أنا عليها مثله

قام محمد بن أوس الهلالي لهارون الرشيد واعترضه عند الحجر فقال :
يا أمير المؤمنين استمع كلامي فإنك إن سمعته حقاً قبلته وإن سمعته
باطلاً فلا تبعاً به فوقف الرشيد .

فقال أوس : يا من غذي في نعيم وتردد في ملك سليم إن خفت العذاب الأليم
وأحببت البقاء في سرور فلا تسمعن ممن أنت بينهما ولا تغترن بشيء من
قولهما فإن الله عز وجل يخلو بك دونهما والموت يصل إليك على الطوع
والكره منهما فلا تصدقن بالذليل ولا تتكثرن بالقليل ولا تعتصم بغير دافع ولا
تطمئن إلى غير مانع لا يمنع ولا يدفع عنك .

فإنك بعين الله وبحضرة بيته الذي جعله مثابة للناس الزائرين ومنحجراً
للفاجر فانتفض الرشيد وجلس وخلا يديه عنهما وأوماً أن خذوا الرجل فأخذ
حتى قضى طوافه وصلى ورجع إلى المنزل الذي نزل به ودعا بالرجل فأدخل
عليه شيخ جليل .

فقال : من قبيلتك ؟ قال : بنو هلال . قال : قبيلة مشهورة فما حملك أن
كلمتني بالذي كلمتني .

قال : إشفافاً عليك إذا أنضيت الركاب وأتعب الرجال وأنفقت الأموال في أمور
الله عز وجل أعلم بها حتى إذا صرت إلى غاية الطالب وموضع ترجو فيه
الرحمة اعتمدت على ظالمين طاغيين قد جبلا على الغشم ونشأ على الظلم
وقد قال الله تعالى : { وما كنت متخذ المضلين عضداً } .

فنكس الرشيد رأسه وأقبل ينكت في الأرض وعيناه تذرفان ثم رفع رأسه فقال
: من أين مطعمك وشربك ؟ قال : من عند من يرزقك . قال : من ذاك ؟ قال :
من عند من خلق الحب والنوى وأخرج الحب من الثرى من طعام سهرت فيه
العيون وتعبت في حصاده الأجساد وحرسته الملائكة حتى أتاني به القدر بلا
رنق ولا كدر .

قال : ألك عيال ؟ قال : نعم . قال : ومن هن ؟ قال : زوجة . قال : أتختلف إلى تجارة أو تحترف في صناعة ؟ قال : قد كفان الله مؤنة ذلك بالعافية . قال : أفلا أجري عليك رزقا تستعين به على بعض أمورك وتستغني به عن الطلب من غيرك ؟ قال : إني بالله أغنى مني بما بذلت لي من ذلك .

قال : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، أطع الله عز وجل فيما تعلم من شرك فإنك تصل إلى كل محبوب وتنال به كل مطلوب ولست تبلغ شيئا من نكاية عدوك إلا من طاعتك لربك فإنك إن أطعته جعل ناصية عدوك بيدك فلا تشاء أمرا إلا بلغته ولا مكروها إلا نلتها .

قال : ألك حاجة غيرها ؟ قال : أتؤمنني من الموت ؟ قال : لا أقدر على ذلك ، قال : فتجيرني من النار ؟ قال : ليست في يدي ، قال : فتدخلني الجنة ؟ قال : لست أملك ، قال : أفتحي لي ميتا حتى أسأله عما عاين ورأى ، قال : ذاك في قدرة غيري . قال : ما أنت إلا كسائر من ترى من رعيته غير أن الله عز وجل فضلك عليهم بما أعطاك من هذا الحطام الزائل واستخلفك في الأرض لينظر كيف تعمل .

ثم خرج ، فقال الرشيد : الحمد لله الذي جعل في رعية أنا عليها مثله ولا تزال هذه الأمة بخير ما لم يعدموا هذا ونظراءه وأشباهه

كتب أبو عبيدة ومعاذ بن جبل إلى عمر ابن الخطاب- رضي الله عنهم- لما ولي الخلافة فقالا: من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل، إلى عمر بن الخطاب. سلام عليك. أما بعد، فإننا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها. يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل. فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر فإننا نحدرك يوما تعنى فيه الوجوه، وتجف فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج، لحجة ملك قهرهم بجبروته، فالخلق داخرون له يرجون رحمته ويخافون عقابه، وإننا كنا نحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا إخوان العلانية أعداء السريرة. وإننا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنما كتبنا به نصيحة لك والسلام عليك (1).

أنت والله عندي شر الرجال

قال وذكروا عن مالك بن أنس قال لما ولي أبو جعفر الخلافة وافى إليه الملاقون المشاؤون بالنميمة عني بلاكم كان قد حفظ علي فأتاني رسوله ليلا ونحن بمنى قال أجب أمير المؤمنين وذلك بعد مفارقتي له وخروجي عنه فلم أشك أنه للقتل ففرغت من عهدي واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كفني وتحنطت ثم نهضت فدخلت عليه في السرداق وهو قاعد على فراش قد نظم بالدر الأبيض والياقوت الأحمر والزمرد الأخضر حكى له أنه كان من فرش هشام بن عبد الملك كان قد أهدها إليه صاحب القسطنطينية لا يعلم ثمنه ولا يدري ما قيمته والشمع يحترق بين يديه وابن أبي ذؤيب وابن سمعان قاعدان بين يديه وهو ينظر في صحيفة في يده فلما صرت بين يديه سلمت فرفع رأسه فنظر إلي وتبسم تبسم المغضب ثم رمي بالصحيفة وأشار لي إلى موضع عن يمينه أقعد فيه فلما قعدت وأخذت مقعدي وسكن روعي رفعت رأسي أنظر تلقائي فإذا أنا بواقف عليه درع وبيده سيف قد شهره يلمع له ما حوله فالتفت عن يميني فإذا أنا بواقف بيده جرز من حديد ثم التفت عن يساري فإذا أنا بواقف عليه درع وبيده سيف قد شهره وهم أجمعون قد أصغوا إليه ورمقوه بأبصارهم خوفا من أن يأمر في أحد أمرا فيجده غافلا ثم التفت إلينا وقال أما بعد معشر الفقهاء فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم ما أحسن صدره وضاق به ذرعه وكنتم أحق الناس بالكف من أسنتكم والأخذ بما يشبهكم وأولى الناس بلزوم الطاعة والمناصحة في السر والعلانية لمن استخلفه الله عليكم

قال مالك فقلت يا أمير المؤمنين قال الله تعالى { يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين } الحجرات 6 فقال أبو جعفر على ذلكم أي الرجال أنا عندكم أمن أئمة العدل أم من أئمة الجور فقال مالك فقالت يا أمير المؤمنين أنا متوسل إليك بالله تعالى وأتشفع إليك بمحمد ﷺ وبقرابتك منه إلا ما أعفيتني من الكلام في هذا قال قد أعفأك أمير المؤمنين

ثم التفت إلى ابن سمعان فقال له أيها القاضي ناشدتك الله تعالى أي الرجال أنا عندك فقال ابن سمعان أنت والله خير الرجال يا أمير المؤمنين تحج بيت الله الحرام وتجاهد العدو وتؤمن السبل ويأمن الضعيف بك أن يأكله القوي وبك قوام الدين فأنت خير الرجال وأعدل الأئمة .

ثم التفت إلى ابن أبي ذؤيب فقال له ناشدتك الله أي الرجال أنا عندك قال أنت والله عندي شر الرجال استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين وأهلك الضعيف وأتعبت القوي وأمسكت أموالهم فما حجتك غدا بين يدي الله فقال له أبو جعفر ويحك ما تقول أتعقل انظر ما أمامك قال نعم قد رأيت أسيفا وإنما هو الموت ولا بد منه عاجله خير من آجله ثم خرجا وجلست قال إني لأجد رائحة الحنوط عليك قلت أجل لما نمي إليك عني ما نمي وجاءني رسولك في الليل ظننته القتل فاغتسلت وتطيبت ولبست ثياب كفني .

فقال أبو جعفر سبحان الله ما كنت لأثلم الإسلام وأسعى في نقضه أو ما تراني أسعى في أود الإسلام وإعزاز الدين عائذا بالله مما قلت يا أبا عبد الله انصرف إلى مصر كراشدا مهديا وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحدا ولا يعدل بك مخلوقا .

فقلت إن جبرني أمير المؤمنين على ذلك فسمعا وطاعة وإن يخيرني أمير المؤمنين اخترت العافية .

فقال ما كنت لأجبرك ولا أكرهك انقلب معافى مكلوئا .

قال فبت ليلتي فلما أصبحنا أمر أبو جعفر بصرر دنانير في كل صرة خمسة آلاف دينار ثم دعا برجل من شرطته .

فقال له تقبض هذا المال وتدفع لكل رجل منهم صرة أما مالك بن أنس إن أخذها فبسبيله وإن ردها لا جناح عليه فيما فعل وإن أخذها ابن أبي ذؤيب فأنتي برأيه وإن ردها عليك فبسبيله لا جناح عليه وإن يكن ابن سمعان ردها فأنتي برأسه وإن أخذها فهي عافيته .

فنهض بها إلى القوم فأما ابن سمعان فأخذها فسلم وأما ابن أبي ذؤيب فردها فسلم وأما أنا فكنت والله محتاجا إليها فأخذتها ، ثم رحل أبو جعفر متوجها إلى العراق .⁽¹⁾

كتاب عبيد الله العمري إلى أبي جعفر

قال وذكروا أن أبا جعفر لما قفل من حجه سنة ثمان وأربعين ومئة سأل عن عبيد الله بن عمر بن حفص بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو الفقيه المعروف بالعمري

ف قيل له إنه لم يحج العام يا أمير المؤمنين ولو حج لكان أول داخل عليك فلا تقبل عليه أحدا يا أمير المؤمنين ولا يقدر فيه عندك إلا باطلا أو كذاب فإنه من علمت .

فقال أبو جعفر والله ما تخلف عن الحج في عامه هذا إلا علما منه بأني حاج فذلك تخلف ولا والله ما زاده ذلك عندي إلا شرفا ورفعة وإني من التوقير له والإجلال بحال لا إخال أحدا من الناس بذلك لشرفه في قریش وعظيم منزلته من هذا الأمر والموضع الذي جعله الله فيه والمكان الذي أنزله به

فلما قدم أبو جعفر بغداد ورد عليه كتاب عبيد الله العمري فيه بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين من عبيد الله بن عمر

سلام الله عليك ورحمة الله التي اتسعت فوسعت من شاء

أما بعد فإني عهدتك وأمر نفسك لك مهم وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها وأبيضها وشریفها ووضعها يجلس بين يديك العدو والصديق والشریف والوضيع وكل حصته من العدل ونصيبه من الحق فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر وإني أحذرك يوما تفنى فيه الوجوه والقلوب وتنقطع فيه الحجة لملك قد قهرهم بجبروته وأذلهم بسلطانه والخلق داخرون له يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه

وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة وإني أعوذ بالله أن تنزل كتابي سوء المنزل فإني إنما كتبت به نصيحة والسلام.

فأجابه أبو جعفر المنصور

من عبد الله بن محمد أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن عمر بن حفص

سلام عليك أما بعد فإنك كتبت إلي تذكر أنك عهدتني وأمر نفسي لي مهم فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة بأسرها وكتبت تذكر أنه بلغك أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة ولست إن شاء الله من أولئك وليس هذا زمان ذلك إنما ذلك زمان تظهر فيه الرغبة والرغبة تكون رغبة بعض الناس إلى بعض صلاح دنياهم أحب إليهم من صلاح دينهم

وكتبت تحذرنني ما حذرت به الأمم من قبلي وقدا كان يقال اختلاف الليل والنهار يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتیان بكل موعود حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار وكتبت تتعوذ بالله أن ننزل كتابك سوء المنزل وأنت إنما كتبت به نصيحة فصدقت وبررت فلا تدع الكتب إلي

فإنه لا غنى بي عن ذلك والسلام اجتماع أبي جعفر مع عبد الله بن مرزوق

قال وذكروا أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين لما حج ودخل في الطواف بالبيت الحرام أمر بالناس فنحوا عن البيت ثم طاف أسبوعه فوثب إليه عبد الله بن مرزوق وقال من جراك على هذا فليبه بردائه وهزه ثم قال له من جعلك أحق بهذا البيت من الناس تحول بينه وبينهم وتتحيمهم عنه فنظر أبو جعفر في وجهه فعرفه

فقال عبد الله بن مرزوق قال نعم فقال من جراك على هذا ومن أقدمك عليه فقال عبد الله بن مرزوق وما تصنع بي بيدك ضر أو نفع والله ما أخاف ضرك ولا أرجو نفعك حتى يكون الله عز وجل يأذن لك فيه ويلهمك إلى فعله فقال له أبو جعفر إنك أحللت بنفسك وأهلكتها فقال عبد الله بن مرزوق اللهم إن كان بيد أبي جعفر ضري فلا تدع من الضر شيئا إلا أنزلته علي وإن كان بيده منفعتي فاقطع عني كل منفعة منه أنت يا رب بيدك كل شيء ومليك كل شيء فأمر به

أبو جعفر فحمل إلى بغداد فسجنه بها . وكان يسجنه بالنهار ويبعث إليه بالليل يبيت عنده ويسامره يلبث نهاره أجمع بالسجن ثم يسامره بالليل ليظهر للناس أنه سجن أول من اعترض عليه لئلا يجترئ الجاهل فيقول قد وسع عفو أمير المؤمنين فلانا أفلا يسعني فكان دأبه هذا معه زمانا طويلا حتى نسي أمره وانقطع خبره ثم خلي سبيله فلحق بمكة فلم يزل بها حتى مات أبو جعفر وولي ابنه المهدي .

فلما حج المهدي فعل مثل ذلك ففعل به عبد الله بن مرزوق مثل ذلك أيضا فأراد قتله ف قيل له يا أمير المؤمنين إنه قد فعل هذا بأبيك فكان من صنيعة أن حمله إلى بغداد فسجنه بالنهار وسامره بالليل وأنت أحق من أخذ بهديه واحتذى على مثاله وورث أكروماته فحملة المهدي معه فمات ببغداد رحمه الله .

ذكر ما نال مالك بن أنس من جعفر بن سليمان

وذكر أنه هاج بالمدينة هيج في ابتداء أيام أبي جعفر المنصور فبعث إليها أبو جعفر ابن عمه جعفر بن سليمان بن العباس ليسكن هيجها وفتتها ويحدد بيعة أهلها فقدمها وهو يتوقد نارا على أهل الخلاف لهم فأظهر الغلظة والشدة وسطا بكل من ألد في سلطانهم وأشار إلى المنازعة لهم وأخذ الناس بالبيعة .

وكان مالك بن أنس رحمه الله لم يزل صغيرا وكبيرا محسدا وكذلك كل من عظمت نعمة الله عليه في علمه أو عمله أو فهمه أو ورعه فكيف بمن جمع الله ذلك فيه ولم يزل منذ نشأ كذلك قد منحه الله تعالى العلم والعمل والفهم واللب والنبل ووصل له ذلك بالدين والفضل عرف منه ذلك صغيرا وظهر فيه كبيرا واستلب الرياسة ممن كان قد سبقه إليها بظهور نعمة الله عليه وسموها به على كل سام فاستدعى ذلك منهم الحسد له وألجأهم ذلك إلى البغي عليه ففسدوا إلى جعفر بن سليمان من قال له إن مالكا يفتي الناس بأن أيمان البيعة لا تحل ولا تلزمهم لمخالفتك واستكراهك إياهم عليها وزعموا أنه يفتي بذلك أهل المدينة أجمعين لحديث رواه عن النبي ﷺ أنه قال (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه) فعظم ذلك على جعفر واشتد عليه وخاف أن ينحل عليه ما أبرم من بيعة أهل المدينة وهم أن يبدر فيه بما عافاه الله منه وأنعم على المسلمين ببقائه

فقيل له لا تبدر فيه ببادرة فإنه من أكرم الناس على أمير المؤمنين وآثرهم عنده ولا بأس عليك منه فلا تحدث شيئاً إلا بأمر أمير المؤمنين أو يستحق ذلك عندنا بأمر لا يخفى على أهل المدينة ففس إلى جعفر بن سليمان بعض من لم يكن مالك يخشى أن يؤتى من قبله ومن مأمّنه يؤتى الحذر فسأله عن الأيمان في البيعة فأفتاه مالك بذلك طمأنينة إليه وحسبة فيه .

فلم يشعر مالك إلا ورسول جعفر بن سليمان يأتيه فأتوا به إليها منتهك الحرية مزال الهيبة فأمر به فضرب سبعين سوطاً فلما سكن الهيج بالمدينة وتمت له البيعة بلغ بمالك ألم الضرب حتى أضجعه إنكار أبي جعفر المنصور لضرب مالك .

قال وذكروا أنه لما بلغ أبا جعفر ضرب مالك بن أنس وما أنزل به جعفر بن سليمان أعظم ذلك إعظاماً شديداً وأنكره ولم يرضه وكتب بعزل جعفر بن سليمان عن المدينة وأمر أن يؤتى به إلى بغداد على قتب وولي على المدينة رجلاً من قريش (1).

فاحذر العواقب

قال الزهري: ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين اسمع مني أربع كلمات، فيهن صلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك. قال: ما هن؟ قال: لا تعد أحداً عدة وأنت لا تريد إنجازها، ولا يغرنك مرتقى سهلاً إذا كان المنحدر وعراً، واعلم أن للأعمال جزاء فاحذر العواقب، وللدهر ثورات فكن على حذر (2).

إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك

ولما دخل ابن السماك على هارون قال له: عظمي. فقال: يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك، فلا ترض من نفسك إلا ما رضي به عنك، فإنك ابن عم رسول الله ﷺ وأولى الناس بذلك. يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليفاً أن يعتق نفسه. يا أمير المؤمنين من أذاقته

¹ (ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، 2 / 320)

² (ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، 2 / 320)

الدنيا حلاوتها بركون منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها. يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم على جنة عرضها السماوات والأرض، وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب. يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك، وإنك لا تقدم إلا على حالة نادم مشغول، ولا تخلف إلا مفتوناً مغروراً، وإنك وإيانا لفي دار سفر وجيران ظعن⁽¹⁾.

يا أمير المؤمنين إنما أنت سوق

ولما حج سليمان بن عبد الملك استحضر أبا حازم فقال له: تكلم يا أبا حازم. فقال: بم أتكلم؟ فقال: في الخروج من هذا الأمر. قال: يسيران أنت فعلته. قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ولا تضعها إلا في أهلها. قال: ومن يقوى على ذاك؟ قال: من قلده الله من الأمر ما قلذك. قال: عظمي يا أبا حازم. قال: يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك. ثم قال: يا أمير المؤمنين نزه ربك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك. يا أمير المؤمنين إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر، فاختر لنفسك أيهما شئت.

قال: فما لك لا تأتينا؟ قال: وما أصنع باتيانك؟ إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني أحزنتني، وليس عندي ما أخافك عليه ولا عندك ما أرجوك له. قال: فارفع إلي حوائجك. قال: قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها قبلت، وما منعني منها رضيت، يقول الله عز وجل: " نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا " الزخرف: 32. فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله، أو يزيد في قليل ما قسم الله؟ قال: فبكى سليمان بكاء شديداً فقال رجل من جلسائه: أسأت إلى أمير المؤمنين! فقال له أبو حازم: اسكت! فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. ثم خرج من عنده فلما وصل إلى منزله بعث إليه بمال فردده وقال للرسول: قل له يا أمير المؤمنين، والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي؟⁽²⁾

⁽¹⁾ ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، 2 / 320

⁽²⁾ ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، 2 / 320

ليس للمؤمن أن يذل نفسه

وقال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد، فبينما أنا نائم ليلة إذ سمعت قرع الباب فقلت: من هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين! فخرجت مسرعاً فإذا هو أمير المؤمنين فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرج إلا عالم، انظر لي رجلاً أسأله. فقلت له: ههنا سفيان بن عيينة. قال امض بنا إليه. فأتيناه فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: خذ لما جئنا له. فحادثه ساعة ثم قال: عليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا عباس اقض دينه، ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله.

ههنا عبد الرزاق بن همام. فقال امض بنا إليه نسأله. فأتيناه فقرعنا عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ فقلت: سبحان الله أو ما عليك طاعته؟ أوليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه؟ فنزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي فقال: أواه من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله! فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي. فقال: خذ لما جئنا له يرحمك الله. فقال: وفيم جئت؟ حطبت على نفسك وجميع من معك حطبوا عليك، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يتحملوا عنك شقصاً من ذنب ما فعلوا، ولكن أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة، دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي؛ فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة. فقال هل سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها الموت. وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك. وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت

النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واکره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت. وإني لأقول لك هذا وأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمر بك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق بأمر المؤمنين! فقال: يا ابن الربيع قتلت أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟ ثم أفاق فقال: زدني. فقال: يا أمير المؤمنين! بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكاً إليه فكتب إليه عمر: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبد، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً أو يقظاناً، وإياك أن تزل قدمك عن هذه السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك. فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم إليه، فقال عمر: ما أقدمك؟ فقال له: خلعت قلبي بكتابك، لا وليت لك ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى! فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال: زدني. فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاءه فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة. فقال له ﷺ: يا عباس يا عم النبي، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل. فبكى هارون بكاءً شديداً.

ثم قال: زدني يرحمك الله! فقال: يا حسن الوجه! أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعتك، فإن النبي ﷺ يقول: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة. فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم قال: عليك دين؟ قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم يلهمني حجتني! قال: إنما أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " " ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون " " إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " الذاريات: 56 - 58. فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك. فقال: سبحان الله! أنا أدلك على سبيل النجاة، وتكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده، فقال لي هارون: إذا دلتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين اليوم! وروي أن امرأة من نساءه دخلت عليه فقالت: يا هذا، أما ترى ما نحن فيه من ضيق الحال؟ فلو قبلت هذا المال لفرجت به عنا. فقال: إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بغير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه، موتوا يا أهلي جوعاً ولا تذبحوا فضيلاً. فلما سمع

الرشيد ذلك قال: أدخل فعسى أن يقبل المال. قال: فدخلنا عليه، فلما علم بنا الفضيل خرج وجلس على التراب على السطح، فجلس هارون إلى جانبه فجعل يكلمه وهو لا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد أذيت الشيخ هذه الليلة، فانصرف يرحمك الله! فانصرفنا (1).

ووعظ شبيب بن شيبه المنصور فقال: يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل فوقك أحداً، فلا تجعل فوقك شركاً شكراً.

إن هؤلاء قد اتخذوك سلماً إلى شهواتهم

وودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقراً: " والفجر وليالٍ عشر " الفجر: 2 و1 حتى بلغ " إن ربك لبالمرصاد " الفجر: 14، لمن فعل مثل فعالهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين فإن أبوابك ناراً تأجج، لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله، وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا مسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك! أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم إلا العدل لتقرب به إليك من لا يريده. فقال له سليمان بن مجالد: اسكت! فقد غممت أمير المؤمنين. فقال عمرو: ويحك يا ابن مجالد! أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه؟ اتق الله يا أمير المؤمنين فإن هؤلاء قد اتخذوك سلماً إلى شهواتهم، فأنت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب، وإن هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيئاً! وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً؟ فكيف من سفك دماء المسلمين وشق أبطارهم ونهب أموالهم؟ إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً عن غير عمد، فقال له جبريل عليه السلام: إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قلوب رعيته! يا أمير المؤمنين لو أن ثوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتقمصه؟ ولو أن ذنوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتجرعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يسلك فيها ويرد فضلها على عاتقه؟ ودخل بعض العقلاء على سلطان فقال له: إن أحق الناس

بالإحسان من أحسن الله إليه، وأولاهم بالإنصاف من بسطت يداه بالقدرة، فاستدم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق.

أكل المسلمين له مثل هذا المال؟

وروي أن أعرابياً قام بين يدي هشام بن عبد الملك فقال له: أيها الأمير أتت على الناس سنون ثلاثة: أما الأولى فأكلت اللحم، وأما الثانية فأذابت الشحم، وأما الثالثة فهأضت العظم، وعندك فضول أموال فإن كانت لله فأقسمها بين عباد الله، وإن كانت لهم فلم تحظر عليهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا إن الله يجزي المتصدقين. فأمر هشام بمال فقسم بين الناس وأمر للأعرابي بمال، فقال: أكل المسلمين له مثل هذا المال؟ قال: لا يقوم بذلك بيت المال. قال: لا حاجة لي فيما يبعث لأئمة الناس على أمير المؤمنين.

حاجتك؟

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين أذكر بمقامي هذا مقاماً لا يشغل الله عنك كثرة من تخاصم من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب. فبكى عمر بكاء شديداً ثم استرده الكلام، فجعل يردده وعمر يبكي وينتحب، ثم قال: حاجتك؟ فقال: عاملك بأذربيجان أخذ مني اثني عشر ألف درهم. فقال: اكتبوها له حتى ترد عليه.

فو الله ما من أحد من أمة محمد إلا وهو خصمك!

ولما دخل زياد على عمر بن عبد العزيز قال: يا زياد ألا ترى إلى ما ابتليت به من أمر أمة محمد ﷺ؟ فقال زياد: يا أمير المؤمنين والله لو أن كل شعرة منك قطعت ما بلغت كنه ما أنت فيه، فاعمل لنفسك في الخروج مما أنت فيه يا أمير المؤمنين كيف حال رجل له خصم ألد؟ قال: سيئ الحالة. قال: فإن كان له خصمان ألدان؟ قال: أسوأ الحالة. قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: لا يهنيه عيش. قال: فو الله ما من أحد من أمة محمد إلا وهو خصمك! فبكى حتى تمنيت أن لا أكون قلت له ذلك.

ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك ترجو رواجها عندك

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ربحوا فيها لآخرتهم وخرجوا بما يضرهم، فكم من قوم غرهم مثل الذي أصبحت فيه حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا مرملين، لم يأخذوا من الدنيا للآخرة، فأخذ مالهم من لا يحمدهم وصاروا إلى من لا يعذرهم؟ فانظر إلى الذي تحب أن يكون معك فقدمه بين يديك حتى تخرج إليه، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت فابتغ به البذل حيث يجوز البذل، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك ترجو رواجها عندك، يا أمير المؤمنين افتح الأبواب وسهل الحجاب وانصر المظلوم.⁽¹⁾

فقد قرب خيرها؟

وحضر رجل بين يدي بعض الملوك فأغلظ له السلطان، فقال له الرجل: إنما أنت كالسماء إذا أرعدت وأبرقت فقد قرب خيرها؟ فسكن غضبه وأحسن إليه.

يا وزير بئس المبلغ أنت!

ولما احتاج المنصور بن أبي عامر ملك الأندلس أن يأخذ أرضاً محبسة ويعاوض عنها خيراً منها، استحضر بعض الفقهاء إلى قصره فأفتوا بأنه لا يجوز، فغضب السلطان وأرسل إليهم رجلاً من الوزراء مشهوراً بالحدة والعجلة فقال لهم: يقول لكم أمير المؤمنين يا مشيخة السوء، يا مستحلي أموال الناس، يا آكلي أموال اليتامى ظلماً، يا شهود الزور وآخذي الرشاً وملقتي الخصوم، وملقحي الشرور وملبسي الأمور، وملتمسي الروايات لدى اتباع الشهوات، تباً لكم ولآرائكم! فهو أعزه الله واقف على فسوقكم قديماً وخونكم لأماناتكم مغضٍ عنه صابر عليه، ثم احتاج إلى دقة نظركم في حاجة مرة واحدة في دهره، فلم تشفعوا إرادته، ما كان هذا ظنه بكم، والله ليعارضنكم وليكشفن ستوركم، وليناصحن الإسلام فيكم! وأفحش عليهم بهذا ونحوه فأجابه شيخ منهم ضعيف الهمة فقال: نتوب إلى الله مما قاله أمير المؤمنين ونسأله الإقالة.

فرد عليه زعيم القوم محمد بن إبراهيم بن حيويه وكان جلدأ صارماً فقال للمتكلم: مم نتوب يا شيخ السوء؟ نحن براء من متابك! ثم أقبل على الوزير فقال: يا وزير بنس المبلغ أنت! وكل ما نسبته إلينا عن أمير المؤمنين فهو صفتكم معاشر خدمته، فأنتم الذين تأكلون أموال اليتامى بالباطل وتستحلون ظلمهم بالإخافة، وتنتجون معاشكم بالرشا والمصانعة، وتبغون في الأرض بغير الحق، وأما نحن فليست هذه صفاتنا ولا كرامه، ولا يقولها لنا إلا متهم بالديانة، فنحن أعلام الهدى وسرج الظلمة، بنا يتحصن الإسلام ويفرق بين الحلال والحرام وتنفذ الأحكام، وبنا تقام الفرائض وتثبت الحقوق وتحقق الدماء وتستحل الفروج، فهلا إذ عتب علينا أمير المؤمنين بشيء لا ذنب فيه لنا، وقال بالغيط ما قاله، تأنيت بإبلاغنا رسالته بأهون من إفحاشك، وعرضت لنا بإنكاره، ففهمناه منك وأجبناك عنه بما يصلح الجواب له، وكنت تزين على السلطان ولا تفشي سره، ولا تحيينا بما استقبلتنا به، فنحن نعلم أن أمير المؤمنين لا يتمادى على هذا الرأي فينا، ولا يعتقد هذا المعتقد في صفاتنا، وإنه سيراجع بصيرته في إثارنا وتعزيزنا، ولو كان عنده على هذه الحالة التي وصفتها عنا، والعياذ بالله تعالى من ذلك، لبطل عليه كل ما صنعه وعقده من أول خلافته إلى هذا الوقت، فلا يثبت له كتاب من حرب ولا سلم ولا شراء ولا بيع، ولا صدقة ولا حبس ولا هبة ولا عتق، ولا غير ذلك إلا بشهادتنا، هذا ما عندنا والسلام.

ثم قاموا منصرفين فلم يكادوا يبلغوا باب القصر إلا والرسل تناديهم، فدخلوا القصر فتلقاهم الوزراء بالإعظام ورفعوا منازلهم واعتذروا إليهم مما كان من صاحبهم، وقالوا لهم: إن أمير المؤمنين يعتذر إليكم من فرط موجدته، ويستجير بالله من الشيطان الرجيم ونزعتة التي حملته على الجفاء عليكم، ويعلمكم أنه نادم على ما كان منه إليكم، وهو مستبصر في تعظيمكم وقضاء حقوقكم، وقد أمر لكل واحد منكم بما ترون من صلته وكسوته علامة لرضاه عنكم، فدعوا له وقبضوا ما أمر لهم به وانصرفوا غالبين لم يمسسهم سوء⁽¹⁾.

بلى إني أعرفك

ولما نظر مالك بن دينار إلى المهلب بن أبي صفرة يجر أذياله ويتبخر في أثواب خيلائه، ناداه أن ارفع من ثيابك. فقال له المهلب: أوما تعرفني؟ قال له مالك: بلى إني أعرفك، أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة.

إني أحب أن أحج في كل عام

ويروى أن رجلاً قال لعبيد الله العمري: هذا هارون الرشيد في الطواف قد أخلي له المسعى، فقال له: لا جزاك الله عني خيراً كلفتني أمراً كنت عنه غنياً! ثم جاء إليه فقال: يا هارون! فلما نظر إليه قال: لبيك يا عم! قال: كم ترى ههنا من خلق الله تعالى؟ قال: لا يحصيهم إلا الله. قال: اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه، وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون؟ قال: فبكى هارون وجلس فجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً للدموع، ثم قال له: والله إن الرجل ليسرف في مال نفسه فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن أسرف في مال المسلمين؟ فيقال إن هارون كان يقول بعد ذلك: إني أحب أن أحج في كل عام، وما يمنعني من ذلك إلا عبيد الله العمري⁽¹⁾.

ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان

ويروى أن الحسن بن محمد بن الحسين دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له: يا عمر، ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان. فقال عمر: إيه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة! وجثي على ركبتيه، فقال الحسن: من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومن إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

قل ما بدا لك

ولما ولي عمر بن عبد العزيز وفد عليه الوفود من كل بلد، فوفد عليه الحجازيون فتقدم منهم غلام للكلام، وكان حديث السن، فقال عمر: لينطق من هو أسن منك. فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين! إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا. فقال عمر: صدقت! قل ما بدا لك.

فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين! نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة، وقد أتيناك لمن الله الذي من علينا بك، لم تقدمنا إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد أتتنا منك في بلادنا، وأما الرهبة فقد أمانا جورك بعدلك. فقال له عمر: عظمي يا غلام! فقال: أصلح الله أمير المؤمنين! إن ناساً غرهم حلم الله عليهم وطول أملمهم، وكثرة ثناء الناس عليهم، فزلت بهم أقدامهم فهووا في النار، فلا يغرنك حلم الله عليك وطول أملك، وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل بك قدمك فتلتحق بالقوم، فلا جعلك الله منهم وألحقك بصالحي هذه الأمة! ثم سكت، فسأل الإمام عمر الغلام عن سنه، فإذا هو ابن إحدى عشرة سنة، ثم سأل عن نسبه فإذا هو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فتمثل عمر عند ذلك بقول الشاعر:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

وفي مثل هذا قيل للعتابي، وكان لا يبالي بما لبس: ما لك لا تجيد الملبوس؟ فقال: إنما يرفع المرء أدبه وعقله لا حليته وحلته، لحى الله أمراً يرضى أن ترفعه هيئته وجماله! لا والله حتى يشرفه أصغراه: لسانه وقلبه، ويعلو به أكبراه: همته ولبه.

أبيت اللعن!

ولما دخل ضمرة بن ضمرة على المنذر بن المنذر وهو ملك، وكان ضمرة ذا رأي وعقل، احتقرته عينه لدمايته، فقال: لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه! ثم قال ضمرة: أبيت اللعن! إن القوم ليسوا بجزر تجزرن، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا نطق نطق ببيان، وإذا قاتل قاتل بجنان، والرجال لا تكال بالقفران ولا توزن بالقبان. فأعجب المنذر بكلامه.

إني صائم!

وروي أن روح بن زنباع كان في طريق مكة في يوم شديد الحر مع أصحابه، فنزلوا وضربت لهم الخيام والظلال، وقدم إليهم الطعام والشراب المبرد. فبينما هم كذلك وإذا هم براع، فدعاه إلى الطعام فأبى وقال: إني صائم! فقال له روح: في مثل هذا اليوم الحار؟ قال: أفأدع أيامي تذهب باطلاً؟ فقال له روح: لقد ضننت بأيامك يا راعي إذ جاد بها روح بن زنباع.

وهو لك لا عليك!

وروي أن أعرابياً قام بين يدي سليمان بن عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين، إني مكلّمك كلاماً فاحتمله إن كرهته، فإن وراءه ما تحب إن قبلته. فقال: هات يا أعرابي. فقال: إني سأطلق لساني بما خرست به الألسن لحق الله ولحق أمانتك! إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فأعظم الناس غبناً يوم القيامة من باع آخرته بدنيا غيره! فقال له سليمان: أما أنت فقد نصحت، وأرجو أن الله يعين على ما قلدنا وقد جردت لسانك وهو سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين، وهو لك لا عليك!

ولكن طبيته العافية!

وقال بن أبي العروبة: حج الحجاج فنزل بعض المياه بين مكة والمدينة ودعى بالغداء، وقال لحاجبه: انظر من يتغدى معي واسأله عن بعض الأمر. فنظر نحو الجبل فإذا هو براع بين شملتين نائم فضربه برجله وقال له: انت الأمير! فأتاه، فقال له الحجاج: اغسل يديك وتغدى معي. فقال: دعاني من هو خير منك فأجبتة. فقال: من هو؟ قال: الله تعالى دعاني إلى الصيام فصمت. قال: في هذا

الحر الشديد؟ قال: نعم صمت ليوم هو أشد حراً منه! قال: فافطر وصم غداً.
قال: إن ضمننت لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك إلي. قال: فكيف تسألني
عاجلاً بأجل لا تقدر عليه؟ قال: لأنه طعام طيب. قال: لم تطيبه أنت ولا الطباخ
ولكن طيبته العافية! (1)

والمدينة خير لهم ولو كانوا يعلمون.

ولما حج هارون الرشيد بعث إلى مالك بن أنس بكيس فيه خمسمائة دينار، فلما
قضى نسكه وانصرف ودخل المدينة بعث إلى مالك بن أنس أن أمير المؤمنين
يحب أن تنتقل معه إلى مدينة السلام. فقال للرسول: قل له إن الكيس بخاتمه.
وقال الرسول عليه السلام: والمدينة خير لهم ولو كانوا يعلمون.

أظننت أني جننتك بغيره؟

وقال وهب بن منبه رضي الله عنه: إن ملكاً كان يفتن الناس ويحملهم على أكل
لحم الخنزير، فأتى برجل أفضل أهل زمانه فأعظم الناس مكانه وهالهم أمره،
فراوده على أكل لحم الخنزير فرق له صاحب شرطة الملك وقال له: أنا آتيك
بجدي تذبحه مما يحل لك أكله، وإذا دعا الملك بلحم الخنزير أتيتك به ففعل، ثم
أتى به الملك فدعا بلحم الخنزير فأتى صاحب الشرطة بلحم ذلك الجدي، فأمر
به الملك أن يأكله، فأبى أن يأكله، فجعل صاحب الشرطة يغمزه أن يأكله فأبى
أن يأكله، فأمر صاحب الشرطة أن يقتله. فلما ذهب به قال: ما منعك أن تأكله
وهو اللحم الذي أنت ذبحته؟ أظننت أني جننتك بغيره؟ قال: لا قد علمت أنه هو،
ولكنني خفت أن يفتتن الناس بي، فإن أكرهوا على أكل لحم الخنزير قالوا قد
أكله فلان، فيستن بي فأكون فتنة لهم. فقتل رحمه الله.

يا رب أمتي أمتي لا أسألك غيرها!

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار: يا كعب خوفنا!
قال: أوليس فيكم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؟ قال: بلى يا كعب ولكن خوفنا!
قال: يا أمير المؤمنين، اعمل عملاً وجل لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً
لازدرت عملهم مما ترى. فأطرق عمر ملياً ثم أفاق فقال: يا كعب خوفنا! فقال:
يا أمير المؤمنين، لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب

لغلى دماغه حتى يسيل من حرها! فبكى عمر ثم أفاق فقال: يا كعب زدنا. فقال: يا أمير المؤمنين، إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة، فما يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر على ركبتيه حتى يخر إبراهيم خليل الرحمن على ركبتيه يقول: يا رب إني لا أسألك اليوم إلا نفسي إلا محمد ﷺ يقول: يا رب أمتي أمتي لا أسألك غيرها!

حب عباد الله موصول بحب الله

واستأذن ابن دهمان على بعض الأمراء فحجبه ثم أذن له، فلما دخل قال: إن هذا الأمر الذي صار إليك قد كان في يدي غيرك، فأمسوا والله حديثاً فإن خيراً فخير وإن شراً فشر، فتحبب إلى عباد الله بحسن البشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب، فإن حب عباد الله موصول بحب الله وبغضهم موصول ببغضه، لأنهم شهداء الله على خلقه.

فصارت السنة بينكم بدعة وشهرة

ولما دخل محمد بن واسع سيد العباد في زمانه على بلال بن أبي بردة أمير البصرة، وكان ثوبه إلى نصف ساقه، قال له بلال: ما هذه الشهرة يا ابن واسع؟ فقال له ابن واسع: أنتم شهرتمونا، هكذا كان لباس من مضى وإنما أنتم طولتم ذيولكم فصارت السنة بينكم بدعة وشهرة⁽¹⁾.

فإن الله سائلك عن النقيير والقطمير والفتيل

قال الطرطوشي: لما دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش وهو ملك مصر فقلت: سلام عليكم ورحمة الله، فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً، وأكرم إكراماً جزيلاً وأمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك، إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً شامخاً وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً، وملكك طائفة من ملكه وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحداً أولى بالشكر منك. وإن الله سبحانه قد ألزم الورى طاعتك فلا يكون أحد أطوع لك منك، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعال والإحسان. قال الله تعالى: " اعملوا آل داود شكراً " سبأ: 13. واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو

خارج عن يديك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة فإن الله سائلك عن النقيير والقطمير والفتيل.

قال الله تعالى: " فورك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون " الحجر: 92 و93. وقال الله تعالى: " وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " الأنبياء: 47. واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها لسليمان بن داود عليهما السلام، فسخر له الإنس والجن والطير والشياطين والوحوش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له:

" هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب " ص: 39. فوالله ما عدها نعمة كما عدتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله تعالى ومكراً به، فقال: " هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر " النمل: 40. فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم، أعانك الله على نصر المظلوم وجعلك كهفاً للملهوف وأماناً للخائف. ثم أتممت المجلس بأن قلت: قد دورت البلاد شرقاً وغرباً، فما اخترت مملكة تزوجت فيها وولد لي فيها غير هذه المملكة، ثم أنشد:

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلاً ... حتى يروا عنده آثار إحسان

وكتب حكيم إلى حكيم: إني سائلك عن ثلاثة أشياء إن أجبت عنها صرت لك تلميذاً: أي الناس أولى بالرحمة، ومتى تضيع أمور الناس، وبم تتلقى النعمة من الله تعالى؟ فكتب إليه: إن أولى الناس بالرحمة ثلاثة: البر يكون في السلطان الفاجر، فهو الدهر حزين لما يرى ويسمع. والعاقل يكون في تدبير الجاهل، فهو الدهر متعوب مهموم. والكريم يحتاج إلى اللئيم فهو الدهر خاضع له. وتضيع أمور الناس إذا كان الرأي عند من لا يصله، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه. وتتلقى النعمة من الله تعالى بكثرة شكره ولزوم طاعته واجتناب معصيته. فصار تلميذاً له إلى أن مات⁽¹⁾.

إنك لتجيء بالعجب!

وقال يحيى بن سعيد: حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فلما أشرفا على عقبة عسفان نظر سليمان إلى السراذقات قد ضربت له، فقال له: يا عمر كيف ترى؟ قال: أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضاً، وأنت المسؤول عنها المأخوذ بها. فبينما هو كذلك إذ طار غراب من سرادق سليمان في منقاره كسرة فصاح، فقال سليمان: ما يقول هذا الغراب؟ فقال عمر: ما أدري ما يقول، ولكن إن شئت أخبرتك بعلم. قال: أخبرني. قال: هذا غراب طار من سرادقك في منقاره كسرة، أنت بها مأخوذ مسؤول عنها من أين دخلت ومن أين خرجت؟ قال: إنك لتجيء بالعجب! قال: أفلا أخبرك بأعجب من هذا؟ قال: بلى. قال: من عرف الله كيف عصاه، ومن عرف الشيطان كيف أطاعه، ومن أيقن بالموت كيف يهنيه العيش؟ قال: لقد غشيت علينا ما نحن فيه. ثم ضرب فرسه وسار.

نسيت شيئاً فأذكركه !

ويروى أن بلال بن أبي بردة خرج في جنازة وهو أمير على البصرة، فنظر إلى جماعة وقوفاً فقال: ما هذا؟ قالوا: مالك بن دينار يذكر الناس. فقال الوصيف معه: اذهب إلى مالك بن دينار فقل له يرتفع إلينا إلى القبر. فجاء الوصيف فأدى الرسالة إلى مالك فصاح به مالك: لا، ما لي إليه حاجة فأجيبه فيها، فإن تكن له حاجة فليجئ إلى حاجة نفسه. فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه إلى حلقة مالك، فلما دنا منها نزل ونزل من معه، ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس، فلما رآه مالك بن دينار سكت فأطال السكوت، فقال له بلال: يا أبا يحيى ذكرنا. قال: نسيت شيئاً فأذكركه !. قال له: فحدثنا. قال: أما هذا فنعم.

قدم علينا أمير من قبلك على البصرة، فمات فدفناه في هذه الجبانة، ثم أتينا بزنجي فدفناه إلى جنبه، فوالله ما أدري أيهما كان أكرم على الله سبحانه وتعالى. فقال بلال: يا أبا يحيى أتدري ما الذي جراك علينا وما الذي سكتني عنك؟ قال: لا. قال: لأنك لم تأخذ من دراهمنا شيئاً، أما والله لو أخذت من دراهمنا شيئاً ما اجترأت علي هذه الجرأة! فأفادني هذا الحديث علماً ألا فاتقوا دراهمهم.

إن الناس ليفرونا عن ديننا

ودخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال: يا ابن شهاب ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: حدثونا أن الله تبارك وتعالى إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيئات! قال: كذبوا يا أمير المؤمنين! أنبي خليفة أقرب إلى الله أم خليفة ليس بنبي؟ قال: بل نبي خليفة. قال: أنا أحدثك يا أمير المؤمنين بما لا شك فيه، قال الله تعالى لنبيه داود: " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " ص: 26. يا أمير المؤمنين، هذا وعيد الله لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي؟ فقال الوليد: إن الناس ليفرونا عن ديننا. (1).

أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذقني ضعف الحياة وضعف الممات

حكى أن سليمان بن عبد الملك لما قدم المدينة أقام بها ثلاثاً فقال ما ها هنا رجل ممن أدرك الصحابة يحدثنا فقل له إن ها هنا رجلاً عابداً من التابعين اسمه أبو حازم أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ونقل عنهم الأحاديث فبعث إليه فلما جاءه واستقر به المجلس قال له سليمان يا أبا حازم ما لنا نكره الموت قال لأنكم أخرجتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب قال صدقت يا أبا حازم فكيف القدوم على الله تعالى قال أما المحسن فكغائب يقدم على أهله وأما المسيء فكالعبد الأبق يقدم على مولاه قال فبكى سليمان وقال ليت شعري ما لنا عند الله يا أبا حازم فقال إعرض نفسك على كتاب الله تعالى فإنك تعلم مالك وما عليك قال وأين أصيب ذلك من كتاب الله قال عند قوله تعالى { إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم } قال يا أبا حازم فأين رحمة الله تعالى قال { قريب من المحسنين } قال فبكى سليمان وأطرق ساعة ثم رفع رأسه إليه وقال يا أبا حازم من أعقل الناس قال من تعلم الحكمة وعلمها الناس قال فمن أحقق الناس قال من دخل في هوى رجل ظالم المنهج السلوك في سياسة الملوك فباع آخرته بدنياه غيره قال فما تقول فيما نحن فيه فقال أعفني من هذا السؤال قال سليمان إنما هي نصيحة بلغتها فقال إن ناساً أخذوا هذا الأمر من غير مشورة من المسلمين ولا إجماع من رأيهم فسفكوا

الدماء على طلب الدنيا ثم ارتحلوا عنها فليت شعري ما قالوا وما قيل لهم فقال رجل من جلسائه بنس ما قلت يا شيخ قال أبو حازم كذبت والله يا جليس السوء إن الله تعالى أخذ الميثاق على العلماء ليبينه للناس ولا يكتُمونه فقال سليمان يا أبا حازم كيف لنا على الصلاح قال تدع التكلف وتتمسك بالنصفة قال فكيف طريق المأخذ لذلك قال تأخذ المال من حله وتضعفه في أهله قال ومن يقدر على ذلك قال من قلده الله تعالى من الأرض ما قلذك . قال أصحابنا يا أبا حازم تصيب منا ونصيب منك قال أعوذ بالله من ذلك قال ولم ذاك قال أخاف أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذقني ضعف الحياة وضعف الممات قال يا أبا حازم فدلني على ما أصنع قال اتق الله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك قال ادع لنا يا أبا حازم قال اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى فعل الخير واصلحه في الدنيا والآخرة فقال سليمان يا غلام أعط أبا حازم مائة دينار ليقضي بها دينه قال لا حاجة بي إليها فإني أخاف أن تكون عوضا عن كلامي فيكون أكل الميتة أحب إلي من أخذها ثم نهض فخرج من عنده فلما كان من الغد بعث إليه فأحضره عنده فلما دخل عليه قال يا أبا حازم عظنا عظة ننتفع بها قال إن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك فبكى سليمان وكان يسقط على جنبه فلما أفاق قال أبو حازم إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر لنفسك أيهما شئت قال سليمان إرفع إلي حوائجك يا أبا حازم قال هيهات فإني قد رفعتها إلى من لا تحتجب دونه الحوائج فما أعطاني منها قنعت وما منعني منها رضيت وذلك أني نظرت في هذا الأمر فإذا هو على قسمين أحدهما لي والآخر لغيري أما ما كان لي فلو أني احتلت فيه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه الذي قدر لي فيه وأما الذي لغيري فذلك الذي لا تطمع نفسي فيه وكما منع غيري من رزقي كذلك منعت أنا من رزق غيري ثم تركه وانصرف قال فما برح سليمان بعد ذلك متواضعا حتى مات⁽¹⁾

لا والله لا أعمل على شيء

استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه على حمص وأعمالها فلبث بها سنة كاملة فجلس يوما وعنده رجل من أصحاب

⁽¹⁾ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة الملوك ، تحقيق علي عبد الله الموسى ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، سنة النشر 1407هـ - 1987م ، ص 721-717

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد أتاه يستدعي منه ما اجتمع عنده من المال فحضر عنده رجل معاهد فجعل يتكلم ويرفع صوته فقال له عمير اسكت أخزأك الله فقال له الرجل الذي عنده من اصحاب عمر يا عمير أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أنا ولي خصم المعاهد واليتيم ومن خاصمه خصمته يا عمير اتق من فوقك يتقك من تحتك وكما تحب أن يصنع الله بك فاصنع برعيتك قال فبكى عمير بكاء شديدا ثم انثنى إلى منزله فعمد إلى جراب زاده واداته وقصعته فعلقهن على عصاة وحملهن على عاتقه وخرج من حمص ماشيا حتى قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسلم عليه فرد عليه السلام متثاقلا ثم قال له عمير ما هذا الذي أرى بك من سوء الحال أمرضت بعدي أم بلادك بلاد سوء أم هذه خديعة منك فقال له عمير يا امير المؤمنين ألم ينهك الله عز وجل عن التجسس ثم ما الذي ترى بي من سوء الحال أأست تراني صحيح البدن قد جئتكم أحمل الدنيا فقال له عمر وما الذي جئت به من الدنيا قال جرابي فيه زادي وإداتي فيها مائي لشرابي ووضوئي وقصعتي لعجيني وعكازي أذب بها عن نفسي قال عمر صدقت رحمك الله فما فعل المسلمون قال عمير تركتهم يوحدون الله تعالى ويصلون ولا تسألني عما وراء ذلك قال فما فعل أهل الذمة قال أخذنا منهم الجزية عن يد وهم صاغرون قال فما اجتلبت من المال قال ما أنت وذاك إني لما قدمت حمص اجتهدت رأي وجمعت من بها من المسلمين فاخترت منهم رجالا فاستعملتهم ثم نظرت فيما اجتمع من المال فقسمته في أهله ولو كان عندنا فضل لأتاك فقال يا عمير واين راحلتك قال لم يكن لي راحلة فقال أما كان في ريعتك من يتبرع لك بدابة تركبها بنس المسلمون وبنس المعاهدون ثم قال لابنه عبد الله جنني بصحيفة لأجدد لعمير عهدا ليرجع إلى عمله فقال عمير لا والله لا أعمل على شيء أبدا قال عمر ولم ذاك قال لأنني ما نجوت فإني قلت يوما لمعاهد أخزأك الله وقد قال رسول الله ﷺ أنا ولي خصم المعاهد واليتيم ومن خاصمه خصمته فنهض عمر وأخذ بيد عمير ثم أتى قبر رسول الله ﷺ فقال السلام عليك يا رسول الله ثم قال السلام عليك يا أبا بكر ثم بكى عمر وقال ماذا لقيت بعدكما اللهم ألهمني بصاحبي لم أغير ولم أبدل وبكا معه عمير طويلا ثم قال يا عمير الحق بأهلك وكان أهله على مسيرة ثلاثة فراسخ من المدينة قال ثم قدم بعد ذلك رجل على عمر بمال من عند بعض عماله فدعى رجلا من أصحابه اسمه حبيب فدفع إليه صرة فيها مائة دينار وقال انطلق إلى منزل عمير فأقم عنده ثلاثا وتفقد حاله ثم أعطه هذه الصرة فأتاه حبيب فوجده بفناء بيته يتفلى في الشمس فسلم عليه

فقال له عمير من أين أقبلت قال من المدينة قال كيف تركت عمر قال صالحا قال لعله جار في الحكم قال لا قال فلعنه وضع السوط في أهل القبلة قال لا ولكنه ضرب ابنا له الحد فمات فقال اللهم اغفر لعمر فإنه يحبك ويحب رسولك ويحب إقامة الحد فنزل عنده حبيب ثلاثة أيام يقريه كل يوم قرصا مádوما بزيت فلما انقضت الثلاث قال له عمير ارتحل عنا رحمك الله فقد أجمعنا وإنك لم تصادف عندنا فضلا ولكن آثرناك فقال له حبيب خذ هذه الصرة فإن عمر بعثها إليك فلما صارت في يده قال صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نبتل بشيء من الدنيا وصحبت أبا بكر كذلك ثم صحبت عمر فشر أيامي يوم صحبت عمر وجعل ينتحب ويبكي فقالت له امرأته لا تبك رحمك الله ضعها حيث شئت قال صدقت فاطرحي إلي بعض خلقائك ففعلت فجعل يصير الدنانير ثلاثة وأربعة وفوق ذلك حتى قسمها في فقراء جيرانه وعاد حبيب إلى عمر فأخبره فارتاع لذلك ولبت أياما واستدعى عميرا فقال له ما صنعت بالدنانير قال أقرضتها ربي ليوم فقري قال هل عليك دين قال لا فأمر عمر رضي الله عنه له بوقر بعير تمرا وبثوبين فقال أما الثوبان فاقبلهما وأما التمر فلا حاجة بي إليه لأنني قد تركت عند أهلي صاعا من الشعير وهو مبلغهم إلى وقت ثم انصرف عمير إلى أهله فقال ما لبت أن توفي فجزع عليه عمر رضي الله عنه وقال لأصحابه تمنوا فتمنوا فقال لكني أتمنى رجالا مثل عمير استعين بهم على أمور المسلمين⁽¹⁾

فأين المهرب

ركب النعمان بن أمري القيس بن عمرو الأكبر حتى أشرف على الخورنق وهو الذي بناه فلما نظر إلى ما حوله وكان في فصل الربيع وقد أخذت الأرض زينتها فرح طرفه مليا فيما حوله وكان معجبا بالشقائق التي يقال لها شقائق النعمان ومن أجل إعجابه بها وتتبعه لها في الرياض نسبت إليه قال وكان هناك روضة شقائق فلما تأملها ورأى حسن تنضد الشقيق في منابته وقتو حمرة وخضرة سوقه وميسه وهبوب النسيم عليه وتناثر القطر في أرجائه ارتاح قلبه إليه فأمر أن يبسط له بازاء تلك الروضة بساط وشى من الحرير المخمل فكان البساط كأنه روضة مختلفة بأصناف النوار وضربت عليه قبة من الديباج الأحمر منضدة من الحشايما يضاهاها ويجانسها في لونها ولبس من

¹ (عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة الملوك ، ص 993- 997)

ثياب الحرير افضل ما عنده ثم جلس في تلك القبة مواجهاً لتلك الروضة وعنده
أكابر قواده وخواص مملكته ووجوه رعيته وفيهم عدي بن زيد قال فأعجب
الملك بما هو فيه فقال لجلسائه هل رأيتم مثل ما أنا فيه أو علمتم أن أحدا أوتي
مثل ما أوتيت قالوا لا أيها الملك ما رأينا مثلك وعدي بن زيد ساكت لا يتكلم
فنظر إليه الملك مستدعياً لكلامه فقال عدي أيها الملك إن أذنت لي تكلمت فقال
تكلم قال رأيته ما جمعت أشيء هو لك لم يزل أم شيء كان لمن كان قبلك زال
عنه وصار إليك قال بلى كان لمن كان قبلي ثم صار إلي قال أفيزول عنك إلي
غيرك أم يبقى إليك قال بلى يزول عني ويصير إلي غيري قال فأراك أيها الملك
سررت بشيء تذهب عنك لذته ويبقى عليك تبعته تكون فيه قليلاً وترتهن فيه
طويلاً قال فبكى النعمان وقال له يا عدي فأين المهرب قال أحد أمرين الأول أن
تقيم في ملكك وتعمل بطاعة ربك على ما سررك وساءك والثاني أن تضع تاجك
وتخلع أطمارك وتلبس أمساحك ثم تلحق ببعض الجبال وحدك تعبد ربك حتى
يأتيك أجلك قال إذا فعلت ذلك فمالي عنده قال حياة لاتموت وشباب لا يهرم
وصحة لاتسقم وملك جديد لا يبلى قال وكل ما أرى إلى فناء وزوال قال نعم قال
فأي خير فيما يفنى ويزول ثم إنه ركب من موضعه وسار طالبا قصره وإلى
جانبه عدي بن زيد فأتوا على مقبرة فقال عدي أتدري ما تقول هذه المقبرة
أيها الملك قال لا قال إنها تقول

أيها الركب المحثون ** على الأرض المجدون

كما أنتم كذا كنا ** كما نحن تصيرون

قال ثم ساروا فمروا بشجرات متناوحات عند عين جارية فقال عدي أيها الملك
أتدري ما تقول هذه الشرجات قال لا قال إنها تقول :

(من رآنا فليحدث نفسه ** أنه موف على قرن زوال)

(وصروف الدهر لا يبقى لها ** ولما تأتي به صم الجبال)

(رب ركب قد أناخوا حولنا ** يشربون الخمر بالماء الزلال)

(عمروا دهرا بعيش حسن ** أفن ربي دهرهم غير عجال)

(ثم أضحوا عصف الدهر بهم ** وكذاك الدهر حالا بعد حال)

فلما انتهى الملك إلى قصره التفت إلى عدي وقال قد علمت أن المقبرة والشجرات لا يتكلمن وإنما قصدت بذلك عظتي وقد حصلت الموعظة فإذا كان السحر أحضر عدي فإن عدي خيرا حتى أطلعك عليه فلما كان وقت السحر حضر عنده عدي فوجده قد لبس مسوح الشعر وأخذ أهبة السياحة فودع عديا ثم ارتقى إلى جبل فلم يزل هناك يعبد ربه حتى لحق به رحمه الله تعالى⁽¹⁾

دارا تخرب وصاحبها يموت

روى نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان فيمن سلف ملك دان له الناس فلما أعجب بملكه قال لوزرائه وقهارمته ابنوا لي دارا لا يكون فيها عيب ففعلوا ذلك قال اتخذوا لي فيها طعاما لا يكون فيه عيب ففعلوا ذلك وأمر أن يدعى الناس إلى طعامه في تلك الدار ثم أقعد بالباب رجلين وأمرهما أن يسألا كل من خرج من الدار هل رأى فيها عيبا أو في الطعام قال فمر بهما رجلان عليهما ثياب الشعر فسألهما فقالا نعم رأينا في الدار عيبين قبيحين قال وما هما قالا رأينا دارا تخرب وصاحبها يموت فمضيا وأخبر الملك بما قالا فأحضرهما وسألهما فذكرا له ذلك فأطرق الملك ساعة ثم قال لهما فهل تعرفان دارا لا تخرب ولا يموت صاحبها قال نعم قال وأين هي فقالا هي دار الله تعالى ربنا وربك وهي الجنة التي يدوم نعيمها ولا يزول ملكها قال فوصفاها لي فوصفاها له قال وبأي شيء تنال هذه الدار فقالا بعبادة الله تعالى والانقطاع إليه قال وكيف تكون العبادة فشرحا له الدين فوقع في قلبه أنه الحق فقال لهما أقيما عندي هذه الليلة حتى أنظر فيما ذكرتماه لي فإن أقمت في ملكي جعلتكما وزيرين لا أعصيكما وإن خرجت منه تبعتكما على أمركما ثم قام فدخل على ابنه له وكانت عاقلة فهمة فقص ما ذكراه له وأخبرهما أنه تارك لملكه وخارج معهما فقالت يا أبتى تنجي نفسك وتتركني أهلك قال يا بنية أنت عورة فكيف أصنع بك فقالت إني أكف شخصي فلا يعلم أحد أذكر أنا أم أنتى قال فاخلعي ثيابك واحترمي ففعلت ذلك وخرجت مع أبيها إلى الرجلين فقال لهما سيروا بنا ما دام علينا ظلام الليل وهذا ولدي معي فساروا حتى قطعوا المدينة وخرجوا منها ثم ساروا حتى جاوزوا مملكة ذلك الملك ثم ساروا حتى بلغوا إلى دير فقالا له هذا موضعنا الذي نعبد ربنا فيه فدخلوا إليه جميعا فأقام عندهما مدة طويلة يتعلم منهما الدين وأحكام الشريعة ثم تجهز للخروج عنهما فقالا له

⁽¹⁾ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة

ما شأنك هل آذاك أحد منا قال لا ولكني أراكما تكرمانني لما كنت فيه من الملك فأريد أن آتي موضعا لا أعرف فيه فأكون في غمار الناس فتركاه ومضى حتى أتى ديرا كبيرا كثير الأهل فيه مساكن كثيرة فقال هل من منزل فقيل له ادخل فدخل واختار مسكنا فكان هو وابنته يعبدان الله تعالى فيه وكان لأهل ذلك الدير مزرعة وعلى كل رجل من سكان الدير حراستها سنة كاملة فبلغت النوبة إلى الشيخ وكان مريضا فقيل له في ذلك فقال إن عذري واضح فقالت له ابنته يا ابت انا أخرج عنك فخرجت إلى المزرعة وهي مستترة فما كان يراها الناس إلا قائمة تصلي أو في أمر هي به مغتبطة قال وكان بقربهم دير صغير ينسب إلى رجل بعينه وكانت له ابنة جميلة فجاءت تلك الابنة فاتصلت بها وهي تظن أنها غلام فجعلت تعرض عليها نفسها وجعلت تلك تعتصم بها من شرها فلما رأت الجارية أنها لا تفعل قالت والله لا هلكنك ولا هلكن أباك ثم أنها ذهبت إلى راعي فأمكن نفسها منه فحملت فلما عظم بطنها قال لها أبوها ما هذا قالت إني كنت عند ولد الشيخ مطمئنة إليه لما رأيت من كثرة عبادته واجتهاده وكان هذا منه فجاء أبوها وأهل ديره فأخبروا أهل ذلك الدير الكبير بذلك وقالوا لا ينبغي أن يكون هذا الشيخ وولده عندكم وهموا بإخراجه إلا أنه لشدة مرضه لم يقدروا على ذلك ثم توفي الشيخ مكانه فلم يأخذوا في جهازه فقال علماءهم إنه لا ذنب له فاغسلوه وكفنوه وادفنوه واطردوا ابنه فلا يدخل ديركم ففعلوا ذلك فقال دعوني ابني لي بيتا في الصحراء أحرس نفسي فيه من السباع فبنت لها بيتا فكانت فيه تعبد الله تعالى وتزور قبر أبيها حتى كانت ليلة من الليالي مر بها رجل من أهل الدير فإذا باب بيتها مفتوح فناداه يا فتى فأجابته بصوت ضعيف فقال أحسبك مريضا قال نعم قال فهل لك حاجة قال نعم إذا انا مت فلا تكشفوني ولا تنزعوني أثوابي واغسلوني فيها وادفنوني إلى قبر أبي فقد حفرت إلى جانبه قبرا ثم أصبحوا فإذا قائل يقول مات الفتى ولد الشيخ فقال علماءهم لا نغير سنتنا أبعثوا إليه من يغسله مجردا من ثيابه ثم كفنوه وادفنوه إلى جانب قبر أبيه كما أوصى قال فلما جاء الرجال فكشفوا عنها ليغسلوها فوجدوها امرأة فغطوها وتنادوا في الدير إن الذي طردتموه إنما هو امرأة فابعثوا إليها النساء فغسلوها فلما جهزوها حشدوا إلى الصلاة عليها جميع من في تلك الأرض ثم دفنوها إلى جانب قبر أبيها قال عبد الله بن عمر فلقد كان أهل تلك الناحية إذا قحطوا جاؤوا إلى قبريهما فاستقوا الله تعالى فيسقون والله سبحانه وتعالى أعلم⁽¹⁾

⁽¹⁾ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة

استمع ما تقول هذه الشعرة

حكى أن ملكا من اليونان قام من منامه في بعض الغدوات فأتته القيمة على ملابسه بثيابه فلبسها ثم ناولته المرأة فنظر فيها وجهه فرأى في لحيته شعرة بيضاء فقال لها هات المقرض فأتته به فقصها فتناولتها الجارية وكانت حكيمة لبية عاقلة فوضعتها في كفها وأصغت إليها بأذنها والملك ينظر إليها فقال ما هذا الذي تصنعين قالت استمع ما تقول هذه الشعرة التي عظم مصابها بمفارقة الكرامة لما سخطها الملك فأقصاها فقال الملك وما الذي سمعت من قولها فقالت زعم قلبي أنه سمعها تقول كلاما لا يجترىء عليه لساني خوفا من سطوة الملك فقال لها الملك قل لي ما شئت آمنة إن لزمتم قانون الحكمة فقالت إنها تقول أيها المسلط إلى أمد قصير إني كنت قد علمت منك البطش بي والاعتداء علي إذا ظهرت على ظاهر بشرتك فلم أظهر في وقتي هذا حتى عهدت إلى أخواتي من بعدي في الأخذ بثأري منك أما باستيصالك وأما بتنقيص لذتك وتنقيص قوتك حتى تعد الموت راحة لك قال فقال لها الملك اكتبي كلامك فكتبته له في لوح فجعل يتدبره ساعة ثم نهض مبادرا فأتى هيكلا من هياكلهم فنزع عنه تاجه وثياب الملوك وتزيا بزي النساء وبلغ ذلك أهل مملكته فبادروا إليه وطالبوه بأن يعود إلى ملكه وتديبره فامتنع عليهم وسألهم إقالاته وتمليك غيره فامتنعوا عليه وهموا بأخذه قهرا فاصطلح أهل الهيكل معهم على أن يتركوه في الهيكل يعبد ربه ويستنيب غيره فيما يستتاب في مثله من الأمور ويولي هو غير ذلك من الأمور العظام بنفسه مع إقامته في الهيكل فلبث على هذا الأمر حتى قبضه الله الله تعالى إليه⁽¹⁾

الآن علمت أن للملك والمملوك ربا لا يزول

يحكي أن ملكا من الملوك كان كافرا عاتيا متكبرا حديث السن مستحكم الغرة وكان إذا ركب لم يرفع أحد صوته إلا بالثناء عليه وكان له وزير مؤمن بالله تعالى قد أدرك بعض حوارى المسيح وهو يكتم إيمانه ويتحين وقتا يمكن فيه دعوة الملك إلى الله تعالى فركب الملك يوما فسمع شيخا رافعا صوته لبعض شأنه فقال لبعض الأعوان خذوه فلما أخذوا ذلك الشيخ قال إن ربي الله فقال

الملوك ، ص 703- 706

⁽¹⁾ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة

الملوك ، ص 707-708

الوزير خلوا عنه فخلى عنه الأعوان فاشتد غضب الملك على الوزير ولم يمكنه الإنكار عليه في ذلك المقام فسكت ليوهم الناس أن الوزير فعل ذلك بأمره فلما عاد الملك إلى قصره أحضر الوزير وقال له ما دعاك إلى مناقضة أمري بمشهد من عبيدي فقال له الوزير إن لم يعجل الملك علي أريته وجه نصحي له وشفقتي عليه فيما أتيتك فقال الملك أرني ذلك فإني لا أعجل عليك فقال الوزير أسأل الملك أن يختبئ في مجلسه هذا خلف حجاب ويكون بحيث يرى ويسمع ما يكون مني فقعد الملك لذلك ثم إن الوزير أحضر قوساً جيدة صنعها للملك بعض خدمه وكتب الصانع اسمه عليها فأعطى القوس غلاماً له وقال له إني سأحضر صانع هذه القوس فإذا حضر وحادثته فاقراً أنت اسم صاحبها جهلاً حتى تعلم أنه قد سمعك ثم أكسرها وهو ينظر إليك فحضر القواس وفعل الغلام ما أمره به الوزير فلما كسر القوس لم يتمالك صانعها أن ضرب الغلام فشجه فقال الوزير أتضرب غلامي بحضرتي قال نعم لأنه كسر القوس التي هي صنعتي وعملي وهي في نهاية الجودة والحسن فلا شيء كسرها وهو يعلم أنها صنعتي قال الوزير فلعله ما علم أنها صنعتك قال بلى إن القوس قد أخبرته أنها صنعتي قال الوزير أرأيت قوساً تخبر قال نعم إن اسمي كان مكتوباً عليها وقد قرأه وأنا أسمع ثم إن الوزير صرف الصانع والغلام ثم قال للملك قد أوضحت لك نصحي وإشفاقي عليك وذلك أنك لما أردت البطش بالشيخ أخبرك أن الله ربه فخفت عليك من ربه أن يغضب له كما غضب هذا القواس لقوسه فقال له الملك وهل للشيخ رب غيري قال الوزير ألم يره الملك شيخاً والملك شاب فهل كان قبل أن يولد الملك لا رب له فقال الملك إن أبي كان ربه قال الوزير فما بال الرب هلك والمربوب بقي فسكت الملك ساعة ثم قال الآن علمت أن للملك والمملوك ربا لا يزول فهل تعرفه قال الوزير نعم أعرفه قال صفه لي ودلني عليه فشرع الوزير يشرح له صفات الخالق وأوضح له الدلالة على ذلك فأنشراح صدر الملك للإيمان فأمن بالله تعالى فلما رسخ في قلبه التوحيد قال له أما لربنا خدمة نتقرب إليه بها قال إنه غني عن كل شيء قال فما أمرنا بشيء إذا فعلنا حظينا عنده قال بلى إن له وظائف أمرنا بها ورضي لنا فعلها ووعدنا عليها رضوانه والقرب منه فسأله عنها فذكر له الصلاة والصيام وغيرهما من شرائع المسيح عليه السلام فعرّفها الملك وراض نفسه بها حتى صارت له طبعاً ثم قال يوماً للوزير مالك لا تدعو الناس إلى الله تعالى كما دعوتني فقال لأن الأمة ذات قلوب قسية وفهوم قسية ونفوس عسوية ولست آمنهم على نفسي فقال الملك أنا أفعله إن لم تفعله أنت فقال الوزير ليعلم الملك أنهم إن لم

تردهم هيبتة عني لم تردهم عنه وسأقيه بنفسه آيسا من النجاة فليحذرهم الملك على نفسه إن اجترؤا بالقتل ثم إن الوزير أحضر وجوه أهل تلك المملكة وولاة أحكام رعاياه وأفاضلها فلما اجتمعوا في منزله قام فيهم خطيباً ثم بالدعوة إلى التوحيد فتواثبوا عليه فقتلوه ثم أتوا إلى الملك فأخبروه بما كان من وزيره فأظهره لهم الرضى بقتله فانقلبوا عنه راضين ثم إن الملك ضاق صدره على وزيره فلما كان الليل لبس مسح الشعر والتحق بالرهبان ونبذ ما كان فيه من الملك ولم يزل يعبد الله حتى قضى نحبه⁽¹⁾

كيف لي بالرجال؟

قال عبد الرحمن بن زياد: أرسل إلي أبو جعفر المنصور، فقدمت عليه، فدخلت والربيع قائم على رأسه، فاستدنانني ثم قال لي: يا عبد الرحمن، كيف ما مررت به من أعمالنا إلى أن وصلت إلينا؟ قال: قلت: رأيت يا أمير المؤمنين أعمالاً سيئة، وظلماً فاشياً، وظننته لبعد البلاد منك، فجعلت كلما دنوت منك كان أعظم للأمر. قال: فنكس رأسه طويلاً ثم رفعه إلي فقال: كيف لي بالرجال؟ قلت: أفليس عمر بن عبد العزيز كان يقول: إن الوالي بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها، فإن كان براً أتوه ببرهم، وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم. قال: فأطرق طويلاً، فقال لي الربيع وأوماً إلي أن اخرج، فخرجت، وما عدت إليه.

فإذا الجور يخرج من دارك

وحدث إسماعيل بن عياش قال: ظهر بإفريقية جور من السلطان. فلما قام أبو العباس قدم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم على أبي جعفر فشكى إليه العمال ببلده، فأقام ببلاده أشهراً ثم دخل عليه فقال: ما أقدمك! فقال: ظهر الجور ببلدنا، فجئت لأعلمك فإذا الجور يخرج من دارك، فغضب أبو جعفر، وهم به ثم أمر بإخراجه.

¹ (عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة الملوك ، ص 709-711

أنقندي بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الخونة

خطب عبد الملك بن مروان ، فلما بلغ الغلظة قام إليه رجل من آل صوحان فقال : مهلاً مهلاً يا بني مروان ، تأمرون ولا تأتمرون ، وتتهون ولا تُتهون ، وتَعْظون ولا تتَعْظون ؛ أفنقندي بسيرتكم في أنفسكم ، أم نطيع أمركم بالسنتكم ؟ فإن قلتم : اقتدوا بسيرتنا ، فأنى وكيف ، وما الحجة ، وما المصير من الله ؟ أنقندي بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولاً ، وعبيده خولاً ؟ وإن قلتم : اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لم لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، وأقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام وليناكم أمرنا ، وحكمناكم في دماننا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح بالعظات ؟ فتخلوا عنها ، وأطلقوا عقالها ، وخلوا سبيلها ، ينتدب إليها آل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذين شردتموهم في البلاد ، ومزقتموهم في كل واد ، بل تثبت في أيديكم لانقضاء المدة ، وبلوغ المهلة ، وعظم المحنة ؛ إن لكل قائمٍ قدراً لا يعدوه ، ويوماً لا يخطوه ، وكتاباً بعده يتلوه ، " لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها " " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " . ثم التمس الرجل فلم يوجد .⁽¹⁾

¹ (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م ، 193/7

الحكم بن عمرو الغفاري : كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين

وذلك أن زياداً كتب إليه لما ورد بالخبر عليه بما غنم: إن أمير المؤمنين كتب إلى أن أصطفى له صفراء وبيضاء⁽¹⁾، والروائع⁽²⁾، فلا تحركن شيئاً حتى تخرج ذلك ، فكتب إليه الحكم: أما بعد، فإن كتابك ورد، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء والروائع، ولا تحركن شيئاً، فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقاً⁽³⁾، على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجاً، وقال للناس: اغدوا على غنائمكم، فغداً الناس، وقد عزل الخمس، فقسم بينهم تلك الغنائم، قال: فقال الحكم: اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني، فمات بخراسان بمرور⁽⁴⁾.

يا سليمان أذكرك يوم الأذان

قال: دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالس للعامة فقال: يا سليمان أذكرك يوم الأذان. قال: فارتاع لما دعاه باسمه وقال: ويحك وما يوم الأذان؟ قال: قول الله جل ذكره: " فأذن مؤذنٌ بينهم أن لعنة الله على الظالمين " . فبكى سليمان وقال له: ما حاجتك؟ فقال: أنا جار في ضيعةك الفلانية وقد ظلمني وكيلك فأضرّ ذلك بي وبعيالي. قال: قد وهبت لك الضيعة. وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه.

وهل القضاء إلا هذا؟

قيل: وقدم رجل من حلوان مصر على عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، فقال: يا أمير المؤمنين إن والدك ولي بلادنا فكتب إلى عبد الملك يخبره أن حلوان صافية وهي أرض خراج فأقطعها إياه فورثتها أنت

¹ (الصفراء والبيضاء: هما الذهب والفضة .

² (الروائع: المقصود بها في هذا المقام، ما أعجبك وسرك من الغنائم .

³ (الرتق: ضد الفتق، وهو الالتحام، لسان العرب (114/10) .

⁴ (إن خبر قسمة الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه الغنائم بين أفراد جيشه ذكره ابن عبد البر، وابن الجوزي، وابن الأثير، وابن كثير، وتتفق هذه المصادر حول طلب معاوية رضي الله عنه اصطفاء الذهب والفضة وعدم قسمتها بين الجيش . لكنها لم تورد هذا الخبر بأسانيد صحيحة . وزاد بن كثير أن معاوية رضي الله عنه طلب أن يرسل الذهب والفضة إلى بيت المال، وهنا يجدر التذكير بأن مصارف الغنيمة في الإسلام قد بينها الله سبحانه وتعالى في قوله: ((واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)) (الأنفال: 41).

وإخوتك فاتق الله ولا تظلمنا كما ظلمنا أبوك فإنه كان شيخاً ضعيف الخرج وأنت رجل مخرج.

فقال عمر: إن كان أبي كما ذكرت فهو أبي لا أبوك، نازعني منازعة جميلة ولا تشتتم عرضي فإن لي فيها شركاء إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضي فيها بغير قضاء قاضٍ، أقوم معك إلى القاضي فإن قضى لي اصطبرت وإن قضى لك سلّمت. قال: إن قمت معي إلى القاضي فقد أنصفتني. فقاما جميعاً إلى القاضي فقعدا بين يديه، فتكلم عمر بحجته وتكلم الرجل، فقضى القاضي للرجل. فقال عمر: إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم. فقال القاضي: قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك. فقال عمر: وهل القضاء إلا هذا؟ لو قضيت لي وما وليت لي عملاً أبداً. فخرج إلى الرجل من حقه.

عاملك على أدربيجان ظلمني

قال: ودخل نفر من القراء وفيهم رجل ذكر ظلامة له على عمر فقال: يا أمير المؤمنين اذكر مقامي هذا فإنه مقام لا يشغل الله جل وعز عنه كثرة من تخاصم إليه من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنوب.

فقال عمر: ويحك اردد كلامك! فردّه عليه، فجعل يبكي وينتحب حتى إذا أفاق قال: ما حاجتك؟ قال: عاملك على أدربيجان ظلمني وأخذ من مالي عشرة آلاف درهم، فكتب بردّ ذلك عليه وبغزل عامله وقال: انظروا هل اخلوق له من ثوب أو تقطّع له من حذاء. فحسب ذلك فبلغ عشرين ديناراً فأمر بدفعها إليه.

أتيتك بعيد الدار مظلوماً!

وبينا عمر، رحمه الله، يسير على بغلته إذ جاء رجل فتعلق بلجامها فقال: أتيتك بعيد الدار مظلوماً! قال له: من أين أنت؟ قال: من حضرموت أرضي وأرض آبائي أخذها الوليد وسليمان فأكلاها. فنزل عمر عن بغلته يبكي حتى جلس على الأرض ثم قال: من يعلم ذلك؟ قال: أهل البلد قاطبة.

قال: يكفيني من ذلك شاهداً عدل، اكتبوا له إلى بلاده إن أقام شاهدي عدل أن الأرض له ولآبائه فادفعوها إليه. فلما ولى الرجل قال: انظروا هل هلكت له راحلة أم نفذ له زاد أو تخرق له من حذاء. فحسبوا ذلك فبلغ ثلاثين ديناراً فأتي بها فعُدَّت في يده.

إنما ردها عليك حقك

قال ابن عياش: وخرج عمر ذات يوم من منزله على بغلة له وعليه قميص وملاءة إذ جاء رجل على راحلة حتى أناخها وسأل عن عمر فقيل له: قد خرج وهو راجع الآن. فأقبل عمر ومعه رجل يسايره، فقيل للرجل: هذا أمير المؤمنين. فقام فشكا إليه عدي بن أرطاة في أرض له، فقال عمر: قاتله الله! أما والله ما غرنا إلا بعمامته السوداء، أما إني قد كتبت إليه فضلاً عن وصيتي إن من أتاك ببينة على حق له فسلمه إليه، ثم قد عنَّاك إليّ. فكتب إلى عديّ برّد أرضه وقال للرجل: كم أنفقت؟ قال: تسألني عن نفقتي وقد رددت عليّ أرضاً هي خير من مائة ألف درهم! قال: إنما ردها عليك حقك، أخبرني كم أنفقت؟ قال: ما أدري. قال: احرزوه، فإذا هو ستون درهماً، فأمر له بها من بيت المال، فلما ولى صاح به فرجع فقال: وهذه خمسة دراهم من مالي فكل بها لحماً حتى تبلغ.

ويلك ما صنعت؟

عن حبيب بن أبي ثابت قال: أخبرني دهقان السيلحين قال: كان لسعيد بن مالك إلى جنبي ضيعة وكان رجلاً حديداً فأتيته فقلت له: أعدني على نفسك. فأمر بي فوُجئت في عنقي، فقلت: لأرحلن إلى عمر. فدخلت على امرأتي فأعلمتها ذلك فقالت: إني أخاف أن لا تصنع شيئاً ويجتريء عليك. فقلت: إني أكره أن تحدث العجم بأني قلت شيئاً لم أفعله. قال: فخرجت حتى قدمت المدينة فسألت عن عمر، رحمه الله، فدللت عليه وأرشدت إليه.

فلما أتيت منزله دخلت فإذا عمر، رضي الله عنه، جالس على عباءة، فرفع رأسه إليّ وقال: كأنك لست من أهل الملة. فقلت: أنا رجل من أهل الذمة. قال: فما حاجتك؟ قلت: لسعيد بن مالك ضيعة إلى جانبي وإني أتيته أستعديه على نفسه فأمر بي فوُجئت في عنقي فقلت لأرحلن إلى عمر. فقال: يا يرفا انتني بالدواة والمكتب. فأتاه بجراب، فأدخل يده وأخرج صحيفة فكتب فيها، ثم أخرج سيراً

يشدّها به فلم يقدر عليه فتناول خيطاً من العباءة التي تحته وقد تنشرت جوانبها فشدها به، فأردت أن لا أخذها ثم تناولتها متثاقلاً، فكأنه عرف ما في نفسي فقال: ائته فإن كفاك وإلا فأقم واكتب إليّ. قال: فخرجت حتى قدمت على أهلي فقالوا: ما صنعت؟ قلت: أتيت رجلاً لم يقدر على سير يشدّ به صحيفته حتى تناول خيطاً من عباءة كانت تحته قد تفرّزت وتنشرت جوانبها فشدها به. قالوا: وما عليك من ذلك إن نفذ أمره؟ قال: فأتيت سعيداً فناولته الكتاب، فلما قرأه أرعدت فرائصه حتى سقط الكتاب من يده وقال: ويلك ما صنعت؟ اذهب فالأرض لك. فقلت: لا أقبلها. فقال: لا والله لا أخذتها أبداً.

قال: وكان نسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحمن. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سعيد بن مالك. سلام عليك. أما بعد فإن مهرزاد دهبان السيلحين ذكر أن له ضيعة إلى جانبك وأنه أتاك يستعديك على نفسك فأمرت به فوجئت عنقه فإذا جاءك كتابي هذا فأرضه من حقه وإلا فأقبل إلي راحلاً، والسلام.

إن كان فهذا

قيل: ولما ولي المأمون الخلافة عرضت عليه سيرة أبي بكر، رحمه الله، وفي آخرها: وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها.

فقال: أمير المؤمنين لا يطيق ذلك. ثم عرضت عليه سيرة عمر، رضي الله عنه، وفي آخرها: وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها فقال: أمير المؤمنين لا يطيق هذا. ثم عرضت عليه سيرة عثمان، رحمه الله، وفي آخرها: وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها. فقال: أمير المؤمنين لا يطيق هذا. ثم عرضت عليه سيرة علي، رضي الله عنه. وفي آخرها: وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها. فقال: أمير المؤمنين لا يطيق هذا. ثم عرضت عليه سيرة معاوية بن أبي سفيان وفي آخرها: وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها كيف شاء. فقال: إن كان فهذا.⁽¹⁾

⁽¹⁾ (المحاسن والمساوي ، ص 211

فمتى تحاكت إليك العرب

وأخبر البعض : شهدت المأمون يوماً وقد خرج من باب البستان ببغداد فصاح به رجل بصريّ: يا أمير المؤمنين إني تزوجت بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازي فرّق بيننا وقال هي امرأة من قريش. قال: فأمر عمرو بن مسعدة فكتب إلى أبي الرازي: إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادة وخلعك إياها إذ كانت من قريش، فمتى تحاكت إليك العرب لا أم لك في أنسابها، ومتى وكلتك قريش يا ابن اللخاء بأن تُلصق بها من ليس منها؟ فخلّ بين الرجل وامرأته، فلئن كان زياد من قريش إنه لابن سمية بغي عاهرة لا يفتخر بقرابتها ولا يتناول بولادتها، ولئن كان ابن عبيد لقد باء بأمر عظيم إذ ادعى إلى غير أبيه لحظّ تعجّله ومُلْك قهره.

ثم يكون محقاً وتكون مبطلاً!

وحدث غيره قال: شهدت المأمون يوماً وقد ركب بالشماسية وخلف ظهره أحمد بن هشام، فصاح به رجل من أهل فارس: الله الله يا أمير المؤمنين! فإن أحمد بن هشام ظلمني واعتدى عليّ! فقال: كن بالباب حتى أرجع فأنظر في أمرك.

فلما مضى التفت إلى أحمد بن هشام فقال: ما يؤمنك منا أن نوقفك وصاحبك هذا على رؤوس هذه الجماعة وتقعّد مع خصمك حيث يقعد ثم يكون محقاً وتكون مبطلاً! فكيف إن كنت في صفته وكان في صفتك؟ فوجّه إليه من يحوّلّه عن بابنا إلى رحلك وأنصفه من نفسك وأعطه ما أنفق في طريقه إلينا، ولا تجعل لنا ذريعة إلى لائمتك، فوالله لو ظلمت العباس ابني كان أهون عليّ من ظلمك ضعيفاً لا يجدني في كل وقت ولا يخلو له وجهي، ولا سيما من كان يتجشم السفر البعيد ويكابد حر الهواجر وطول المسافة. قال: فوجه إليه أحمد بن هشام فحوّلّه إلى مضربه وكتب إلى عامله برّد ما أخذ منه، ووصل الرجل بأربعة آلاف درهم.

وا عمراه ذهب الإسلام منذ ذهب عمر

وتنازع رجلان بباب الجسر أحدهما من العظماء والآخر من السوق فقتّعه الرجل فصاح السوقى: وا عمراه ذهب الإسلام! فأخذ الرجل وكتب بخبره إلى المأمون، فدعاه وقال له: ما كانت حالك؟ فأخبره. وأحضر خصمه وقال له: لم قتّعت هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين هذا رجل معاملي وكان سيء المعاملة وكنت

صبوراً على ذلك منه، فلما كان في هذا اليوم مررت بباب الجسر فأخذ بلجام دابتي وقال: لا أفارقك حتى تخرج إليّ حقي. فقلت له: إني أبادر إلى باب إسحاق بن إبراهيم. فقال: والله لو جاء إسحاق ومن ولى إسحاق ما فارقتك. فما صبرت حين عرّض بالخلافة أن قنّعتة فصاح: وا عمراه ذهب الإسلام منذ ذهب عمر. فقال للرجل: ما تقول؟ قال: كذب عليّ وقال الباطل. فقال الرجل: لي جماعة يشهدون على مقالته يا أمير المؤمنين، فإن أذنت لي أحضرتهم. قال المأمون للرجل: من أين أنت؟ قال: من أهل فامية. فقال: أما إن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان يقول: من كان جاره نبطياً واحتاج إلى ثمنه فليبعه. فإن كنت إنما طلبت سيرته فهذا حكمه في أهل فامية. ثم أمر له بألف درهم وأمر صاحبه أن ينصفه.

تكلمي يا أمة الله

عن قحطبة بن حميد بن قحطبة قال: قعد المأمون للمظالم ذات يوم فلم يزل قاعداً إلى أن قلنا قد فاتته الصلاة، فكان آخر من دعي امرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال: و عليك السلام، تكلمي يا أمة الله. فقالت:

يا خير منتصفٍ يَهْدِي به الرشد ... ويا إماماً به قد أشرق البلد

أشكو إليك عقيد الملك أرملَةً ... عدا عليها فلا تقوى به الأسد

فابتز مني ضياعي واستبد بها ... ففارق العيش مني الأهل والولد

فقال المأمون:

في دون ما قلت عيل الصبر والجلد ... وقد تقطّع مني القلب والكبد

هذا أوان صلاة الظهر فانصرفي ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد

والمجلس السبت إن يُقْض الجلوس لنا ... ننصفك فيه وإلا المجلس الأحد

قال: فانصرفت فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من دعا به المرأة، فسلمت فرد المأمون عليها السلام وقال: أين الخصم، رحمك الله؟ قالت: هو واقف على رأسك وقد حيل بيني وبينه. وأومأت إلى العباس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي

خالد خذ بيده فأقعهده معها. قال: ففعل ذلك. فجعلت تعلو على العباس بصوتها وتقول: ظلمتني واعتديت عليّ وأخذت ضيعتي. فقال لها أحمد: ما هذا الصياح؟ إنك بين يدي أمير المؤمنين تناظرين الأمير! فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه. فلم يزالا يتناظران حتى حكم المأمون لها برد ضيعتها ثم قال: يا أحمد اردد عليها ما جباه العباس من ضيعتها وادفع إليها عشرة آلاف درهم ترم بها ما أراه من سوء حالها واكتب إلى والينا وقاضينا بإرفاقها والنظر في أمرها وأوغر لها خراج ضيعتها بالشيء الطفيف وليكن ذلك في يومنا هذا. فما برحت حتى قضيت حوائجها وخرجت⁽¹⁾.

أفأخطب بالخلافة سواك؟

وعن الحسن بن سهل قال: جلس المأمون ذات يوم للمظالم وإذا هو برجل قد مثل بين يديه وفي يده رقعة فيها سطران: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مظلمة من أمير المؤمنين أطل الله بقاءه. فقال: أمظلمة مني! قال: أفأخطب بالخلافة سواك؟ قال له: وما ظلامتك هذه؟ قال: ثلاثون ألف دينار. قال: وما وجهها؟ قال: إن سعيداً وكيلك اشترى مني جوهرًا بثلاثين ألف دينار وحمله إلى منزلك ولم يوفر عليّ المال. قال: فإذا اشترى سعيد منك الجوهر تشكو الظلامة مني! قال: نعم إذا كانت الوكالة قد صحت له منك. قال: إن كلامك هذا يحتمل ثلاث جهات: أما أول ذلك فعل سعيداً قد اشترى هذا الجوهر منك كما زعمت وحمله إلينا وأخذ المال من بيت المال ولم يوفره عليك، أو لعله قد وفره وادعيت باطلاً، أو اشتراه لنفسه. أما في العاجل فلا يلزمني لك حق ولا أعرف لك ظلامة.

فقال الرجل إن الله جل وعز قد أهلك لموضع رفيع واختصك بنسب جعلك أولى الخلق معه بالانصاف فإنك مناسب لرسول الله، ﷺ، واسترعاك على خلقه فهلا تحملني على كتاب الله جل وعز وسنة ابن عمك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسنة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في رسالته إلى أبي موسى الأشعري وهي التي اتخذتموها صدور أحكامكم ووصية لقضاتكم إذ يقول: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

¹ (المحاسن والمساوي ، ص 212)

قال المأمون: فإنك والله قد عدمت البينة فما يجب لك إلا حلفاً ولئن حلفتها لأنا صادق إذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمني.

قال: فإذا أدعوك إلى الحاكم الذي نصبته لرعيته. قال: نعم، يا غلام عليّ يحيى بن أكتم. فإذا هو قد مثل بين يديه. فقال: يا يحيى! قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: اقض بيننا. قال: في حكم وقضية! قال: نعم. قال: لا أفعل. قال: ولم؟ قال: لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضائي. قال: قد فعلت. قال: فإني أبدأ بالعامّة أولاً ليصبح المجلس للقضاء. قال: افعل.

ففتح الباب وقعد في ناحية من الدار وأذن للعامّة ونادى المنادي وأخذ الرقاع ودعا بالناس ثم دعا الرجل المتظلم فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون. فنادى المنادي فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عقبها في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى وهو جالس. فقال له: اجلس. فطرح المصلى ليقعد عليه. فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس. فطرح له مصلى آخر فجلس عليه. وقال له يحيى: ما تقول؟ فقال: لي على هذا ثلاثون ألف دينار. قال: ومن هذا؟ قال: أمير المؤمنين المأمون بالله. قال له يحيى: يا أمير المؤمنين قد سمعت ما يقول؟ قال: سله ما وجهها. فأعاد خبر الوكيل. فقال المأمون: ما أعرف له حقاً. فأقبل على الرجل فقال: قد سمعت، ألك بينة؟ قال: لا. قال: فما تريد؟ قال: ما يوجب الحكم لمن عدم البينة. قال المأمون: ويحك قد لججت في اليمين! قال: يا أمير المؤمنين أتحلف؟ قال: إي والله ولا أوطيء نفسي العشوة في إعطاء رجل ما لا يجب له ظلماً. فقال: قل والله. فاستحلفه غموساً.

ثم وثب يحيى عند فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه. فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنت في حق الله جل وعز حتى أخذته منك وليس الآن من حقك أن أتصدر عليك. وقبض على الرجل لنلا يخرج. فقال المأمون: ارفقوا به. ثم قال: يا غلام أحضرني ما ادّعى من المال. فلما أحضر قال: خذ إليك والله ما كنت أحلف على فجرة ثم أسمح لك فأفسد ديني ودنياي، والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية لعلها ترى أن تناولتك من وجه القدرة وأني منعك واجبك بالاستطالة عليك وإنها لتعلم الآن ما كنت أسمح لك باليمين. فقال: يا أمير المؤمنين أفأحاط في المال حتى أصل إلى حيث آمن عليه؟ قال:

إي والله ولو بالتُّغْرُغْز وأسبيجاب. فأخرج الرجل مع المال وبذرق به إلى أن بلغ مأمنه⁽¹⁾

وروي عن النبي ﷺ، أنه قال: إن الرجل إذا ظلم فلم ينتصر ولم يجد من ينصره فرفع طرفه إلى السماء ودعا قال الله، جل وعز: لبيك عبي أنصرك عاجلاً وآجلاً.

وقال رسول الله ﷺ، في قولهم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قال: تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه.

قال: وقال الفضيل بن عياض: بكى ابني فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على من ظلمني وأخذ مالي ارحمه غداً إذا وقف بين يدي الله عز وجل وسأله فلا تكون له حجة.

قال: وقال الحسن البصري: يا أيها المصّدق على السائل ترحمه ارحم أولاً من ظلمت.

وروي عن عبد الله بن سلام أنه قال: قرأت في بعض الكتب قال تبارك وتعالى: إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني.

وقال خالد: إياكم ومجانيق الضعفاء، يريد الدعاء.

قال: وقّع المأمون في كتاب متظلم من أحمد بن هشام: اكفني أمر هذا الرجل وإلا كفّيته أمرك. ووقع في رقعة رجل من العامة تظلم من عليّ بن هشام: يا أبا الحسن الشريف من يظلم من فوقه ويظلمه من دونه فاعلمني أي الرجلين أنت.

وقال عمرو بن مسعدة: كتبت إلى عامل دستبي كتاباً أطلّته فأخذه المأمون من يدي وكتب: قد كثر شاكوك فإما عدلت وإما اعتزلت.

ووقع في رقعة رجل تظلم من الرستميّ: ليس من البر أن تكون آنيّتك ذهباً وقدورك فضة وجارك يطوي وغريمك يعوي.

قال: ووقع هشام بن عبد الملك في رقعة متظلم من العامة: أذاك الغوث إن كنت صادقاً وحلّ بك النكال إن كنت كاذباً، فتأخر أو تقدم.

قال: ورفع رجل إلى المنصور قصة يتظلم فيها من عامل فارس فوقع له: إن أثرت العدل صحبتك السلامة.

ووقع لقوم متظلمين شكوا سيرة واليهم: كما تكونون يولّى عليكم.

ووقع يحيى بن خالد لمتظلم من بعض الولاة: أنصف من وليت أمره وإلا أنصفهم من ولي أمرك.

ووقع بعضهم إلى صاحب مظالم: ما أراني سالماً من المآثم بتوليتي إياك المظالم. يا رديء المختبر اعتزل غير محمود الأثر.

أراه يتظلم من ظلوم

قيل: وقال رجل للمعتصم: يا أمير المؤمنين ظلمني من وافق اسمه فعله. فقال المعتصم لبغا: سلّه ممن يتظلم فإني أراه يتظلم من ظلوم. فسأله فقال: من ظلوم. فتبسم المعتصم وقال لابن أبي دؤاد: ما أبعد الرجل في قوله، قل لها بحياتي أنصفيه.

فارزقني العدل والنصفة

وأخبر إبراهيم بن محمد قال: كنا مع المتوكل في بعض متنزهاته فوقف على تلّ كله حصى قد غسله المطر فاستحسنه فنزل فصلى وسبّح ثم قال في دعائه: اللهم إنك خلقتني ولم أك شيئاً ثم صيرتني فوق هذا الخلق وأنت قادر أن تزيل هذا كله فارزقني العدل والنصفة وألق في قلبي لهم الرأفة والرحمة. ثم بكى وأخذ كفاً من ذلك الحصى فجعله على رأسه وجعل يقلب خده ووجهه على الأرض ثم قام فركب.

ليس بعد هذا شيء

ولما ولي عمر بن عبد العزيز رد المظالم والقطائع وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنيسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضها فتوفي سليمان قبل أن يقبضها

وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز فغدا عنبسة يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان فوجد بني أمية حضورا بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه في أمورهم فلما رأوا عنبسة قالوا ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه فقالوا له أعلم أمير المؤمنين مكاننا وأعلمنا ما يصنع بك في أمورك فدخل عنبسة على عمر فقال له يا أمير المؤمنين إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ولم يبق إلا قبضها فتوفي على ذلك وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندي وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان قال له عمر كم ذلك قال عشرون ألف دينار قال عمر عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها إلى رجل واحد والله ما لي إلى ذلك من سبيل قال فرميت بالكتاب الذي فيه الصك فقال لي عمر لا عليك أن يكون معك فلعله أن يأتيك من هو أجراً على هذا المال مني فيأمر لك بها قال عنبسة فأخذته تبركا برأيه وقلت له يا أمير المؤمنين فما بال جبل الورس وكان جبل الورس قطيعة لعمر بن عبد العزيز فقال عمر ذكرتني الطعن وكنت ناسيا يا غلام هلم ذلك القفص فأتي بقفص من جريد فيه قطائع من بني عبد العزيز فقال يا غلام اقرأ علي فكلما قرأ قطيعة قال شقها حتى لم يبق في القفص شيء إلا شقه قال عنبسة فخرجت إلى بني أمية وهم وقوف بالباب فأعلمتهم ما كان من ذلك فقالوا ليس بعد هذا شيء ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان فرجعت إليه فقلت يا أمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجري عليهم ما كان قبلك يجري عليهم فقال عمر والله ما هذا المال لي وما لي إلى ذلك من سبيل قلت يا أمير المؤمنين فيسألونك أن تأذن لهم يضربون في البلدان قال ما شاءوا ذلك لهم وقد أذنت لهم قال قلت وأنا أيضا قال وأنت أيضا قد أذنت لك ولكني أرى لك أن تقيم فإنك رجل كثير النقد وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشتري منها ما يكون لك في ربحه عوض مما فاتك قال فأقمت تبركا برأيه فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمائتي ألف وحبست الصك فلما توفي عمر وولي يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فأنفذ لي ما كان فيه عمر وجارية لزوجته .

فأمره بردها إلى أهلها

ونظر عمر بن عبد العزيز إلى جارية زوجته فاطمة بنت عبد الملك فكأنها أعجبتة فقالت له فاطمة أراها قد أعجبتك يا أمير المؤمنين قال عمر إنها لعرضة لذلك قال فأمرت فاطمة بإصلاحها وتهيتها حتى إذا رضيت من ذلك بعثت بها إليه فقال لها لمن كنت قالت وهبني عبد الملك لفاطمة قال فلمن كنت قبل عبد الملك قالت كنت لقوم بالبصرة فأخذ عاملها أموالهم فكنت فيما أخذه فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني لفاطمة فدعا بالبريد فكتب إلى عامل البصرة فأمره بردها إلى أهلها (1)

عذر عمر في تأخير بعض الأمور

قال لما ولي عمر بن عبد العزيز قال له ابنه عبد الملك إني لأراك يا أبتاه قد أخرت أمورا كثيرة كنت أحسبك لو وليت ساعة من النهار عجلتها ولوددت أنك قد فعلت ذلك ولو فارت بي وبك القدور قال له عمر أي بني إنك على حسن قسم الله لك وفيك بعض رأي أهل الحداثة والله ما أستطيع أن أخرج لهم شيئا من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا أستلين به قلوبهم خوفا أن ينخرق علي منهم ما لا طاقة لي به (2)

استخلاص عمر حوانيت بحمص من ابن الوليد وردها على أصحابها

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح وكان نشأ في البادية فكأنه أعرابي فأتى ناس من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يخاصمون روحا في حوانيت حمص وكانت لهم أقطعه إياها أبوه الوليد بن عبد الملك فقال له عمر أردد عليهم حوانيتهم قال له روح هذا معي بسجل الوليد قال وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها خل لهم حوانيتهم فقام روح والحمصي منصرفين فتوعد روح الحمصي فرجع الحمصي إلى عمر فقال هو والله متوعدني يا أمير المؤمنين فقال عمر لكعب بن حامد وهو على حرسه اخرج إلى روح يا كعب فإن سلم إليه حوانيته فذلك وإن لم يفعل فانتني

¹ (أبي محمد عبد الله بن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه ، تحقيق أحمد عبيد ، عالم الكتب ، بيروت - لبنان ، 1404هـ - 1984م ، ص 56

² (سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 56

برأسه فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذي أمر عمر فخلع فواده وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا فقال له قم فخل له حوانيته قال نعم نعم فخلى له حوانيته (1).

ارجاع عمر مزرعته في خيبر إلى ما كانت عليه في عهد الرسول

قال وكان عمر بن عبد العزيز نظر في مزارعه فخرق سجلاتها حتى بقيت مزرعنا خيبر والسويداء فسأل عن خيبر من أين كانت لأبيه قيل له كانت في نحل رسول الله ﷺ فتركها رسول الله ﷺ فينا للمسلمين ثم صارت إلى مروان فأعطاه مروان أباك ثم أعطاكها أبوك فخرق عمر سجلها وقال أتركها حيث تركها رسول الله ﷺ. (2)

وضعه حلي زوجته في بيت المال

وقال عمر لزوجته فاطمة بنت عبد الملك قد علمت حال هذا الجوهر لحليها وما صنع فيه أبوك ومن أين أصابه فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين وأنفق ما دونه فإن خلصت إليه أنفقته وأن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك قالت له افعل ما شئت ففعل ذلك فمات رحمه الله ولم يصل إليه فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك فامتنعت من أخذه وقالت ما كنت لأتركه ثم آخذه فقسمه يزيد بين نسائه (3)

عجز عمر عن نفقة الحج وشوقه إلى الجنة

وقال عمر بن عبيد العزيز لمزاحم مولاه إني قد اشتجيت الحج فهل عندك شيء قال بضعة شهر ديناراً قال وما تقع مني ثم مكث قليلاً ثم قال له يا أمير المؤمنين تجهز فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بني مروان قال اجعلها في بيت المال فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفيننا وإن تكن حراماً فكفانا ما أصبنا منها فلما رأى عمر ثقل ذلك علي قال ويحك يا مزاحم لا يكثرن عليك شيء صنعته الله فإن لي نفساً تواقه لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا

¹ (سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 56)

² (سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 56)

³ (سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 58)

تاقت إلى ما هي أرفع منها حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة جرأة الناس بالتظلم له من أهل بيته وإدالتهم منهم .

وأناه رجل فقال يا أمير المؤمنين مظلمة دخلت علي قال عمر ومن بك قال فلا والله ما استطاع أن يقول فلان لبعض أهله مرتين أو ثلاثا فقال فلان بن فلان عمد إلى مال لي بكذا وكذا فأخذه فقال يا غلام انتني بدواة وقرطاس فكتب إلى عامله إن فلانا ذكر لي كذا وكذا فإن كان الذي ذكر لي على ما ذكر فلا تراجعني فيه وارده عليه ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال { إن هذا لهو البلاء المبين } .⁽¹⁾

حديث عمر مع عمته وعرضه عليها عطاءه

قال ولما ولي عمر بن عبد العزيز أتت عمه له إلى فاطمة امرأته فقال إنني أريد كلام أمير المؤمنين قالت لها اجلسي حتى يفرغ فجلست فإذا بغلام قد أتى فأخذ سراجا فقالت لها فاطمة إن كنت تريدينه فالآن إذا كان في حوائج العامة كتب على الشمع وإذا صار إلى حاجة نفسه دعا بسراجها فقامت فدخلت عليه فإذا بين يديه اقراص وشيء من ملح وزيت وهو يتعشى فقالت يا أمير المؤمنين أتيت بحاجة لي ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتي قال وما ذاك يا عمه وقالت لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا قال ليس عندي يا عمه ولو كان عندي لفعلت قالت يا أمير المؤمنين كان عمك عبد الملك يجري علي كذا وكذا ثم كان أخوك الوليد فزادني ثم وليت أنت فقطعته عني قال يا عمه إن عمي عبد الملك وأخي الوليد وأخي سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين وليس ذاك المال لي فأعطيكه ولكني أعطيك مالي إن شئت قالت وما ذاك يا أمير المؤمنين قال عطائي مائتا دينار فهل لك قالت وما يبلغ مني عطاؤك قال فليس أملك غيره يا عمه قالت فانصرفت عنه⁽²⁾

⁽¹⁾ (سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 58

⁽²⁾ (سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 58

عزم عمر على تعليم الرعية وحملهم على الشريعة

وقال عمر بن عبد العزيز ان للإسلام حدودا وشرائع وسننا فمن عمل بها استكمل الإيمان ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها وإن مت فما أنا على صحبتكم بحريص .

جواب عمر الى والي المدينة بشأن الشمع

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وكان والي المدينة أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه أنه كان يقطع لمن كان قبلك من أمراء المدينة من الشمع كذاوكذا يستضيئون به في مخرجهم فابتليت بجوابك فيه ولعمري لقد عهدتكم يا ابن ام حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ولعمري أنت يومئذ خير منك اليوم ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك والسلام .

جوابه إليه بشأن القراطيس

وكتب إليه أيضا أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر أنه قد كان يجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذاوكذا فابتليت بجوابك فيه فإذا جاءك كتابي هذا فأرق القلم واجمع الخط واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر ببيت ما لهم والسلام عليك .

جوابه إلى عامله على البصرة وقد سأله الاذن له في تعذيب العمال على خياناتهم .

وكتب إلى عدي بن أرطاة وكان عاملا على البصرة أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أن قبلك عمالا قد ظهرت خيانتهم وتسألني أن آذن لك في عذابهم كأنك ترى أنني لك جنة من دون الله فإذا جاءك كتابي هذا فإن قامت عليهم بينة فخذهم بذلك وإلا فأحلفهم دبر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختانوا من مال المسلمين شيئا فإن حلفوا فخل سبيلهم فإنما هو مال المسلمين وليس

للمشحيح منهم إلا جهد أيمانهم ولعمري لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم والسلام (1).

جوابه عروة بن محمد بشأن الصدقات

وكتب إلى عروة بن محمد أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أن من كان قبلك من العمال قد وضعوا على أهل اليمن صدقاتهم وظائف إن افتقروا لم ينقصوا وإن استغنوا زيد عليهم وتوأمروني في ذلك ولعمري إن هذا للجور حق الجور فإذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق ثم قسم ذلك على فقرائهم واقعد على طريق الحاج قوما ترضاهم وترضى دينهم وأماناتهم يقوون الضعيف ويغنون الفقير فوالله لو لم يأتني من قبلك إلا كف لرأيت من الله قسما عظيما والسلام .

عمر وفتونة السوداء وما كتبه اليها وإلى عامله على مصر بشأنها

وكان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتابا إلا حملة فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابا تذكر فيه أن لها حائطا قصيرا وأنه يقتحم عليها منه فيسرق دجاجها فكتب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فتونة السوداء مولاة ذي أصبح بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يدخل عليك منه فيسرق دجاجك فقد كتبت لك كتابا إلى أيوب بن شرحبيل وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها أمره أن يبني لك ذلك حتى يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله والسلام .

وكتب إلى أيوب بن شرحبيل من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل أما بعد فإن فتونة مولاة ذي أصبح كتبت إلي تذكر قصر حائطها وأنه يسرق منه دجاجها وتسال تحصينه لها فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببذنه حتى أتى الجيزة يسأل

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص 61

عن فرتونة حتى وقع عليها وإذا هي سوداء مسكينة فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصنه لها (1).

كتابه الى وهب بن منبه وقد فقد دنانير من بيت المال

قال وكتب وهب بن منبه إلى عمر بن عبد العزيز إني فقدت من بيت مال اليمن دنانير فكتب إليه عمر أما بعد فإني لست أتهم دينك ولا أمانتك ولكني أتهم تضییعك وتفريطك وإنما أنا حبيج المسلمين في مالهم وإنما لأشحهم فاحلف لهم و السلام (2).
ما تقول لربك غداً إذا أتيت؟

عن الأحنف بن قيس قال: "وفدنا إلى عمر بفتح عظيم، فقال: "أين نزلتم؟"، فقلت: في مكان كذا، فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ رواحنا، فجعل يتخللها ببصره ويقول: "ألا اتقيتم الله في ركاكم هذه؟"، أما علمتم أن لها عليكم حقاً؟، ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض؟".

فقلنا: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا بفتح عظيم، فأحببنا التسرع إلى أمير المؤمنين، وإلى المسلمين بما يسرهم، ثم انصرف راجعاً ونحن معه، فلقه رجل، فقال: "يا أمير المؤمنين، انطلق معي فأعدي على فلان فإنه ظلمني". قال: فرفع الدرة فخفق (3) بها رأسه، وقال: "تدعون عمر وهو معرض لكم حتى إذا اشتغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدي، أعدي".

فانصرف الرجل وهو يتذمر (4)، فقال عمر: "عليّ بالرجل"، فألقى إليه المخفقة (5)، فقال: "أمسك"، قال: "لا ولكن أدعها لله ولك"، قال: "ليس كذلك، إما تدعها لله وإرادة ما عنده، أو تدعها لي فأعلم ذلك". قال: "أدعها لله"، قال: "انصرف". ثم جاء يمشي حتى دخل منزلة، ونحن معه، فافتتح الصلاة، فصلى ركعتين، ثم جلس، فقال: "يا ابن الخطاب، كنت وضيعاً فرفعك

¹ (سيرة عمر بن عبد العزيز، ص 62)

² (سيرة عمر بن عبد العزيز، ص 74)

³ (الخفق: ضربك الشيء بكرة أو بعريض. (القاموس ص 1126).

⁴ (يتذمر: أي: يجترئ عليه ويرفع صوته في عتابه. (النهاية 167/2).

⁵ (المخفقة: الدرة. (النهاية 56/2).

الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب المسلمين، جاء رجل يستعديك فضربته، ما تقول لربك غداً إذا أتيت؟"، فجعل يعاتب نفسه معاتبة ظننت أنه من خير أهل الأرض" (1).

والله ما نسيتهما بعد

وعن إياس بن سلمة عن أبيه، قال: "مرّ عمر رضي الله عنه وأنا في السوق، وهو مار في حاجة، ومعه الدّرة، فقال: "هكذا أمط (2) عن الطريق يا سلمة". قال: ثم خفقتني بها خفقة فما أصاب إلا طرف ثوبي، فأمطت عن الطريق، فسكت عني حتى كان في العام المقبل، فلقيني في السوق، فقال: "يا سلمة، أردت الحج العام؟"، قلت: نعم. يا أمير المؤمنين، فأخذ بيدي، فما فارقت يدي يده حتى دخل في بيته، فأخرج كيساً فيه ست مئة درهم، فقال: "يا سلمة، استعن بهذه، واعلم أنها من الخفقة التي خفقتك عام أول". قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما ذكرتها حتى ذكرتها، قال: "والله ما نسيتهما بعد" (3).

أنصف من نفسي أصلح من أن ينتصف مني، وأنا كاره

وعن عاصم بن عبيد الله، قال: "قال (4) عمر بن الخطاب رضي الله عنه تحت شجرة في طريق مكة، فلما اشتدت عليه الشمس أخذ عليه ثوبه، فقام فناداه رجل غير بعيد منه: يا أمير المؤمنين، هل لك في رجل قد ربت (5) حاجته، وطال انتظاره؟، قال: "من ربدها؟"، قال: "أنت"، فجاراه القول حتى ضربه بالمخفقة، فقال: "عجلت عليّ قبل أن تنظرني، فإن كنت مظلوماً رددت إليّ حقي، وإن كنت ظالماً رددتني"، فأخذ عمر طرف ثوبه، وأعطاه المخفقة، وقال

¹ (ابن عساكر: تاريخ دمشق ج 13 / ق 102، وفي سلامة بن صبيح، لم أجد له ترجمة. وابن الجوزي: مناقب ص 111، 112، والمتقي الهندي: كنز العمال 671/12، 672، ونسبه لابن عساكر.

² (ماطه وأماطه: نحاه ودفعه. (لسان العرب 409/7).

³ (يوسف بن حسن بن عبد الهادي المبرد ، محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ،

تحقيق عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000 م ، 2 / 504

⁴ (قال؛ من القيلولة: وهو نومة نصف النهار. (لسان العرب 577/11).

⁵ (ربدتها: يعني: حبستها

له: "اقتص"، قال: "ما أنا بفاعل"، فقال: "والله لتفعلن كما فعل المنصف من حقه"، قال: "فإني أغفرها"، فأقبل عمر على الرجل، فقال: "أنصف من نفسي أصلح من أن ينتصف مني، وأنا كاره"، فلو كنت في الأراك لسمعت حنين عمر - يعني: بكاءه" (1).

أهبها لله وغفر الله لي ولك

وعن سالم بن عبد الله، قال: "نظر عمر رضي الله عنه إلى رجل أذنب ذنباً فتناوله بالدرّة، فقال الرجل: "يا عمر إن كنت أحسنت فقد ظلمتني، وإن كنت أسأت فما علمتني". قال: "صدقت، فاستغفر الله لي فاقتد من عمر، فقال الرجل: "أهبها لله وغفر الله لي ولك".

حتى خشيت أن تجرح أظفاره لحم رأسه

قالوا إن إبراهيم بن مسلم أخبرهم عن رجاء بن حيوة أنه نظر إلى طاووس اليماني يصلي في المسجد الحرام فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ بمكة قد حج ذلك العام فقال إني رأيت طاووس في المسجد فهل لك أن ترسل إليه قال فأرسل إليه سليمان فلما أتاه قال رجاء لسليمان يا أمير المؤمنين لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يتكلم فلما قعد طاووس سكت طويلاً ثم قال ما أول شيء خلق فقلنا لا ندري فقال أول شيء خلق القلم ثم قال أتدرون ما أول شيء كتب قلنا لا قال فإن أول ما كتب بسم الله الرحمن الرحيم ثم كتب القدر خيره وشره إلى يوم القيامة ثم قال أتعلمون من أبغض الخلق إلى الله قلنا لا فقال إن أبغض الخلق إلى الله تعالى عبد أشركه الله في سلطانه فعمل فيه بمعاصيه ثم نهض

¹ (محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [2/ 503]

قال رجاء فأظلم علي البيت فما زلت خائفا عليه حتى توارى فرأيت سليمان يحك رأسه بيده حتى خشيت أن تجرح أظفاره لحم رأسه (1).

لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم

عن عبد الجبار بن عبد العزيز بن أبي حازم قال لما حج سليمان ودخل المدينة زائرا لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ابن شهاب الزهري ورجاء بن حيوة فأقام بها ثلاثة أيام فقال أما هاهنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له بلى هاهنا رجل يقال له أبو حازم فبعث إليه فجاءه وهو أقور أعرج فدخل عليه فوقف منتظرا للإذن

فلما طال عليه الإذن وضع عصيته ثم جلس فلما نظر إليه سليمان ازدردته عينه

فقال له يا أبا حازم ما هذا الجفاء الذي ظهر منك وأنت توصف بروية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع فضل ودين تذكر به فقال أبو حازم وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين فقال سليمان إنه أتاني وجوه أهل المدينة وعلماءها وخيارها وأنت معدود فيهم ولم تأتني فقال أبو حازم أعينك بالله أن تقول ما لم يكن ما جرى بيني وبينك معرفة آتاك عليها قال سليمان صدق الشيخ فقال يا أبا حازم مالنا نكره الموت فقال أبو حازم لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب

قال سليمان صدقت يا أبا حازم فكيف القدوم على الآخرة قال نعم أما المحسن فإنه يقدم على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفر بعيد وأما قدوم المسيء فكالعبد الأبق يؤخذ فيشد كتافه فيؤتي به إلى سيد فظ غليظ فإن شاء عفا وإن شاء عذب فبكي سليمان بكاء شديدا وبكي من حوله

¹ (أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، تحقيق خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1418 هـ - 1997 م. ، 263/2

ثم قال ليت شعري مالنا عند الله يا أبا حازم فقال اعرض نفسك على كتاب الله فإنك تعلم ما لك عند الله
قال سليمان يا أبا حازم وأين أصيب تلك المعرفة في كتاب الله قال عند قوله تعالى { إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم } (الأنفطار 13)

قال سليمان يا أبا حازم فأين رحمة الله قال رحمة الله قريب من المحسنين قال سليمان يا أبا حازم من أعقل الناس قال أبو حازم أعقل الناس من تعلم العلم والحكمة وعلمهما الناس
قال سليمان فمن أحق الناس فقال من حط في هوى رجل وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره

قال سليمان فما أسمع الدعاء قال أبو حازم دعاء المخبئين الخائفين فقال سليمان فما أركى الصدقة عند الله قال جهد المقل قال فما تقول فيما ابتلينا به قال أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه أصلحك الله قال سليمان نصيحة تلقيها فقال ما أقول في سلطان استولى عنوة بلا مشورة من المؤمنين ولا اجتماع من المسلمين فسفكت فيه الدماء الحرام وقطعت به الأرحام وعطلت به الحدود ونكثت به العهود وكل ذلك على تنفيذ الطينة والجمع لمتاع الدنيا المشينة ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها فيا ليت شعري ما تقولون وماذا يقال لكم فقال بعض جلسائه بنس ما قلت يا أقور أمير المؤمنين يستقبل بهذا فقال أبو حازم اسكت يا كاذب فإنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون إن الله قد أخذ على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتُمونه أي لا ينبذونه وراء ظهورهم

قال سليمان يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح ما فسد منا فقال المأخذ في ذلك قريب يسير يا أمير المؤمنين فاستوى سليمان جالسا من اتكائه فقال كيف ذلك فقال تأخذ المال من حله وتضعه في أهله وتكف الأكف عما نهيت وتمضيها فيما أمرت به

قال سليمان ومن يطيق ذلك فقال أبو حازم من هرب من النار إلى الجنة ونبذ سوء العادة إلى خير العبادة فقال سليمان أصحابنا يا أبا حازم وتوجه معنا تصب منا ونصب منك

قال أبو حازم أعود بالله من ذلك قال سليمان ولم يا أبا حازم قال أخاف أن أركن إلى الذين ظلموا فيزيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات

فقال سليمان فتزورنا

قال أبو حازم إنا عهدنا الملوك يأتون العلماء ولم يكن العلماء يأتون الملوك فصار في ذلك صلاح الفريقين ثم صرنا الآن في زمان صار العلماء يأتون الملوك والملوك تقعد عن العلماء فصار في ذلك فساد الفريقين جميعا

قال سليمان فأوصنا يا أبا حازم وأوجز

قال اتق الله ألا يراك حيث نهاك ولا يفقدك من حيث أمرك

قال سليمان ادع لنا بخير

فقال أبو حازم اللهم إن كان سليمان وليك فبشره بخير الدنيا والآخرة وإن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته

قال سليمان زدني

قال قد أوجزت فإن كنت وليه فاغتبط وإن كنت عدوه فاتعظ فإن رحمته في الدنيا مباحة ولا يكتبها في الآخرة إلا لمن اتقى في الدنيا فلا نفع في قوس ترمي بلا وتر فقال سليمان هات يا غلام ألف دينار فأتاه بها فقال خذها يا أبا حازم

فقال لا حاجة لي بها لأنني وغيري في هذا المال سواء فإن سويت بيننا وعدلت أخذت وإلا فلا لأنني أخاف أن يكون ثمننا لما سمعت من كلامي

وإن موسى بن عمران عليه السلام لما هرب من فرعون ورد ماء مدين ووجد عليه الجاريتين تذودان

فقال مالكما معين قالتا لا فسقى لهما ثم تولى إلى الظل

فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ولم يسأل الله أجرا

فلما أعجل الجاريتان الإنصراف أنكر ذلك أبوهما

فقال لهما ما أعجلكما اليوم قالتا وجدنا رجلا صالحا قويا سقي لنا
قال ما سمعتماه يقول قالتا تولى إلى الظل وهو يقول رب إني لما أنزلت إلي من
خير فقير

فقال ينبغي لهذا أن يكون جائعا

تنطلق إحداكما له فتقول له إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فأنته
إحدهما تمشي على استحياء أي على إجلال له قال إن أبي يدعوك ليجزيك أجر
ما سقيت لنا

فجزع موسى من ذلك وكان طريدا في الفيافي والصحاري فقال لها قولي لأبيك
إن الذي سقي يقول لا أقبل أجرا على معروف اصطنعتة فأنصرفت إلى أبيها
فأخبرته

فقال اذهبي فقولي له أنت بالخيار بين قبول ما يعرض عليك أبي وبين تركه
فأقبل فإنه يحب أن يراك ويسمع منك فأقبل والجارية بين يديه فهبت الريح
فوصفتها له وكانت ذات خلق كامل

فقال لها كوني ورائي وأريني ممت الطريق

فلما بلغ الباب قال استأذني لنا فدخلت على أبيها فقالت إنه مع قوته لأمين

فقال شعيب وبم علمت ذلك فأخبرته ما كان من قوله عند هبوب الريح عليها
فقال أدخليه فدخل فإذا شعيب قد وضع الطعام فلما سلم رحب به وقال أصب من
طعامنا يا فتى

فقال موسى أعوذ بالله

قال شعيب لم قال لأنني من بيت قوم لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهابا

قال شعيب لا والله ما طعامي لما تظن ولكنه عادتني وعادة آبائي نقري الضيف
ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل

وهذه الدنانير يا أمير المؤمنين إن كانت ثمننا لما سمعت من كلامي فإن أكل الميتة والدم في حال الضرورة أحب إلي من أن أخذها

فأعجب سليمان بأمره إعجابا شديدا

فقال بعض جلسائه يا أمير المؤمنين إن الناس كلهم مثله

قال لا

قال الزهري إنه لجاري منذ ثلاثين سنة ما كلمته قط

فقال أبو حازم صدقت لأنك نسيت الله ونسيتني ولو ذكرت الله لذكرتني

قال الزهري أتشتمني قال له سليمان بل أنت شتمت نفسك أو علمت أن للجار على الجار حقا قال أبو حازم إن بني إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء وكانت العلماء تفر بدينها من الأمراء فلما رئي قوم من أراذل الناس تعلموا العلم وأتوا به الأمراء استغنت الأمراء عن العلماء واجتمع القوم على المعصية فسقطوا وهلكوا ولو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهم لكانت الأمراء تهابهم وتعظمهم

فقال الزهري كأنك إياي تريد وبني تعرض قال هو ما تسمع

قال سليمان يا أبا حازم عظني وأوجز

قال حلال الدنيا حساب وحرامها عذاب وإلى الله المآب فاتق عذابك أودع

قال لقد أوجزت فأخبرني ما مالك قال الثقة بعدله والتوكل على كرمه وحسن الظن به والصبر إلى أجله واليأس مما في أيدي الناس

قال يا أبا حازم ارفع إلينا حوائجك قال رفعتها إلى من لا تخذل دونه فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني رضيت مع أي قد نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول إلى شيئين أحدهما لي والآخر لغيري

فأم ما كان لي فلو احتلت عليه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه وحينه الذي قد قدر لي

وأما الذي لغيري فذلك لا أطمع فيه فكما منعتني رزق غيري كذلك منع غيري
رزقي فعلام أقتل نفسي في الإقبال والإدبار قال سليمان لا بد أن ترفع إلينا
حاجة نأمر بقضائها

قال فتقضيتها قال نعم قال فلا تعطني شيئاً حتى أسألكه ولا ترسل إلي حتى آتيك
وإن مرضت فلا تعدني وإن مت فلا تشهدني

قال سليمان أبيت يا أبا حازم أبيت قال أتأذن لي أصلحك الله في القيام فإني شيخ
قد زمنت

قال سليمان يا أبا حازم مسألة ما تقول فيها قال إن كان عندي علم أخبرتك به
وإلا فهذا الذي عن يسارك يزعم أنه ليس شيء يسأل عنه إلا وعنده له علم
يريد محمداً الزهري فقال له الزهري عائد بالله من شرك أيها المرء

قال أما من شري فستعفى وأما من لساني فلا

قال سليمان ما تقول في سلام الأئمة من صلاتهم أو واحدة أم اثنتان فإن العلماء
لدينا قد اختلفوا علينا في ذلك أشد الاختلاف قال على الخبر سقطت أرميك في
هذا بخبر شاف

حدثني عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد أنه شهد رسول الله صلى الله
عليه وسلم يسلم في الصلاة عن يمينه حتى يرى بياض خده الأيمن ثم يسلم
عن يساره حتى يرى بياض خده الأيسر سلاماً يجهر به

قال عامر وكان أبي يفعل ذلك

وأخبرني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى عمر بن الخطاب وابن عمر يسلمان
من الصلاة كذلك

فقال الزهري اعلم ما تحدث به أيها الرجل فإن الحديث عن رسول الله صعب
شديد إلا بالتثبت واليقين

قال أبو حازم قد علمته ورويته قبل أن تطلع أضراسك في رأسك

فالتفت الزهري إلى سليمان قال أصلحك الله

إن هذا الحديث ما سمعت به من حديث رسول الله ﷺ وسلم قط فضحك أبو حازم
ثم قال يا زهري أحطت بحديث رسول الله ﷺ كله قال لا
قال فثلاثة أرباعه قال لا قال فثلاثة فقال أراني ذلك قد رويت وبلغني
فقال أبو حازم فهذا من الثلث الذي لم يبلغك وبقي عليك سماعه
فقال سليمان ما ظلمك من حاجك ثم قام مأدونا له
فأتبعه سليمان بصره ينظر إليه ويعجب به
ثم التفت إلى جلسائه فقال ما كنت أظن بقي في الدنيا مثل هذا
قال ثم انصرف سليمان من الحج قافلا إلى الشام (1).

وإن في الأرض عن مجلسك لسعة

وذكروا أن غلمانا لسليمان نازعا غلمانا لعمر بن عبد العزيز فتعدي غلمان عمر على غلمان
سليمان فرفع ذلك إلى سليمان وأغرى بعمر

فقال له سليمان ألا تتصف غلماني وهو كالمغضب مما فعل بهم فقال
عمر ما علمت هذا قبل هذا الوقت وما سمعت هذا إلا في مقامي هذا
فقال سليمان كذبت لقد علمته

فقال عمر كذبت والله ما كذبت ولا تعمدت كذبا منذ شددت منزري على
نفسي وإن في الأرض عن مجلسك لسعة ثم خرج عمر فتجهز وهو
يريد مصر ليسكنها فبلغ ذلك سليمان فندم على ما كان من قوله وأرسل
إليه أن لا يبرح وأمر رجلا يقول له لا تعاقب أمير المؤمنين على قوله
ولا تذكر له هذا فترك عمر الخروج وجلس وأقل الاختلاف إلى سليمان
(2).

¹ (الإمامة والسياسة ، 2 / 266-262)

² (الإمامة والسياسة ، 2 / 266)

ما الذي حملك على ما فعلت ؟

وروى ابن عساكر عن أبي الحسين النوري أنه اجتاز بزورق فيه خمر مع ملاح، فقال: ما هذا ؟ ولمن هذا ؟ فقال له: هذا خمر للمعتضد. فصعد أبو الحسين إليها فجعل يضرب الدنان بعمود في يده حتى كسرها كلها إلا دنا واحدا تركه، واستغاث الملاح فجاءت الشرطة فأخذوا أبا الحسين فأوقفوه بين يدي المعتضد فقال له: ما أنت ؟ فقال أنا المحتسب.

فقال: ومن ولاك الحسبة ؟ فقال: الذي ولاك الخلافة يا أمير المؤمنين. فأطرق رأسه ثم رفعها فقال: ما الذي حملك على ما فعلت ؟ فقال: شفقة عليك لدفع الضرر عنك.

فأطرق رأسه ثم رفعه فقال: ولاي شئ تركت منها دنا واحدا لم تكسره ؟ فقال: لاني إنما أقدمت عليها فكسرتها إجلالا لله تعالى، فلم أبال أحد حتى انتهيت إلى هذا الدن دخل نفسي إعجاب من قبيل أني قد أقدمت على مثلك فتركته، فقال له المعتضد: اذهب فقد أطلقت يدك فغير ما أحببت أن تغيره من المنكر.

فقال له النوري: الآن انتقض عزمي عن التغيير، فقال: ولم ؟ فقال: لاني كنت أغير عن الله، وأنا الآن أغير عن شرطي. فقال: سل حاجتك.

فقال: أحب أن تخرجني من بين يديك سالما: فأمر به فأخرج فصار إلى البصرة، فأقام بها مختفيا خشية أن يشق عليه أحد في حاجة عند المعتضد.

فلما توفي المعتضد رجع إلى بغداد.

فأذن في أي وقت كان

وذكر القاضي أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي عن الشيخ من التجار قال: كان لي على بعض الامراء مال كثير فمأطمني ومنعني حقي، وجعل كلما جئت أطلبه حجبنى عنه ويأمر غلمانه يؤذونني، فاشتكت عليه إلى الوزير فلم يفد ذلك شيئا، وإلى أولياء الامر من

الدولة فلم يقطعوا منه شيئاً، وما زاده ذلك إلا منعاً وجحوداً، فأيست من المال الذي عليه ودخلني هم من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي، إذ قال لي رجل: ألا تأتي فلانا الخياط - إمام مسجد هناك - فقلت وما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم. وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟ فقال لي: هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجا. قال فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي ومالي وما لقيت من هذا الظالم، فقام معي فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملاً من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له: ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذنت.

فتغير لون الأمير ودفع إلي حقي. قال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انصرع ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئاً من المال فلم يقبل مني شيئاً، وقال: لو أردت هذا لكان لي من الاموال ما لا يحصى. فسألته عن خبره وذكرته له تعجبي منه وألححت عليه فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا في جوارنا أمير تركي من أعالي الدولة، وهو شاب حسن، فمر به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريد لها على نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبى عليه وتصيح بأعلى صوتها: يا مسلمين أنا امرأة ذات زوج، وهذا رجل يريدني على نفسي ويدخلني منزله، وقد حلف زوجي بالطلاق أن لا أبيت في غير منزله، ومتى بت هاهنا طلقت منه ولحقني بسبب ذلك عار لا تدحضه الايام ولا تغسله المدامع.

قال الخياط: فقامت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من يديه فضربني بدبوس في يده فشج رأسي، وغلب المرأة على نفسها وأدخلها منزله قهراً، فرجعت أنا فغسلت الدم عني وعصبت رأسي واصلت بالناس العشاء ثم قلت للجماعة: إن هذا قد فعل ما قد علمتم

فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلص المرأة منه، فقام الناس معي فهجمنا عليه داره فتار إلينا في جماعة من غلمانهم بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس، وقصدني هو من بينهم فضربني ضربا شديدا مبرحا حتى أدماني، وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة، فرجعت إلى منزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء، فنمت على فراشي فلم يأخذني نوم، وتحيرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها

حتى لا يقع على زوجها الطلاق، فألهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها منزله فتذهب إلى منزل زوجها، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم على عادتي قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح، فبينما أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا، إذ امتلات الطريق فرسانا ورجالة وهم يقولون: أين الذي أذن هذه الساعة ؟ فقلت: ها أنا ذا، وأنا أريد أن يعينوني عليه، فقالوا: انزل، فنزلت فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأخذوني وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئا، حتى أدخلوني عليه، فلما رأيته جالسا في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فرزعا شديدا، فقال: أدن، فدنوت فقال لي: ليسكن ورعك وليهدأ قلبك. وما زال يلاطفني حتى أطمأنت وذهب خوفي، فقال: أنت الذي أذنت هذه الساعة ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

فقال: ما حملك على أن أذنت هذه الساعة، وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه ؟ فتغر بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم. فقلت: يؤمنني أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبري ؟ فقال: أنت آمن.

فذكرت له القصة.

قال: فغضب غضبا شديدا، وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا فأحضر سريعا فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جهته ثقات

ومعهن ثقة من جهته أيضا، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والاحسان إليها، فإنها مكرهة ومعذورة.

ثم أقبل على ذلك الشاب الامير فقال له: كم لك من الرزق ؟ وكم عندك من المال ؟ وكم عندك من الجوار والزوجات ؟ فذكر له شيئا كثيرا .

فقال له: ويحك أما كفاك ما أنعم الله به عليك حتى انتهكت حرمة الله وتعديت حدوده وتجرات على السلطان، وما كفاك ذلك أيضا حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته ؟ فلم يكن له جواب .

فأمر به فجعل في رجله قيد وفي عنقه غل ثم أمر به فأدخل في جوالق ثم أمر به فضرب بالدبابيس ضربا شديدا حتى خفت، ثم أمر به فلقى في دجلة فكان ذلك آخر العهد به .

ثم أمر بدرا صاحب الشرطة أن يحتاط على ما في داره من الحواصل والاموال التي كانت يتناولها من بيت المال، ثم قال لذلك الرجل الصالح الخياط: كلما رأيت منكرا صغيرا كان أو كبيرا ولو على هذا - وأشار إلى صاحب الشرطة - فأعلمني، فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلى ما بيني وبينك الاذان، فأذن في أي وقت كان أو في مثل وقتك هذا .

قال: فلهذا لا أمر أحدا من هؤلاء الدولة بشئ إلا امتثلوه، ولا أنهاهم عن شئ إلا تركوه خوفا من المعتضد. وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن .

فإنه قد نعس

وذكر الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب قال: كنت يوما عند المعتضد وخادم واقف على رأسه يذب عنه بمذبة في يده إذ حركها فجاءت في قلنسوة الخليفة فسقطت عن رأسه، فأعظمت أنا ذلك جدا وخفت من هول ما وقع، ولم يكثرث الخليفة لذلك، بل أخذ قلنسوته فوضعها على رأسه ثم قال لبعض الخدم: مر هذا البائس ليذهب لراحته فإنه قد نعس، وزيدوا في عدة من يذب بالنوبة .

قال الوزير: فأخذنا في الثناء على الخليفة والشكر له على حلمه، فقال: إن هذا البائس لم يعتمد ما وقع منه وإنما نعس، وليس العتاب والمعاتبة إلا على المعتمد لا على المخطئ والساهي .

الرعية وديعة الله عند سلطانها

ورفع يوما إلى المعتضد قوما يجتمعون على المعصية فاستشاره وزيره في أمرهم فقال: ينبغي أن يصلب بعضهم ويحرق بعضهم.

فقال: ويحك لقد بردت لهب غضبي عليهم بقسوتك، أما علمت أن الرعية وديعة الله عند سلطانها، وأنه سائله عنها؟ ولم يقابلهم بما قال الوزير.

كيف أنت يا هشام؟

قدم هشام بن عبد الملك حاجًا إلى مكة فلما دخلها قال: انتوني برجل من الصحابة، فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا، فقال: من التابعين. فأتي بطاوس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين، ولكن قال: السلام عليك يا هشام، ولم يكنه، وجلس بإزائه. وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضبًا شديدًا حتى هم بقتله. فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله، ولا يمكن ذلك. فقال: يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟ فازداد غضبًا وغيظًا. قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تقبل يدي، ولم تسلم على بإمرة المؤمنين ولم تكنني، وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت: كيف أنت يا هشام؟ قال: أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، ولا يعاتبني ولا يغضب عليّ، وأما قولك لم تقبل يدي فإني سمعت أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه يقول: (لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة، أو ولده من رحمة). وأما قولك لم تسلم علي بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب، وأما قولك لم تكنني فإن الله تعالى سمي أنبياءه وأوليائه فقال: يا يحيى يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } ، وأما قولك: جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه يقول: (إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام) (1).

⁽¹⁾ (إحياء علوم الدين للغزالي (2/146).)

فإياك أن تعرض لله تعالى بالمعاصي

وروى أبو سليمان الخطابي بسنده إلى عبد الله بن بكر السهمي قال : سمعت بعض أصحابنا قالوا : أرسل عمر بن هبيرة - وهو على العراق - إلى فقهاء من فقهاء البصرة وفقهاء من فقهاء الكوفة ، وكان ممن أتاه من فقهاء البصرة الحسن ، ومن أهل الكوفة الشعبي ، فدخلوا عليه ، فقال لهم : إن أمير المؤمنين يزيد يكتب إلي في أمور أعمل بها فما تريان ؟ قال : فقال الشعبي : أصلح الله الأمير أنت مأمور والتبعة على من أمرك ، فأقبل على الحسن فقال : ما تقول ؟ قد قال هذا ، قل أنت ، قال : اتق الله يا عمر فكأنك بملك قد أتاك فاستزلك عن سريرك هذا ، وأخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، إن الله تعالى ينجيك من يزيد ، وإن يزيد لا ينجيك من الله سبحانه ، وإياك أن تعرض لله تعالى بالمعاصي ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . ثم قام فتبعه الأذن فقال : أيها الشيخ ما حملك على ما استقبلت به الأمير ؟ قال : حملني عليه ما أخذ الله تعالى على العلماء في علمهم ثم تلا : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ... } الآية (آل عمران 187)

أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً

أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين، ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان ما تقول يا عمر في هذا؟ قال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً، وأنت المسئول عن ذلك كله. فلما اقتربوا من المعسكر، إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعباً⁽¹⁾، فقال له سليمان: ما تقول في هذا يا عمر؟ فقال: لا أدري. فقال: ما ظنك أنه يقول؟ قال: كأنه يقول: من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك؟ فقال عمر: أعجب مني من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه⁽²⁾

⁽¹⁾ (نعب الغراب : صوت أو مد عنقه وحرك رأسه في صياحه.

⁽²⁾ (البداية والنهاية (685/12).)

هم خصماؤك يوم القيامة

لما وقف سليمان وعمر بعرفة جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: هؤلاء رعيّتك اليوم، وأنت مسئول عنهم غداً وفي رواية: وهم خصماؤك يوم القيامة فبكى سليمان وقال: بالله استعين⁽¹⁾

دعا بالكتاب ومزقه

كان زيد بن الحسن بن علي قد أجاب الوليد بن عبد الملك في مسألة خلع سليمان خوفاً من الوليد، وكتب بموافقته من المدينة إلى الوليد، فلما استخلف سليمان وجد الكتاب، فبعث إلى واليه على المدينة، أن يسأل زيدا عن أمر الكتاب، فإن هو اعترف به فليبعث بذلك إليه، وإن أنكر عليه اليمين أمام منبر رسول الله ﷺ، فلما بعث باعترافه إلى سليمان كتب سليمان إلى والي المدينة أن يضربه مائة سوط ويمشي به حافياً.. فحبس عمر الرسول وقال: لا تخرج حتى أكلم أمير المؤمنين، فيما كتب في زيد بن حسن لعلي أطيب نفسه فيترك هذا الكتاب. فجلس الرسول فمرض سليمان، فقال للرسول لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض، فلما توفي سليمان وأفضى الأمر إلى عمر دعا بالكتاب ومزقه.

إن فيك كبراً

قال أبو النضر: دسست إلى عمر بن عبد العزيز بعض أهله، أن أقل له: إن فيك كبراً، أو إنه يتكبر. فقليل ذلك له، فقال عمر: قل له: ليس ما ظننت، إن كنت تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله عز وجل وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأركبه، الكبرياء إنما هو رداء الرحمن فأنازع إياه. ولكن كنت غلاماً بين ظهرائي قومي، يدخلون علي بغير إذن، ويتوطؤون فرشي، ويتناولون مني ما يتناول القوم من أخيه الذي لا سلطان له عليهم. فلما أن وليت خيرت نفسي في أن أمكنهم من حالهم التي كنت لهم عليها، وأخالفهم فيما خالف الحق، أو أتمنع منهم في بابي ووجهي ليكفوا عني أنفسهم وعن الذي أحذر عليهم لو

⁽¹⁾ (البداية والنهاية (685/12).)

كنت جرأتهم على نفسي من العقوبة والأدب. فهو الذي دعاني إلى هذا.

وأنا وأنت نعصي الله في كل يوم وليلة، ونتمنى على الله الجنة.

قال داود بن عبد الرحمن: كان لعمر بن عبد العزيز أخوان في الله عبيدين: أحدهما زياد والآخر سالم، فدخل عليه زياد وعنده امرأته فاطمة بنت عبد الملك، فأراد أن تقوم فقال لها: إنما هو زياد عمك. ثم نظر إليه فقال: زياد في دراع من صوف لم يل من أمور المسلمين شيئاً. ثم ألقى بثوبه على وجهه فبكى، فقال لامرأته: ما هذا؟ قالت: هذا عمله منذ استخلف. قال: ودخل عليه سالم فقال: يا سالم، إني أخاف أن أكون قد هلكت. قال: إن تك تخاف فلا بأس، ولكن عبد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأباحه الجنة. عصى الله معصية واحدة، فأخرجه بها من الجنة، وأنا وأنت نعصي الله في كل يوم وليلة، ونتمنى على الله الجنة.

لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على رب العالمين

حدث عثمان بن عطاء الخراساني قال انطلقت مع أبي وهو يريد هشام بن عبد الملك فلما قربنا إذا شيخ أسود على حمار عليه قميص دريس (1) وجبة دنسة وقلنسوة لاطية (2) دنسة وركاباه (3) من خشب فضحكت وقلت لأبي من هذا الأعرابي قال اسكت هذا سيد فقهاء أهل الحجاز هذا عطاء بن أبي رباح فلما قربت نزل أبي عن بغلته ونزل هو عن حمارة فاعتنقا وتساءلا ثم عادا فركبا فانطلقا حتى وقفا بباب هشام فلما رجع أبي سألته فقلت حدثني ما كان منكما قال لما قيل لهشام عطاء بن أبي رباح أذن له فوالله ما دخلت إلا بسببه فلما رآه هشام قال مرحبا مرحبا ها هنا ها هنا فرفعه حتى مست ركبته ركبته وعنده أشراف الناس يتحدثون فسكتوا فقال هشام ما حاجتك يا محمد قال يا أمير المؤمنين أهل الحرمين أهل الله وجيران رسول الله (ﷺ) يقسم فيهم أعطياتهم وأرزاقهم قال نعم يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعتاين وأرزاقهم لسنة ثم قال هل من حاجة غيرها يا أبا محمد قال نعم يا أمير المؤمنين أهل

¹ (الدرس والدريس : الثوب الخلق

² (لطأ بالارض : لصق

³ (الركاب من السرج كالغرز من الرجل

الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقادة الإسلام ترد فيهم فضول صدقاتهم قال نعم اكتب يا غلام بأن ترد فيهم صدقاتهم هل من حاجة غيرها يا أبا محمد قال نعم يا أمير المؤمنين أهل الثغور يرمون من وراء بيضتكم ويقاتلون عدوكم قد أجرىتم لهم أرزاقا تدرها عليهم فإنهم إن هلكوا غزيتم قال نعم اكتب تحمل أرزاقهم إليهم يا غلام هل من حاجة غيرها يا أبا محمد قال نعم يا أمير المؤمنين أهل ذمتكم لا تجبى صغارهم ولا تتعتع كبارهم ولا يكلفون ما لا يطيقون فإن ما تجبونه معونة لكم على عدوكم قال نعم اكتب يا غلام بأن لا يحملوا ما لا يطيقون هل من حاجة غيرها قال نعم يا أمير المؤمنين اتق الله في نفسك فإن خلقت وحدك وتموت وحدك وتحشر وحدك وتحاسب وحدك لا والله ما معك ممن نرى أحد قال وأكب هشام وقام عطاء فلما كنا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما أدري ما فيه أدراهم أم دنائير وقال إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا قال لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على رب العالمين قال ثم خرج عطاء ولا والله ما شرب عندهم حسوة (1) من ماء فما فوقه .

فما ظنك بمن أخذه كله

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك فقال له عظمى يا أعرابي فقال كفى بالقرآن واعظا أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) ثم قال يا أمير المؤمنين هذا جزاء من يطفف في الكيل والميزان فما ظنك بمن أخذه كله (2) .

وأسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى

حدث يونس بن جعفر الرقي أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كتب الى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب أما بعد فإن الله تبارك اسمه وتعالى جده ابتلاني بما ابتلاني به من أمر عباده وبلاده أن يحسن عوني وعاقبتي وعاقبة من ولاني أمره وقد رأيت أن أسير في الناس

¹ (أي شربة

² (جمهرة خطب العرب ، 3 / 245

بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان قضى الله ذلك واستطعت
اليه سبيلا فابعث الي بكتب عمر وقضائه في أهل القبلة وأهل العهد
فاني فتبع أثره وسائر بسيرته ان شاء الله وأسأل الله التوفيق لما يحب
ويرضى(1)

ثم إن سالما أجابه :

أما بعد فإن الله عز وجل خلق الدنيا لما أراد أن يخلقها له فجعل لها مدة
قصيرة كأن ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار ثم قضى عليها وعلى أهلها
الفناء فقال { كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون } لا يقدر أهلها
منها يا عمر على شيء حتى تفارقهم ويفارقونها بعث بذلك رسوله وأنزل
كتابه ضرب في ذلك الامثال وضرب فيه الوعيد ووصل به القول وشرع فيه
دينه وأحل الحلال وحرم الحرام وقص فأحسن القصص وجعل دينه في
الاولين والآخرين ديناً واحدا فلم يفرق بين كتبه ولم يختلف رسله ولم يبدل
قوله ثم انك يا عمر لست تعدو أن تكون رجلاً من بني ادم يكفيك ما يكفي
رجلاً منهم في الطعام والشراب فاجعل فضل ذلك فيما بينك وبين الرب الذي
توجه اليه شكر النعم فانك قد وليت أمراً عظيماً ليس عليك أحد دون الله عز
وجل قد أفضى فيما بينك وبين الخلائق ان استطعت أن تغنم نفسك وأهلك وألا
تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل فانه قد كان قبلك رجال عملوا ما عملوا
وأحيوا وأماتوا ما أماتوا حتى ولد في ذلك رجال ونشئوا فيه وظنوا أنها
السنة فسدوا على الناس أبواب الرخاء فلم يسدوا منها باباً إلا فتح الله عليهم
فيه باب بلاء فان استطعت ولا قوة الا بالله أن تفتح على الناس أبواب الرخاء
فافعل فانك لن تفتح منها باباً إلا سد الله الكريم عنك باب بلاء ولا يمنعك من
نزع عامل أن تقول لا أجد من يكفيني عمله فانك اذا كنت تفزع لله وتستعمل
لله أتاح الله لك أعواناً فأتاك بهم وانما قدر عون الله إياك بقدر نيتك فإن تمت
نيتك تم عون الله الكريم إياك وإن قصرت نيتك قصر من الله العون بحسب ذلك
واعلم انه كان قبلك رجال عاينوا هول المطلاع وعالجوا نزع الموت الذي منه

(1

أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري ، أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز رحمه الله
وسيرته ، تحقيق د عبد الله عبد الرحيم عيلان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت / سورية ، سنة
النشر 1980م - 1400هـ ، ص 71

كانوا يفرون فانشقت بطونهم التي كانوا لا يشبعون بها وانفقات أعينهم التي كانت لا تنقطع لذتها واندقت رقابهم غير موسدين بعدما نعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم فصاروا جيفا في بطون الاراضي تحت مهادها والله لو كانوا الى جانب مسكين لتأذى بريحهم بعد انفاق ما لا يحصى عليهم وعلى خواصهم من الطيب كل ذلك اسرافا وبدارا عن حق الله فاننا لله وانا اليه راجعون ما أعظم الذي ابتليت به وأفطع الذي سيق اليك أهل العراق أهل العراق أبرهم منك منزلة من لا فقر بك اليه ولا غنى بك عنه فمن بعثت من عمالك الى العراق فانه نهيا شديدا شبيها بالعقوبة عن أخذ الاموال وسفك الدماء الا بحقها المال المال يا عمر والدم فانه لا نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ثم لم تغيره وانه من بعثت من عمالك أن يعملوا بمعصية الله وأن يحكموا بشبهة وأن يحتكروا على المسلمين بيعا فانك ان اجترأت على ذلك أتى بك يوم القيامة ذليلا صغيرا وان تجنبت عنه عرفت راحتته في سمعك وبصرك وقلبك كتبت تسألني أن أبعث اليك بكتب عمر وبقضائه في أهل القبلة وفي أهل العهد وان عمر رضي الله عنه عمل في غير زمانك وعمل بغير رجالك وانك ان عملت في زمانك على النحو الذي عمل فيه عمر بن الخطاب في زمانه بعد الذي قد رأيت وبلوت رجوت ان تكون أفضل عند الله منزله من عمر بن الخطاب فقل كما قال العبد الصالح (وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب (1)

أمانيتها كاذبة، وآمالها باطلة

حدث محمد بن كعب القرظي قال عهدت عمر بن عبد العزيز وهو أمير علينا بالمدينة للوليد بن عبد الملك كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز واصفاً له الدنيا: أما بعد: يا أمير المؤمنين فإن الدنيا دار ظعن وانتقال وليست بدار إقامة على حال، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فأحذرهما، فإن الراغب فيها تارك، والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذلل من أعزها، وتفرق من جمعها، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمدوي جراحه يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، الصبر على

¹ (أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري ، أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز رحمه الله وسيرته ، ص 72

لوائها، أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها، ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة ختالة خداعة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطابها، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، وهي والذي بعث محمداً بالحق لأزواجها قاتلة، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤد إلى الهلكة والغناء واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيتها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وتاركها موفق، والتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله، وحذر ما حذره، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء فعند الموت يأتيه اليقين، الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الدواء، لما يرجو من العافية، ويخاف من سوء عاقبة الدار والدنيا وأيم الله، يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام، وإنني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فإن تنج من ذي عزيمة وإلا فإني لا أخالك ناجيا

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العزيز بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده وقال: يرحم الله الحسن فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، والله دره من مشفق ما أنصحه وواعظ ما أصدقه وأفصح. وكتب إليه عمر بن عبد العزيز: وصلت مواعظك النافعة فاستشفيت بها، ولقد وصفت الدنيا بصفتها، والعاقل من كان فيها على وجل، فكأن كل من كتب عليه الموت من أهلها قد مات والسلام عليك ورحمة الله، وبركاته، فلما وصل كتابه إلى الحسن قال: لله درّ أمير المؤمنين من قائل حق وقابل وعظاً لقد أعظم الله جل ثناؤه بولايته المنة، ورحم بسلطانه الأمة، وجعله بركة ورحمة. وكتب إليه: أما بعد: فإن الهول الأعظم، والأمر المطلوب أمامك، ولا بد من مشاهدتك ذلك، إما بنجاة أو بعطب (1)

¹ (الصلابي ، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار ، 4 / 85)

الإمام العادل في نظر الحسن البصري:

عندما جاء عمر بن عبد العزيز للخلافة نجد الحسن البصري قريباً من الخليفة الجديد يتعهده بالوعظ والإرشاد ويرسم له منهاجاً للإمام العادل وهذا دور إيجابي من الحسن - رحمه الله - يبين العمل المطلوب من العالم الرباني الذي يسعى لمساعدة المصالحين من أصحاب القرار لنصرة الإسلام وهذا يدلنا على تكامل شخصية الحسن الإسلامية فقد شارك في الجهاد والتعليم والتربية، وكان رائد المدرسة الإصلاح الاجتماعية بين الناس في حياتهم، واهتم بأمراض القلوب، وعلاجها، وكانت له مواقفه السياسية من الثورات، ومن الحكام الظالمين، وهنا تتجلى شخصيته السياسية أكثر من قربه من عمر بن عبد العزيز وشد أزره والوقوف بجانبه والتنظير لمعالم الإصلاح والتجديد الراشدي الذي قاده عمر بن عبد العزيز، فقد جاء في رسالته التي كتبها إلى عمر بن عبد العزيز: أعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر، وصلاح كل مفسد، وقوة كل ضعيف ونصفه كل مظلوم، ومفرع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ويزودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغيراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها: حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتقطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين وصي اليتامة، وخازن المساكين: يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح: تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريههم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله كعبد إئتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدل المال وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله. وأعلم يا أمير المؤمنين إن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاه من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر، يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده وقلة أشياءك عنده، وأنصارك عليه: فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر واعلم يا أمير المؤمنين، أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه

ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، ويُسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه واذكر، يا أمير المؤمنين، إذا بعثر ما في القبور، وحُصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن، يا أمير المؤمنين، وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل - لا تحكم، يا أمير المؤمنين، في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا (1)، ولا ذمة فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك، وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبیین والمرسلين وقد عنت الوجوه للحي القيوم، إني يا أمير، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قلبي، فلم آلك شفقة ونصحك فأنزل كتابي إليك كمداي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له من ذلك من العافية والصحة والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته (2).

أما أهل السموات فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد لعنوك

وروي أن الحجاج بني دارا بواسط وأحضر الحسن ليراها فلما دخلها قال الحمد لله إن الملوك ليرون لأنفسهم عزا وإنا لنرى فيهم كل يوم عبرا يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده وإلى فرش فينجدده وإلى ملابس ومراكب فيحسنها ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء فيقول انظروا ما صنعت فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفسق الفاسقين أما أهل السموات فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد لعنوك بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور ثم خرج وهو يقول إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبينه للناس ولا يكتُمونه وبلغ الحجاج ما قال فاشتد غضبه وجمع أهل الشام فقال يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تتكروا

¹ (الإل: العهد

² (الصلابي، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، 4/ 86)

ثم أمر بإحضاره فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج فقال يا أبا سعيد أما كان لإمارتي عليك حق حين قلت ما قلت فقال يرحمك الله أيها الأمير إن من خوفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحب فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف وما أردت الذي سبق إلى وهمك والأمران بيدك العفو والعقوبة فافعل الأولي بك وعلى الله فتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا الحجاج منه واعتذر إليه وأكرمه وحياه

وفي رواية أخرى فلما دخل قال له الحجاج ها هنا فأجلسه قريبا منه وقال ما تقول في علي وعثمان قال أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك قال فرعون لموسى (فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) علم علي وعثمان عند الله قال أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ودعا بغالية وعلف بها لحيته فلما خرج تبعه الحاجب فقال له ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه قال قلت يا عدتي عند كربتي ويا صاحبي عند شدتي ويا ولي نعمتي ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أرزقني مودته واصرف عني أذاه ففعل ربي عز وجل .

فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك

حدث إبراهيم بن يسار قال سمعت إبراهيم بن أدهم يقول بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال لخالد بن صفوان عظمي وأوجز قال فقال خالد يا أمير المؤمنين إن أقواما غرهم ستر الله عز وجل وفتنهم حسن الثناء فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين وبثناء الناس مسرورين وعن ما افترض الله متخلفين ومقصرين وإلى الأهواء مائلين قال فبكى ثم قال أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى .

فلعلي أنجو مع الناجين وأفوز مع الفائزين

قال الفضيل : بلغني أن خالد بن صفوان دخل على عمر فقال له عمر بن عبد العزيز عظمي يا خالد فقال إن الله عز وجل لم يرض أحدا أن يكون فوقك فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك قال فبكى عمر حتى غشي عليه ثم أفاق فقال هيه يا خالد لم يرض أن يكون أحد فوقني فوالله لأخافنه خوفا ولأحذرنه حذرا ولأرجونه رجاء ولأحببه محبة ولأشكرنه شكرا ولأحمدنه حمدا يكون ذلك أشد مجهودي وغاية طاقتي ولأجتهدن في العدل والنصفة والزهد في فاني

الدنيا لزوالها والرغبة في بقاء الآخرة لدوامها حتى ألقى الله عز وجل فلعلي
أنجو مع الناجين وأفوز مع الفائزين وبكى حتى غشي عليه قال وتركته مغشيا
عليه وانصرفت .

عني فإني عاهدت الله عز وجل عهدا ألا أخلو بملك إلا ذكرته الله عز وجل

عن خالد بن صفوان بن الأهم قال أوفدني يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد
الملك في وفد العراق فقدمت عليه وقد خرج متبديا بقرابته وأهله وحشمه
وغاشيته من جلسائه فنزل في أرض قاع صحصح (1) متنائف أفيح (2) في
عام قد بكر وسميه (3) وتتابع وليه (4) وأخذت الأرض زينتها من اختلاف
ألوان نبتها من نور ربيع مونق فهو في أحسن منظر وأحسن مختبر وأحسن
مستمطر بصعيد كأن ترابه قطع الكافور حتى لو أن قطعة ألقيت فيه لم تترب
وقد ضرب له سرادق من حبر كان صنعه له يوسف بن عمر باليمن فيه أربعة
أفرشة من خز أحمر مثلها مرافقها وعليه دراعة (5) من خز أحمر مثلها
عمامتها وقد أخذ الناس مجالسهم فأخرجت رأسي من ناحية السماط فنظر إلى
مثل المستنطق لي فقلت أتم الله عليك يا أمير المؤمنين نعمة وسوغكها بشكره
وجعل ما قلذك من هذا الأمر رشدا وعاقبة ما تؤول إليه حمدا أخلصه لك
بالتقى وكثره لك بالنماء لا كدر عليك منه ما صفا ولا خالط مسروره الردى فقد
أصبحت للمسلمين ثقة ومستراحا إليك يفرعون في مظالمهم وإليك يلجأون في
أموالهم وما أجد يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك شيئا هو أبلغ عن قضاء
حقك وتوقير مجلسك لما من الله علي من مجالستك والنظر إلى وجهك من أن
أذكرك نعمة الله عندك فأنبئك على شكرها وما أجد في ذلك شيئا هو أبلغ في
حديث من تقدم قبلك من الملوك فإن أذن لي أمير المؤمنين أخبرته وكان متكئا

¹ (الصحيح : الارض المستوية

² (الافيح : الواسع

³ (الوسمي : مطر الربيع

⁴ (الولي : المطر يسقط بعد المطر

⁵ (الدراعة : الجبة مشقوقة المقدم

فاستوى قاعدا فقال هات يا ابن الأهتم فقلت يا أمير المؤمنين إن ملكا من الملوك قبلك خرج في عام مثل عامنا إلى الخورنق والسدير (1) في عام قد بكر وسميه وتتابع وليه وأخذت الأرض فيه زينتها من اختلاف ألوان نبتها من نور ربيع مونق فهو في أحسن منظر وأحسن مختبر وأحسن مستمطر بصعيد كأن ترابه قطع الكافور حتى لو أن بضعة ألقيت فيه لم تترب وكان قد أعطي فتاء السن مع الكثرة والغلبة والنماء فنظر فأبعد النظر فقال لمن حوله هل رأيتم مثل ما أنا فيه هل أعطي أحد مثل ما أعطيت وعنده رجل من بقايا حملة الحجة والمضي على أدب الحق ومنهاجه فقال له أيها الملك إنك قد سألت عن أمر أفتأذن في الجواب قال نعم قال أرأيتك هذا الذي قد أعجبت به أهو شئ لم تزل فيه أم هو شئ صار إليك ميراثا عن غيرك وهو زائل عنك وصائر إلى غيرك كما صار إليك قال فكذلك هو قال أفلا أراك إنما أعجبت بشئ يسير تكون فيه قليلا وتغيب عنه طويلا ويكون غدا لحسابه مر تهنا قال ويحك فأين المهرب وأين المطلب قال أما أن تقيم في ملكك فتعمل فيه بطاعة ربك على ما ساءك وسرك ومضك وأرمضك وإما أن تضع تاجك وتضع أطمارك وتلبس أمساحك (2) وتعبد ربك في هذا الجبل حتى يأتيك أجلك قال فإذا كان السحر فافزع علي بابي فإن اخترت ما أنا فيه كنت وزيرا لا تعصى وإن اخترت خلوات الأرض وقفر البلاد كنت رفيقا لا تخالف فلما كان السحر قرع عليه بابه فإذا هو قد وضع تاجه ووضع أطماره ولبس أمساحه وتهيا للسياحة فلزم والله الجبل حتى أتتهما آجالهما وذلك حيث يقول أخو بني تميم عدي بن زيد العبادي المرائي :

أيها الشامت المعير بالدهر أنت المبرأ الموفور *

أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهل مغرور *

من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام حقير *

أين كسرى كسرى الملوك أبو ساسان أم أين قبله سابور *

وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور *

¹ (الخورنق قصر بالعراق بناه النعمان الأكبر والسدير قصر في الحيرة أحد قصور النعمان

² (مسوحك " والمسوح جمع مسح وهو ثوب من عشر كثوب الرهبان

وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دجلة تجبى إليه والخابور (1)*

شاده مرمرًا وجلله كرسًا فللطير في ذراه وكور *

لم يهبه ريب المنون فباد الملك عنه فبابه مهجور *

وتأمل رب الخورنق إذ أشرف يوما وللهدى تفكير *

سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير *

فارعى قلبه فقال وما غبطة حي إلى الممات يصير *

ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القبور *

ثم أضحوا كأنهم ورق جف فألوت به .. الصبا والدبور

قال فبكى هشام حتى أخضل لحيته وبل عمامته وأمر بنزع أبنيته وبنقلان قرابته وأهله وحشمه وغاشيته من جلسائه ولزوم قصره قال فاجتمعت الموالي والحشم على خالد بن صفوان فقالوا ما أردت إلى أمير المؤمنين نغصت عليه لذته وأفسدت عليه باديته فقال لهم إليكم عني فإني عاهدت الله عز وجل عهدا ألا أخلو بملك إلا ذكرته الله عز وجل . (2)

عن سوار أبي حجر عن عمر بن عبد العزيز وحدثته أن رجلا جاء إلى عمر بن عبد العزيز فقال له اذكر بمقامي هذا مقاما لا شغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق يوم القيامة بلا ثقة من عمل ولا براءة من المذنبين فقال عمر ويحك اردد علي كلامك فردده عليه فجعل يبكي وينتحب ويقول ويحك اردد علي فلما استثقل من البكا قال ما جاء بك قال عاملك على أذربيجان أخذ من

¹ (الخابور : نهران

² (تاريخ دمشق ، 16 / 99

مالي عشرة آلاف فوضعها في بيت المال فكتب له عمر فأخرجت له وردت عليه (1)

لقد كنت لهذه الأمة اهتماما واغتماما وعناء وبلاء فالحمد لله الذي أراحها بموتك وأعطاهم منها ما خزيك

حدث أحمد ابن عبيد في أخبار الحجاج بن يوسف أنه لما حضرته الوفاة وأيقن بالموت قال أسندوني وأذن للناس فدخلوا عليه فذكرت الموت وكربه واللحد ووحشته والدنيا وزوالها والآخرة وأهوالها وكثرة ذنوبه وأنشأ يقول

(إن ذنبي وزن السماوات والأرض ** وظني بخالقي أن يحابي)

(فلئن من بالرضا فهو ظني ** ولئن مر بالكتاب عذابي)

(لم يكن ذاك منه ظلما وهل يظلم رب يرجى لحسن المآب **)

ثم بكى وبكى جلسائه ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان أما بعد فقد كنت أرعى غنمك أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه فجاء الأسد فبطش بالراعي ومزق المرعي كل ممزق وقد نزل بمولاه فجاؤا بالراعي وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبد غفرانا لخطاياهم وتكفيرا لما حمل من ذنوبه ثم كتب في آخر الكتاب

إذا ما لقيت الله عني راضيا ** فإن شفاء النفس فيما هنالك
فحسبي بقاء الله من كل ميت ** وحسبي حياة الله من كل هالك
لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ** ونحن نذوق الموت من بعد ذلك

فإن مت فاذكرني بذكر محبب ** فقد كان جما في رضاك مسالكي

وإلا ففي دبر الصلاة بدعوة ** يلقي بها المسجون في نار مالك

عليك سلام الله حيا وميتا ** ومن بعد ما تحيا عتيقا لمالك

ثم دخل عليه أبو المنذر يعلى بن مخذل المجاشعي وقال كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته فقال يا يعلى غما شديدا وجهدا جهيدا وألما مضيضا ونزعا جريضا وسفرا طويلا وزادا قليلا فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار فقال له يا حجاج إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء أولى الرحمة والرأفة والتحنن والتعطف على عباده وخلقه أشهد أنك قرين فرعون وهامان لسوء سيرتك وترك ملتك وتنكبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين قتلت صالحى الناس فأفنيتهم وأبرت عترة التابعين فتبرتهم وأطعت المخلوق في معصية الخالق وهرقت الدماء وضربت الأبخار وهتكت الأستار وسست سياسة متكبر جبار لا الدين أبقيت ولا الدنيا أدركت أعزرت بني مروان وأذلت نفسك وعمرت دورهم وأخربت دارك فالיום لا ينجونك ولا يغيثونك إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر لقد كنت لهذه الأمة اهتماما واغتماما وعناء وبلاء فالحمد لله الذي أراحها بموتك وأعطاها مناها بخزيك (قال) فكأنما قطع لسانه عنه فلم يحر جوابا وتنفس الصعداء وخنقته العبرة ثم رفع رأسه فنظر إليه وأنشأ يقول

رب إن العباد قد أيأسوني ** ورجائي لك الغداة عظيم (1)

أما علمت أن الله ربي

وقال بشر بن السري: بينما الحجاج جالسا في الحجر إذ دخل رجل من أهل اليمن، فجعل يطوف فوكل به بعض من معه قال: إذا خرج من طوافه فائتني به، فلما فرغ أتاه به فقال: ممن أنت؟ فقال: من أهل اليمن. قال: كيف تركت واليكم؟ قال: لقد تركته أبيض بضاً سميناً طويلاً عريضاً! قال: ويلك، ليس عن هذا أسألك! قال: فعمه؟ قال: عن سيرته وطعمته. قال: فأجور السيرة وأخبث الطعم، وأعدى العداة على الله وأحكامه. قال: فغضب الحجاج وقال: ويلك أوما علمت أنه أخي؟ قال: بلى. قال: إذن أفتك بك. قال: أما علمت أن الله ربي والله لهو أمتع لي منك أكثر منك لأخيك. قال: أجل أرسله يا غلام.

سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا الموضع كان هكذا منذ كان!

ومن عجائب أخبار الخضر عليه السلام، قال: سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رأيته في الدنيا في طول سياحتك وكثرة خلواتك وقطعك القفار والفلوات؟ فقال: أعجب ما رأيته أنني مررت على مدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعضهم: متى بنيت هذه المدينة؟ فقال: سبحان الله ما يذكر آباؤنا وأجدادنا متى بنيت وما زالت كذلك من عهد الطوفان. ثم غبت عنها نحواً من خمسمائة عام وعبرت عليها بعد ذلك فإذا هي خاوية على عروشها، لم أر أحداً أسأله عنها، وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت: أين المدينة التي كانت ههنا؟ فقالوا: سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أن ههنا قط كانت مدينة.

فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثم انتهيت إليها، فإذا موضع تلك المدينة بحر وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية، فقلت لبعض الغواصين: منذ كم كان هذا البحر ههنا؟ فقالوا: سبحان الله ما يذكر آباؤنا وأجدادنا إلا أن هذا البحر منذ بعث الله الطوفان.

ثم غبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثم انتهيت إليها، فإذا ذلك البحر قد غاض ماؤه وإذا مكانه غيضة ملتفة بالقصب والبردى والسباع حولها، وإذا صيادون يصيدون السمك في زوارق صغار فقلت لبعضهم: أين البحر الذي كان ههنا؟ فقال: سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ههنا قط بحر.

فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثم أتيت إلى ذلك الموضع، فإذا هو مدينة على حالته الأولى، والحصون والقصور والأسواق قائمة. فقلت لبعضهم: أين الغيضة التي كانت ههنا ومتى بنيت هذه المدينة؟ فقال: سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها منذ بعث الله الطوفان. فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثم انتهيت إليها، فإذا عاليها سافلها، وهي تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله، ثم

رأيت راعياً فسألته: أين المدينة التي كانت ههنا ومتى حدث هذا الدخان؟ فقال: سبحان الله ما يذكر آبؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا الموضع كان هكذا منذ كان! فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي في الدنيا، فسبحان مبيد العباد ومفني البلاد، ووارث الأرض ومن عليها إلى يوم التناد! :

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكي الأحبة حسرة وتشوقاً
كم قد وقفت بها أسائل مخبراً ... عن أهلها أو ناطقاً أو مشفقاً
فأجابني داعي الهوى في رسمها: ... فارقت من تهوى فعز الملتقى!

ونظر رجل من العباد إلى باب ملك الملوك وقد شيده وأتقنه وزوقه،
فقال: باب جديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد!

وددت أني كنت غسلاً

ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسلاً يلوي بيده ثوباً فقال: وددت
أنى كنت غسلاً لا أعيش إلا بما أكتسبه يوماً فيوماً! فبلغ ذلك أبا حازم
فقال: الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يتمنون ما نحن فيه ولا نتمنى
عنده ما هم فيه.

أراك تفتخر علي بما ليس من نفسك

ومر بعض الملوك ببقرات الحكيم وهو نائم فركضه برجله وقال: قم! فقام
غير مرتاع منه ولا ملتفت إليه، فقال له الملك: أوما تعرفني؟ فقال: لا،
ولكن أرى فيك طبع الدواب فإنها تركض برجلها! فغضب وقال: أتقول
لي مثل هذا وأنت عبي؟ فقال له بقرات: بل أنت عبد عبي. قال: وكيف
ذلك؟ قال: لأن شهواتك قد ملكتك وأنا ملكت الشهوات! قال: فأنا الملك
بن الأملاك السادة، أملك من البلاد كذا ومن الأموال كذا، ومن الرجال

كذا! فقال: أراك تفتخر علي بما ليس من نفسك، وإنما سبيلك أن تفتخر بنفسك، ولكن تعال نخلع ثيابنا ونلبس جميعاً ثوباً مما في هذا النهر ونتكلم فحينئذ يتبين الفاضل من المفضول! فانصرف الملك خجلاً (1).

إنكم لو أبصرتهم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره

ويقول الطرطوشي : أصابني أمراً طيش عقلي وبلبل حزمي وقطع نياط قلبي، فلا يزال مرآة لي حتى يواريني التراب. وذلك أني كنت يوماً بالعراق وأنا أشرب ماء، فقال لي صاحب لي وكان له عقل:

يا فلان لعل هذا الكوز الذي تشرب فيه الماء قد كان إنساناً يوماً من الدهر، فمات فصار تراباً فاتفق للفخاري أن أخذ تراب القبر فصيره خزفاً وشواه بالنار، فانتظم كوزاً كما ترى وصار آنية يمتهن ويستخدم بعدما كان بشراً سوياً يأكل ويشرب وينعم ويلذ ويطرب. فإذا الذي قاله من الجائزات، فإن الإنسان إذا مات عاد تراباً كما كان في النشأة الأولى، ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه فيتخذ منه آنية تمتهن في البيوت أو لبنة تبني في الجدار، أو يطين به سطح البيت أو يفرش في الدار فيوطأ بالأقدام، أو يجعل طيناً على الجدار.

وقد يجوز أن تغرس عند قبره شجرة فيستحيل تراب الإنسان شجرة وورقاً وثمرة، فترعى البهائم أوراقها ويأكل الإنسان ثمرتها، فينبت منها لحمه وينتشر منها عظمه، أو تأكل تلك الثمرات الحشرات والبهائم، فبينما كان يقتات صار قوتاً، وبينما كان يأكل صار مأكولاً ثم يعود في بطن الأرض رجيعاً يقذف به في بيت الرحاضة أو بعراً ينبذ بالعراء، ويجوز إذا حفر قبره أن تسفي الريح ترابه فتفرق أجزائه في بطون الأودية والتلول والوهاد، أليس في هذا ما أذهب العقول وطيش الحلوم، ومنع اللذات وهان عنده مفارقة الأهلين والأموال والحق بقلل الجبال، والأنس بالوحوش حتى يأتي أمر الله على الفريقين؟ أليس

في هذا ما صغر الدنيا وما فيها؟ أليس في هذا ما حقر الملك عند من
عظمه والمال عند من جمعه؟ أليس في هذا ما زهد في اللذات وسلى
عن الشهوات؟ وقال مسعر: كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ومنتظر
غداً وليس من أجله، إنكم لو أبصرتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل
وغروره(1).

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء

ولما بنى المأمون بن ذي النون، وكان من ملوك الأندلس، قصره وأنفق
فيه بيوت أمواله، فجاء على أكمل بنيان في الأرض، وكان من عجائبه
أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة، وبنى في وسطها قبة وسبق الماء
من تحت الأرض حتى علا إلى رأس القبة على تدبير قد أحكمه
المهندسون، وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليتها محيطاً بها متصلاً
بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء سكباً لا يفتر والمأمون
قاعد فيها، فروي عنه أنه بينما هو نائم إذ سمع منشداً ينشد هذه
الآبيات:

أتبني بناء الخالدين وإنما ... مقامك فيها لو عقلت قليل

لقد كان في ظل الأراك كفاية ... لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فلم يلبث بعدها إلا يسيراً حتى قضى نحبه.

ووجد مكتوباً على قصر قد باد أهله وأقفرت منازلها:

هذي منازل أقوام عهدتهم ... في خفض عيش نفيس ما له خطر

صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا ... إلى القبور فلا عين ولا أثر

وللشريف الرضي:

¹ (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص 18

ولقد مررت على ديارهم ... وظلولها بيد البلى نهب
فوقفت حتى عجز من تعب ... نضوي وضج بعدني الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عنها الطلول تلفت القلب
ولو قيل للدنيا صفي نفسك ما تعدت هذا البيت وهو:
ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض ... على الماء خائنه فروج الأصابع(1).

ويل لعمر وويل لأمه إن لم يغفر له!

قال ابن عمر: ولما احتضر عمر غشي عليه فأخذت رأسه فوضعت في حجري فقال: ضع رأسي بالأرض لعل الله يرحمني. فمسح خديه من التراب وقال: ويل لعمر وويل لأمه إن لم يغفر له! فقلت: وهل حجري والأرض إلا سواء يا أبتاه؟ فقال: ضع رأسي بالأرض لا أم لك كما أمرك! فإذا قضيت فأسرعوا بي إلى حفرتي فإنما هو خير تقدمون إليه أو شر تضعونه عن رقابكم! ثم بكى فقليل له: وما يبكيك؟ قال: خبر السماء لا أدري إلى جنة ينطلق بي أو إلى نار.

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال: اللهم إنك أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت وأنعمت علي فأفصلت، فإن عفوت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت، ألا إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، ثم قضى نحبه.

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له!

¹ (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص 19

ودخل على المأمون في مرضه الذي مات فيه، فإذا هو قد أمر أن يفرش له جل الدابة ويبسط عليه الرماد، وهو راقد عليه يتضرع ويقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من يزول ملكه.

وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال: طوبى لك يا طائر تطير وتقع على الشجر وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب! يا ليتني كنت مثلك والله لوددت أني شجرة إلى جنب الطريق فمر علي بغير، فأخذني فلاكني ثم ازدرني ثم أخرجني بعراً ولم أك بشراً!

وقال عاصم بن عبيد الله: أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبنه من الأرض فقال: يا ليتني مثل هذه التبنه! يا ليتني لم تلدني أمي! يا ليتني كنت نسياً منسياً!

وقال ابن مسعود: وددت أني طائر في منكبي ريش! وسمع رجلاً يقول: يا ليتني كنت من أصحاب اليمن، فقال ابن مسعود: يا ليتني إذا مت لم أبعث.

وقال عمران بن الحصين: وددت أني رماد تسفيني الرياح في يوم عاصف.

وقال أبو الدرداء: يا ليتني كنت شجرة تعضد ويؤكل ثمري ولم أك بشراً.

وروي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة فإذا هو بقبر قال: قبر من هذا؟ قالوا: قبر خباب بن الأرت. فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً أسلم راعباً وهاجر طائعاً وعاش مجاهداً وابتلي في جسمه آخراً، ألا ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً. ثم مضى فإذا قبور فجاء حتى وقف عليها فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن تبع

وبكم عما قليل لاحقون. اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم. طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب، وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى. ثم قال: يا أهل القبور، أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، فهذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى(1).

ها هنا يا أبا بحر

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وعليه شملة ومدرعة صوف. فلما مثل بين يديه اقتحمته عينه فأقبل عليه فقال: مه! فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين، أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير، مع تتابع من المحول واتصال من الدخول، فالكثير منها قد أطرق والمقل منها قد أملق. وبلغ به المخلق؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير ويجبر الكسير ويسهل العسير، ويصفح عن الدخول ويداوي المحول، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ويزيل اللأواء. ألا وإن السيد من يعم ولا يخص، ويدعو الجفلى ولا يدعو النقرى، إن أحسن إليه شكر وإن أسىء إليه غفر، ثم يكون من وراء الرعية عماداً يدفع عنهم الملهمات ويكشف عنهم المضلات. فقال معاوية: ها هنا يا أبا بحر، ثم قرأ: " ولتعرّفنهم في لحن القول " محمد:30. (2)

أجحفنا بيت مال المسلمين!

وقال سفيان الثوري: لما حج المهدي قال: لا بد لي من سفيان. فوضعوا لي المرصد حول البيت فأخذوني بالليل، فلما مثلت بين يديه أدناني ثم قال: لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمورنا، فما أمرتنا من شيء صرنا إليه وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه؟ فقلت له: كم أنفقت في سفرك هذا؟ قال: لا أدري لي أمناء ووكلاء. قلت: فما عذرك غداً إذا

¹ (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص 19

² (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص 21

وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك؟ لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حج قال لغلامه: كم أنفقنا في سفرتنا هذه؟ فقال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً. فقال: ويحك، أجحفنا بيت مال المسلمين!

واعلم أن للأعمال جزاء فاحذر العواقب

وقال الزهري: ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين اسمع مني أربع كلمات، فيهن صلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك. قال: ما هن؟ قال: لا تعد أحداً عدة وأنت لا تريد إنجازها، ولا يغرنك مرتقى سهلاً إذا كان المنحدر وعراً، واعلم أن للأعمال جزاء فاحذر العواقب، وللدهر ثورات فكن على حذر.

تموت وحدك وتحاسب وحدك

ولما دخل ابن السماك على هارون قال له: عظمي. فقال: يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك، فلا ترض من نفسك إلا ما رضي به عنك، فإنك ابن عم رسول الله ﷺ وأولى الناس بذلك. يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبتة في مهلة من أجله كان خليقاً أن يعتق نفسه. يا أمير المؤمنين من أذاقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها. يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم على جنة عرضها السماوات والأرض، وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب. يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك، وإنك لا تقدم إلا على حالة نادم مشغول، ولا تخلف إلا مفتوناً مغروراً، وإنك وإيانا لفي دار سفر وجيران ظعن.

فما لك لا تأتينا؟

ولما حج سليمان بن عبد الملك استحضر أبا حازم فقال له: تكلم يا أبا حازم. فقال: بم أتكلم؟ فقال: في الخروج من هذا الأمر. قال: يسيران أنت فعلته. قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ولا تضعها إلا في أهلها. قال: ومن يقوى على ذاك؟ قال: من قلده الله من الأمر ما

قلدك. قال: عظمي يا أبا حازم. قال: يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك. ثم قال: يا أمير المؤمنين نزه ربك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك. يا أمير المؤمنين إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر، فاختر لنفسك أيهما شئت.

قال: فما لك لا تأتينا؟ قال: وما أصنع باتيانك؟ إن أدنيتني فتننتني، وإن أقصيتني أحزننتني، وليس عندي ما أخافك عليه ولا عندك ما أرجوك له. قال: فارفع إلي حوائجك. قال: قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها قبلت، وما منعني منها رضيت، يقول الله عز وجل: " نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا " الزخرف: 32. فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله، أو يزيد في قليل ما قسم الله؟ قال: فبكى سليمان بكاء شديداً فقال رجل من جلسائه: أسأت إلى أمير المؤمنين! فقال له أبو حازم: اسكت! فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. ثم خرج من عنده فلما وصل إلى منزله بعث إليه بمال فردده وقال للرسول: قل له يا أمير المؤمنين، والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي؟

أجب أمير المؤمنين!

وقال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد، فبينما أنا نائم ليلة إذ سمعت قرع الباب فقلت: من هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين! فخرجت مسرعاً فإذا هو أمير المؤمنين فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجني إلا عالم، انظر لي رجلاً أسأله. فقلت له: ههنا سفيان بن عيينة. قال امض بنا إليه. فأتيناه فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: خذ لما جئنا له. فحادثه ساعة ثم قال: عليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا عباس اقض دينه، ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله.

ههنا عبد الرزاق بن همام. فقال امض بنا إليه نسأله. فأتيناه فقرعنا عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددّها، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ فقلت: سبحان الله أو ما عليك طاعته؟ أوليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه؟ فنزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي فقال: أواه من كف ما أليتها إن نجت غداً من عذاب الله! فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي. فقال: خذ لما جئنا له يرحمك الله. فقال: وفيم جئت؟ حطبت على نفسك وجميع من معك حطبوا عليك، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يتحملوا عنك شقصاً من ذنب ما فعلوا، ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة، دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي؛ فعد الخلافة بلاء وعدتها أنت وأصحابك نعمة. فقال هل سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها الموت. وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك. وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واکره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت. وإني لأقول لك هذا وأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمر بك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين! فقال: يا ابن الربيع قتلت أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟ ثم أفاق فقال: زدني. فقال: يا أمير المؤمنين! بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكاً إليه فكتب إليه عمر: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار

وخلود الأبد، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً أو يقظاناً، وإياك أن تزل قدمك عن هذه السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك. فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم إليه، فقال عمر: ما أقدمك؟ فقال له: خلعت قلبي بكتابك، لا وليت لك ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى! فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال: زدني. فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاءه فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة. فقال له ﷺ: يا عباس يا عم النبي، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل. فبكى هارون بكاء شديداً.

ثم قال: زدني يرحمك الله! فقال: يا حسن الوجه! أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيك، فإن النبي ﷺ يقول: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة. فبكى هارون بكاء شديداً، ثم قال: عليك دين؟ قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سأئني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم يلهمني حجتى! قال: إنما أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " " ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون " " إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " الذاريات: 56 - 58. فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك. فقال: سبحان الله! أنا أدلك على سبيل النجاة، وتكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده، فقال لي هارون: إذا دلتني على رجل فدلتني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين اليوم! وروي أن امرأة من نساءه دخلت عليه فقالت: يا هذا، أما ترى ما نحن فيه من ضيق الحال؟ فلو قبلت هذا المال لفرجت به عنا. فقال: إنما مثلي ومثلكم كمثلكم قوم كان لهم بغير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه، موتوا يا أهلي جوعاً ولا تذبحوا فضيلاً. فلما سمع الرشيد ذلك قال: أدخل فعسى أن يقبل المال. قال: فدخلنا عليه، فلما علم بنا الفضيل خرج وجلس على

التراب على السطح، فجلس هارون إلى جانبه فجعل يكلمه وهو لا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد أذيت الشيخ هذه الليلة، فانصرف يرحمك الله! فانصرفنا(1).

، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك!

ووعظ شبيب بن شيبعة المنصور فقال: يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل فوقك أحداً، فلا تجعل فوقك شركاً شكراً. ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقرأ: " والفجر وليال عشر " الفجر: 21 وحتى بلغ " إن ربك لبالمرصاد " الفجر: 14، لمن فعل مثل فعالهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين فإن بأبوابك ناراً تأجج، لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله، وأنت مسؤول عما اجتروا وليسوا مسؤولين عما اجتروا، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك! أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم إلا العدل لتقرب به إليك من لا يريده. فقال له سليمان بن مجالد: اسكت! فقد غممت أمير المؤمنين. فقال عمرو: ويحك يا ابن مجالد! أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه؟ اتق الله يا أمير المؤمنين فإن هؤلاء قد اتخذوك سلماً إلى شهواتهم، فأنت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب، وإن هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيئاً! وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً؟ فكيف من سفك دماء المسلمين وشق أبشارهم ونهب أموالهم؟ إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً عن غير عمد، فقال له جبريل عليه السلام: إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قلوب رعيته! يا أمير المؤمنين لو أن ثوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتقصه؟ ولو أن ذنوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتجرعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يسلك فيها ويرد فضلها على عاتقه؟ (2).

¹ (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص 22-23

² (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص 23

ودخل بعض العقلاء على سلطان فقال له: إن أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه، وأولاهم بالإنصاف من بسطت يداه بالقدرة، فاستدم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق.

أكل المسلمين له مثل هذا المال؟

وروي أن أعرابياً قام بين يدي هشام بن عبد الملك فقال له: أيها الأمير أتت على الناس سنون ثلاثة: أما الأولى فأكلت اللحم، وأما الثانية فأذابت الشحم، وأما الثالثة فهأضت العظم، وعندك فضول أموال فإن كانت لله فأقسمها بين عباد الله، وإن كانت لهم فلم تحظر عليهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا إن الله يجزي المتصدقين. فأمر هشام بـمال فقسم بين الناس وأمر للأعرابي بـمال، فقال: أكل المسلمين له مثل هذا المال؟ قال: لا يقوم بذلك بيت المال. قال: لا حاجة لي فيما يبعث لأئمة الناس على أمير المؤمنين(1) ..

كيف حال رجل له خصم ألد؟

ولما دخل زياد على عمر بن عبد العزيز قال: يا زياد ألا ترى إلى ما ابتليت به من أمر أمة محمد ﷺ؟ فقال زياد: يا أمير المؤمنين والله لو أن كل شعرة منك قطعت ما بلغت كنه ما أنت فيه، فاعمل لنفسك في الخروج مما أنت فيه يا أمير المؤمنين كيف حال رجل له خصم ألد؟ قال: سيئ الحالة. قال: فإن كان له خصمان ألدان؟ قال: أسوأ الحالة. قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: لا يهنيه عيش. قال: فو الله ما من أحد من أمة محمد إلا وهو خصمك! فبكي حتى تمنيت أن لا أكون قلت له ذلك(2) ..

¹ (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص24

² (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص24

يا أمير المؤمنين افتح الأبواب وسهل الحجاب وانصر المظلوم

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ربحوا فيها لآخرتهم وخرجوا بما يضرهم، فكم من قوم غرهم مثل الذي أصبحت فيه حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا مرملين، لم يأخذوا من الدنيا للآخرة، فأخذ مالهم من لا يحمدهم وصاروا إلى من لا يعذرهم؟ فانظر إلى الذي تحب أن يكون معك فقدمه بين يديك حتى تخرج إليه، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت فابتغ به البذل حيث يجوز البذل، ولا تذهب إلى سلعة قد بارت على غيرك ترجو رواجها عندك، يا أمير المؤمنين افتح الأبواب وسهل الحجاب وانصر المظلوم (1).

كتاب الله قبل كتاب الخليفة

ودخل أبو النظر سالم مولى عمر بن عبيد الله على عامل للخليفة فقال له: يا أبا النظر إنه تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها لا نجد بداً من إنفاذها، فماذا ترى؟ قال أبو النظر: لقد أتاك كتاب الله قبل كتاب الخليفة، فأيهما اتبعت كنت من أهله.

لأعدلن ما بقيت!

وقال ابن عباس: إن ملكاً من الملوك خرج يسير في مملكته مستخفياً بمكانه، فنزل على رجل له بقرة فراحت البقرة فحلبت له قدر حلاب ثلاثين بقرة، فتعجب الملك لذلك وحدثته نفسه بأخذها، فلما راحت عليه من الغد حلبت على النصف مما حلبت بالأمس، فقال له الملك: ما بال حلابها نقص، أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ قال: لا، ولكني أظن أن ملكنا هم بأخذها فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة. فعاهد الملك الله سبحانه وتعالى في نفسه أن لا يأخذها، فراحت من الغد فحلبت حلاب ثلاثين بقرة، فتاب الملك وعاهد ربه: لأعدلن ما بقيت! (2).

¹ (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص24

² (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص33

فعصرت ملء القدر

ومن المشهور في أرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو، وأن قسبة منها تعصر قدحاً، فعزم على أخذها منها، ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت: نعم! ثم إنها عصرت قسبة فلم تبلغ نصف قدح، فقال لها: أين الذي كان يقال؟ فقالت: هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت بركتها. فتاب السلطان وأخلص نيته لله أن لا يأخذها أبداً، ثم أمرها فعصرت ملء القدر (1).

فأنا وأنت وسائر السلاطين

وكان بعض سلاطين المغرب يسير يوماً وبين يديه الوزراء إذ نظر إلى جماعة من التجار فقال لوزيرهم: أترى أن أريك ثلاث طوائف: طائفة لهم الدنيا والآخرة، وطائفة لا دنيا ولا آخرة، وطائفة دنيا بلا آخرة؟ فقال: أما الذين لهم الدنيا والآخرة فهو لاء التجار، يكسبون أقواتهم ويصلون صلاتهم ولا يؤذون أحداً، وأما الذين لا دنيا ولا آخرة فهو لاء الشرط والخدمة الذين بين أيدينا، وأما الذين لهم الدنيا بلا آخرة فأنا وأنت وسائر السلاطين (2).

فكيف بمن أسرف في مال المسلمين؟

ولما حج هارون الرشيد لقيه عبيد الله العمري في طوافه فقال له: يا هارون! قال: لبيك يا عم! قال: كم ترى ههنا من الخلق؟ قال: لا يحصيهم إلا الله. قال: اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه، وأنت وحدك تسأل عن جميعهم، فانظر كيف تكون. فبكى هارون وجلس، فجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً للدموع، ثم قال له: والله إن الرجل ليسرف في مال نفسه فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن أسرف في مال المسلمين؟ ويقال: إن هارون كان يقول: والله إنني لأحب أن أحج في كل سنة وما يمنعني إلا رجل من ولد عمر يسمعي ما أكره.

¹ (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص33

² (الرطوشي ، سراج الملوك ، ص34

اليوم أنتقم لها منك!

وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب القديمة يقول الله تعالى: من أحمق من السلطان ومن أجهل ممن عصاني ومن أغر ممن اغتر بي؟ يا راعي السوء دفعت لك غنماً سماماً صحاحاً، فأكلت اللحم وشربت اللبن وائتدمت بالسمن ولبست الصوف، وتركتها عظماً تققع ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير، اليوم أنتقم لها منك! (1).

وما تصنع بدعائي؟

ودخل محمد بن واسع رحمه الله على بلال بن أبي بردة في يوم حار وبلال في حبشة، وعنده الثلج، فقال له: يا أبا عبد الله، كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكر النار يلهى عنه. قال: ما تقول في القدر؟ قال: جيرانك أهل القبور، ففكر فيهم، فإن فيهم شغلاً عن القدر. قال: ادع الله لي. قال: وما تصنع بدعائي؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون: إنك ظلمتهم، يرفع دعاؤهم قبل دعائي، لا تظلم، ولا تحتاج لدعائي.

حتى ردت الضيعة على صاحبها

وبسنده إلى قال أبو عمرو الشغافي: صلينا مع المهدي المغربي، ومعنا العوفي - يعني الحسين بن الحسن بن عطية - وكان على مظالم المهدي، فلما انصرف المهدي من المغرب، جاء العوفي، حتى قعد في قبلته، فقام يتنفل، ف جذب ثوبه، فقال: ما شأنك؟ فقال: شيء أولى بك من النافلة. قال: وما ذاك؟ قال: سلام مولاك - قال: وهو قائم على رأسه - أوطأ قوماً الخيل، وغصبهم على ضيعتهم، وقد صح ذلك عندي، تأمر بردها، وتبعث من يخرجهم. فقال المهدي: يصح إن شاء الله. فقال العوفي: لا، إلا الساعة! فقال المهدي: فلان القائد، اذهب الساعة إلى موضع كذا وكذا، فأخرج من فيها، وسلم الضيعة إلى فلان. قال: فما أصبحوا، حتى ردت الضيعة على صاحبها.

هذا الذي قُلتُم إنه ما يعقل؟ !

وروى أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق قال: دخل محمد بن طلحة بن مصرف على المهدي في حاجة. قال: فجلس مع الناس أمام القصر والمهدي في بهو له قاعد مع أصحابه. قال: فجاء المطر. قال: فقام محمد بن طلحة على رجليه، فقال: يا أمير المؤمنين، أمن العدل هذا، أن تكون في الكن، ونحن في المطر؟ ! قال: فقال المهدي: من هذا؟ فقالوا: هذا محمد بن طلحة بن مصرف رجل فيه غفلة. قال: فقال المهدي: ها هنا يا عم، ها هنا يا عم اقعد. فجعل يدنو. قال: والمهدي يقول له: ها هنا يا عم. قال: حتى جاء محمد بن طلحة فوقف بجانب المهدي قال: فقال له: ها هنا يا عم. فقال له محمد بن طلحة: إنما أردت أن أستكن من المطر. فقال المهدي: أدركت، فحاجتك؟ قال: فسأل حاجته، فقال له المهدي: لم لا تقول لأخيك سفيان الثوري؟ قال: خشيت أن تكون له الحجة علي. قال: فقال له المهدي: كيف تكون له الحجة عليك؟ قال: يقول: قد عملوا بما علموا، فجاءهم ما لا يعلمون، فاحتاجوا إلي. قال: فقال له: فقل لنا أنت. قال: نعم، تقوم المحتسبات ببيتك، فتزد على كل ذي حق حقه. قال: وغير هذا؟ قال: نعم، تأمر بالصلاة جامعة، واصعد المنبر، فاسأل الناس أن يسوغوك ما في يديك، ثم تستقبل فيهم العدل الآن. فقال: مقبول منك يا عم. قال: فانصرف. فقال المهدي لجلسائه: هذا الذي قُلتُم إنه ما يعقل؟ !

حل بك من سخط الله - عز وجل - بقدر ما تجاهلته من العلم

قال صالح المري: دخلت على المهدي ها هنا بالرصافة، فلما مثلت بين يديه، قلت: يا أمير المؤمنين، احمل لله ما أكلمك به اليوم، فإن أولى الناس بالله - عز وجل - أحلمهم لغلظة النصيحة فيه، وجدير بمن له قرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرث أخلاقه، ويأتم بهديه، وقد ورثك الله من فهم العلم وإنارة الحجة ميراثاً قطع به عذرك، فمهما ادعيت من حجة، أو ركبت من شبهة لم يصح له برهان من الله - عز وجل - ، حل بك من سخط الله - عز وجل - بقدر ما تجاهلته من العلم، أو أقدمت عليه من شبهة الباطل. واعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالفه في أمته يبتزها أحكامها. ومن كان محمد خصمه، كان الله - عز وجل - خصمه. فأعد لمخاصمة الله عز وجل ولمخاصمة رسوله صلى الله عليه وسلم حججاً تضمن لك النجاة، أو استسلم للهلكة. واعلم أن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى يدعيه إلى الله - عز وجل - قربة، وأن أثبت الناس قدماً يوم

القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ. فمثلك لا يكابر بتجريد المعصية، ولكن تمثل له الإساءة إحساناً، ويشهد له عليها خونة العلماء، وبهذه الحباله تصيدت الدنيا نظراءك. فأحسن الحيل، فقد أحسنت إليك الأداء. قال: فبكى المهدي (1).

أفما تكون نغمته إلا مقدار هذه المدة؟

قال عبد الله بن شبرمة القاضي: دخلت على أبي مسلم وفي حجره مصحف، وبين يديه سيف، فقال لي: أنت ابن شبرمة؟ قلت: نعم أصلحك الله؛ فقال: ما هو إلا الملك أو الترهب، قلت: ما هو إلا الهلاك أو الرحمة.

ودخل عليه وهو يريد المسير إلى قتال عبد الله بن علي عند خروجه على المنصور، فقال له: يا ابن شبرمة، ما يقول الناس في مسيرنا هذا؟ قال: يقولون: الأمر عظيم يشير إلى عم الخليفة مع نجدته وشهامته، ومعه جلة أهل الشام، وكثير من أهل خراسان. قال: أفرخ روعك يا ابن شبرمة! والله لو سرت إليهم وفي أيدي أصحابي القصب لهزمتهم، وما أقول هذا بعلم غيب عندي أدعيه لنفسي، ولكن رأيت الله عذب أهل العراق بسيف أهل الشام نيفاً وثمانين سنة، ثم أراد أن ينتقم بهم منهم، أفما تكون نغمته إلا مقدار هذه المدة؟

الله شهيد على ذلك

دخل صالح بن عبد الجليل - وكان ناسكاً مفوهاً - على المهدي، وسأله أن يأذن له في الكلام. فقال: تكلم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما لما سهل لنا ما توعد على غيرنا من الوصول إليك، قمنا مقام المؤدي عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي لانقطاع عذر الكتمان في التقية، لا سيما حين اتسمت بميسم التواضع، ووعدت الله وحملة كتابه إثثار الحق على ما سواه. فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمهيص لئتم مؤدينا على موعد الأداء عنهم؛ وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقولون: من حجب الله عنه العلم، عذبه على الجهل، وأشد منه عذاباً من أقبل إليه العلم فأدبر عنه، ومن أهدى الله إليه العلم فلم يعمل به، فقد رغب عن هدى الله؛ فاقبل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل، لا قبول سمعة ورياء، فإنه لا يخلfk منا إعلام بما تجهل، أو مواطأة على فضل، فقد وطن الله جل اسمه نبيه على نزولها، تعزية عما فات، وتحصيناً من التماذي، ودلالة على المخرج فقال: وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله. فأطلع الله على قلبك بما يلوح به الحق الذي ينافي الهوى، فإنك إن لم تفعل، لم تر لله أثرة عليك.

فبكى المهدي حتى هم من كان على رأسه بضرب صالح، وحتى ظنوا أنه يموت. فقال: يا صالح، لو وجدت رجالاً يعملون بما أمرهم في ريعتي، لظننت بأنني ألقى الله تعالى وأمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أقل ذنوبي وأهون حسابي، ولكن دلني على وجه النجاة، فإن لم أعمل به، كنت أنا الجاني على نفسي. قال له صالح: أنت يا أمير المؤمنين أعلم بموضع النجاة.

قال: ما كنت أنت بعظتي أولى مني بعظتك لي، وما هو إلا أن أركب سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولا يصلح عليها أحد من أهل هذا العصر؛ وذلك أن الناس في الزمن الماضي كان يرضى أحدهم بالطمر البالي، وتقنعه الكسرة اليابسة والماء القراح، وهم اليوم في تضاعيف الخز والوشي، ومائدة أحدهم مثل الغني ذي العيال في زمن عمر، فإلى من أكلهم؟ إلى ولد أبي طالب، فو الله ما أرى للمسلمين راحة فيهم ولا فرجاً عندهم، ولو أنني حملت الناس على سيرة العمرين في هذا العصر لكنت أول مقتول، وذلك أن الفطام عن هذا الحطام شديد لا يصبر عليه إلا المبرز السابق.

يا صالح، لقد بلغني أن لسعيد بن سلم ألف سراويل، ولحازم ألف جبة، ولعمارة بن حمزة ألف دواج، وهذا أقل ملكهم؛ فما ظنك بي وهم عددي وسهام كنانتي، ومن أشبههم كمعن بن زائدة وعبد الله بن مالك، فلو حملتهم على التقشف وأخذت أموالهم هل كانت نفس أبغض إليهم من نفسي، أو حياة أثقل عليهم من حياتي؟ فأطرق صالح مفكراً، ثم رفع رأسه وقال: يا أمير المؤمنين، إنه ليقع

في خلدي أنك قبلت قلبي قبول تحقيق لا قبول سمعة ورياء. فقال المهدي: الله شهيد على ذلك. فقام صالح فدنا من المهدي، فقبل رأسه وقال: أعانك الله يا أمير المؤمنين على صالح نيتك، وأعطاك أفضل ما تأمله في رعيته، ووهب لك أعواناً بررة صالحين يعملون بما يجب عليهم فيك، ثم خرج.

دعوتُ المني ودعوتُ الغنى

لما أبعد أبو الفتح بن العميد أبا القاسم بن عباد الصاحب عن خدمة مؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، وتولى الأمور، تداخله في بعض الليالي عجب وسرور بما هو فيه، فاستدعى ندماءه وهياً له مجلس عظيم بآلات الذهب والفضة وفاخر البلور والمخروط الصيني والطيب والفواكه، وحضر المغنون والملهون فشرب آخر يومه وأكثر ليلته، وعمل شعراً أنشده ندماءه وألقاه على المغنين حتى غنوا فيه، وهو: من المتقارب:

دعوتُ المني ودعوتُ الغنى ... فلما أجابا دَعَوْتُ القَدَحْ

وقلتُ لأَيَّامِ شَرَحِ الشباب ... إليّ فهذا أوانُ المَرَحِ

إذا المَرءُ أدركَ آماله ... فليس له بَعْدَها مُقْتَرَحْ

فغني بالشعر واستطابه، وشرب عليه إلى أن سكر، ثم قال لغلمانه: غطوا المجلس ولا تنقضوا شيئاً منه لأصطحب عليه في غد. وقال لندمائه: باكروني ولا تتأخروا، وقام إلى بيت منامه. ووافق ذلك استدعاء مؤيد الدولة إياه في السحر، فلم يشك أنه لمهم من خدمته، فبادر، فلما دخل دار الأمير قبض عليه، وأنفذ إلى داره من أخذ جميع ما وجد له، ولم يزل في الاعتقال إلى أن مات تحت العذاب. (1)

مالى إذا نظرت إليك امتلأت رعباً

قال مقاتل بن صالح الخراساني : دخلت على حماد بن سلمة فإذا ليس فى البيت إلا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ منها فبينما أنا عنده جالس إذا دق داق الباب فقال يا صبية اخرجى فانظرى من هذا فقالت رسول محمد بن سليمان قال قولى له يدخل وحده فدخل فناوله كتابا فإذا فيه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من محمد بن سليمان إلى حماد ابن سلمة أما بعد فصبحك الله بما صبح به أوليائه وأهل طاعته وقعت مسأله فأتنا نسألك عنها والسلام

قال يا صبية هلمي الدواة ثم قال لى اقلب الكتاب واكتب أما بعد وأنت فصبحك الله بما صبح به أوليائه وأهل طاعته إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدا فإن كانت وقعت مسألة فأتنا واسألنا عما بدا لك وإن أتيتنى فلا تأتني إلا وحدك ولا تأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح نفسي والسلام

فبينما أنا عنده دق داق الباب فقال يا صبية اخرجى فانظرى من هذا فقالت محمد بن سليمان قال قولى له ليدخل وحده فدخل فسلم ثم جلس بين يديه فقال مالى إذا نظرت إليك امتلأت رعباً فقال حماد سمعت ثابتا البناني يقول سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله عز و جل هابه كل شيء وإذا أراد أن يكتنز به الكنوز هاب من كل شيء فقال أربعون ألف درهم تأخذها تستعين بها على ماأنت عليه قال قال اردها على من ظلمته بها قال والله ما أعطيتك إلا ماورثته قال لا حاجة لى فيها ازوها عنى زوى الله عنك أوزارك قال فتقسمها قال فلعلنى إن عدلت فى قسمتها أن يقول بعض من لم يرزق منها لم يعدل ازوها عنى زوالله عنك أوزارك .

قال موسى بن إسماعيل لو قلت لكم إنى ما رأيت حماد بن سلمه ضاحكا قط صدقتكم كان مشغولا بنفسه إما أن يحدث وإما أن يقرأ وإما أن يسبح وإما أن يصلى كان قد قسم النهار على هذه الأعمال(1) .

عن الفضل بن الربيع قال: حججت مع هارون الرشيد أمير المؤمنين فمررنا بالكوفة في طاق المحامل، فإذا بهلول المجنون قاعد يهذي، فقلت له: اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين، فسكت، فلما جاء الهودج قال: يا أمير المؤمنين، حدثني أيمن بن نائل، حدثنا قدامة بن عبد الله العامري قال: رأيت النبي ﷺ بمنى على جمل وتحتة رحل رث، فلم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه بهلول المجنون. قال: قد عرفته وبلغني كلامه، قل يا بهلول. فقال يا أمير المؤمنين، هب أنك ملكت العباد طراً ودان لك العباد فكان ماذا؟ أليس مصيرك إلى قبر يحثو ترابك هذا وهذا، فقال: أجدت يا بهلول أفغيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. من رزقه الله جمالاً ومالاً فعف في جماله وواسى في ماله كتب في ديوان الأبرار، قال: فظن أنه يريد شيئاً، فقال: فإننا قد أمرنا أن نقضي دينك، قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا تقض ديناً بدين، اردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك، فإن نفسك هذه نفس واحدة، وإن هلك والله ما انجبرت عليها، قال: فإننا قد أمرنا أن نجري عليك، قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يعطيك وينساني. أجرى علي الذي أجرى عليك لا حاجة لي في إجرائك، ومضى (1).

وبم أعظك هذه قصورهم وهذه قبورهم

قال علي بن ربيعة الكندي: خرج الرشيد إلى الحج فلما كان بظاهر الكوفة إذ بصر بهلولاً المجنون على قصبة وخلفه الصبيان وهو يعدو فقال من هذا، قالوا بهلول المجنون، قال كنت أشتي أن أراه فأدعوه من غير ترويع، فقالوا له أجب أمير المؤمنين، فعدا على قصبته، فقال الرشيد السلام عليك يا بهلول، فقال وعليك السلام يا أمير المؤمنين، قال كنت إليك بالأشواق، قال لكني لم أشتق إليك، قال عظمي يا بهلول، قال وبم أعظك هذه قصورهم وهذه قبورهم، قال زدني فقد أحسنت، قال يا أمير المؤمنين من رزقه الله مالاً وجمالاً فعف في جماله وواسى في ماله كتب في ديوان الأبرار فظن الرشيد أنه يريد شيئاً فقال قد أمرنا لك أن تقضي دينك، فقال لا يا أمير المؤمنين لا يقضى الدين

بدين أردد الحق على أهله واقض دين نفسك من نفسك، قال فإننا قد أمرنا أن يجري عليك، فقال يا أمير المؤمنين أترى الله يعطيك وينساني؟ ثم ولى هارباً.

وروي بإسناد آخر أنه قال للرشيد يا أمير المؤمنين فكيف لو أقامك الله بين يديه فسألك عن النقيير والفتيل والقطمير، قال فخنقته العبرة فقال الحاجب حسبك يا بهلول قد أوجعت أمير المؤمنين، فقال الرشيد دعه، فقال بهلول إنما أفسده أنت وأضرابك، فقال الرشيد أريد أن أصلك بصلة فقال بهلول ردها على من أخذت منه، فقال الرشيد فحاجة، قال ان لا تراني ولا أراك، ثم قال يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة ابن عبد الله الكلابي قال رأيت رسول الله ﷺ يرمي جمرة العقبة على ناقه له صهباء لا ضرب ولا طرد، ثم ولى بقصبته وأنشأ يقول:

فعدك قد ملأت الأرض طراً ... ودان لك العباد فكان ماذا

ألست تموت في قبر ويحوي ... تراثك بعد هذا ثم هذا

والله ما كذب

قال بعض الكوفيين: حج الرشيد فذكر بهلولاً حين دخل الكوفة فأمر بإحضاره وقال ألبسوه سواداً وضعوا على رأسه قلنسوة طويلة وأوقفوه في مكان كذا ففعلوا به ذلك وقالوا إذا جاء أمير المؤمنين فادع له، فلما حاذاه الرشيد رفع رأسه إليه وقال يا أمير المؤمنين اسأل الله أن يرزقك ويوسع عليك من فضله، فضحك الرشيد وقال آمين، فلما جازه الرشيد دفعه صاحب الكوفة في قفاه وقال أهكذا تدعو لأمير المؤمنين يا مجنون، قال بهلول اسكت ويلك يا مجنون فما في الدنيا أحب إلى أمير المؤمنين من الدراهم، فبلغ ذلك الرشيد فضحك وقال والله ما كذب(1) ..

من الخائف الذليل إلى المخالف لكلام ربه تعالى

قال نعيم الخشاب كتب بهلول إلى الواثق: أما بعد فإن المرء قد لعب بدينك والأهواء قد أحاطت بك ومقالات أهل البدع قد سلخت عنك عقلك وابن أبي داود المشنوم قد بدل عليك كلام ربك، اقرأ فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، إلى قوله فاعبدني أكون هذا الكلام مخلوقاً، فرماك الله بحجارة من سجيل مسومة عند ربك وما هو من الظالمين ببعيد ثم كتب عنوانه من الخائف الذليل إلى المخالف لكلام ربه تعالى.

من الصادق المتواضع إلى الكاذب المتجبر

قال سالم بن عطية كتب بهلول إلى ابن أبي داود: أما بعد فإنك قد ميزت كلام الله من الله وزعمت أنه مخلوق فإن يك ما ذكرت باطلاً فرماك الله بقارعة من عنده، ويحك أكنت معه حين كلم موسى، فإن كنت راداً عليه فاقراً: عليها غيرة ترهقها فترة أولئك هم الكفرة الفجرة ثم كتب عنوانه من الصادق المتواضع إلى الكاذب المتجبر.

يسبحون له في الغدو والآصال

قال عبد الرحمن الهاشمي لما ولي الخلعي على شرطة بغداد وكان يرى برأي ابن أبي داود كتب إليه بهلول: أما بعد فإن السماء بأكنافها ونور كواكبها وضياء شمسها وقمرها وصفوف ملائكتها والعرش والملائكة المقربين والحجب المزدلفة بقدرة خالقها والنار وزبانياتها والجنة وسندسها والأرضين وجبالها والجبال وكهوفها والحيتان في بحارها والوحش في قفارها والجن في أقطارها والطير في أوكارها والسباع في وجارها والأشجار وثمارها يسبحون له في الغدو والآصال(1).

هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه

بينما المنصور في الأطراف بالبيت ليلاً إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فخرج المنصور، فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعو، فصلّى ركعتين

واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة، فقال المنصور: ما الذي سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض؟ وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني. فقال: إن أمنتني يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها، وإلا احتجرت منك واقتصرت على نفسي فلي فيها شاغل. قال: فأنت آمن على نفسك فقل. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي دخله الطمع وحال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنك؛ فقال: فكيف ذلك ويحك! يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي؟ قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك، إن الله استزعاك أمر عباده وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر، وأبواباً من الحديد، وحرّاساً معهم السلاح، ثم سجنك نفسك عنهم فيها، وبعثت عمالك في جبايات الأموال وجمعها، " وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع " ، وأمرت أن لا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان نفرأ سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري " ولا الضعيف الفقير " إليك، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك، وأثرتهم على رعيّتك، وأمرت أن لا يحجبوا دونك، تجبي الأموال وتجمعها، قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه، فائتمروا أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل " فيخالف أمرهم " إلا خونه عندك ونفوه، حتى تسقط منزلته، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليَقفوا بها على ظلم رعيّتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرّة والثروة من رعيّتك، لينالوا ظلم من دونهم، فامتلات بلاد الله بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه. فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك، وجدك قد نهيت عن ذلك، ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره، سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك " فإن المتظلم منه له بهم حرمة، فأجابهم خوفاً منهم " ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه، فإذا أجهد وأخرج ثم ظهرت صرخ بين يديك، فيضرب ضرباً مبرحاً يكون نكالا لغيره، وأنت تنظر فما تتكر، فما بقاء الإسلام " على هذا " ؟ وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصّين، فقديمتها مرّة وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكى بكاء شديداً، فحثه جلساؤه على الصبر، فقال أما إني لست أبكي

للبلية النازلة بي، ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته. ثم قال: أما إذ قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم. ثم كان يركب الفيل طرقي النهار وينظر هل يرى مظلوماً. فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله، بلغت رأفته بالمُشركين هذا المبلغ وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك، فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عبيراً في الطفل يسقط من بطن أمه ماله على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يدٌ شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست الذي تُعطي، بل الله الذي يعطي من يشاء ما يشاء، فإن قلت إنما تجمع المال لتشدّ به السلطان، فقد أراك الله عبيراً في بني أمية، ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكرّاع حين أراد الله بهم ما أراد، وإن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا

العقد الفريد [1/308]

منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه. يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأشدّ من القتل؟ فقال المنصور: لا؛ فقال: فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن بالخلود في العذاب الأليم؟ قد رأى ما عُقد عليه قلبك، وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحت يداك، ومشت إليه رجلاك، هل يُغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب؟ قال: فبكي المنصور، ثم قال: ليتني لم أخلق. ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلاماً يفرعون إليهم في دينهم، ويرضون بهم في دنياهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسدّوك؛ قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني؛ قال: خافوك أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات من حلها، واقسمها بالحق والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة. وجاء المؤذنون فسلموا عليه، فصلّى وعاد إلى مجلسه، وطلب الرجل فلم يوجد. منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه. يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأشدّ من القتل؟ فقال المنصور: لا؛ فقال: فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن بالخلود في العذاب الأليم؟ قد رأى ما عُقد عليه قلبك، وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحت يداك، ومشت إليه

رَجُلَاكَ، هَلْ يُغْنِي عَنْكَ مَا شَحَحْتَ عَلَيْهِ مِنْ مُلْكِ الدُّنْيَا إِذَا انْتَزَعَهُ مِنْ يَدِكَ
وَدَعَاكَ إِلَى الْحِسَابِ؟ قَالَ: فَبَكَى الْمَنْصُورُ، ثُمَّ قَالَ: لِيَتَّيَّ لَمْ أَخْلُقْ. وَيْحَكَ!
فَكَيْفَ أَحْتَالُ لِنَفْسِي؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ لِلنَّاسِ أَعْلَامًا يَفْرَعُونَ إِلَيْهِمْ
فِي دِينِهِمْ، وَيَرْضَوْنَ بِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ، فَاجْعَلْهُمْ بِطَانَتَكَ يُرْشِدُونَكَ، وَشَاوِرَهُمْ فِي
أَمْرِكَ يُسَدِّدُونَكَ؛ قَالَ: قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْهِمْ فَهَرَبُوا مِنِّي؛ قَالَ: خَافُوكَ أَنْ تَحْمِلَهُمْ عَلَى
طَرِيقَتِكَ، وَلَكِنْ افْتَحَ بَابَكَ، وَسَهَّلَ حِجَابَكَ، وَانصَرَّ الْمَظْلُومُ، وَاقَمَعَ الظَّالِمَ، وَخَذَ
الْفَيْءَ وَالصَّدَقَاتِ مِنْ حِلِّهَا، وَأَقْسَمَهَا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَنَا ضَامِنٌ
عَنْهُمْ أَنْ يَأْتُوكَ وَيَسَاعِدُوكَ عَلَى صِلَاحِ الْأُمَّةِ. وَجَاءَ الْمُؤَدِّثُونَ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ،
فَصَلَّى وَعَادَ إِلَى مَجْلِسِهِ، وَطَلَبَ الرَّجُلَ فَلَمْ يَوْجَدْ (1) ..

فما ظنك بالقول والعمل؟

قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ لِي: مَا الَّذِي بَطَّأ بِكَ عَنِّي؟ قُلْتُ: وَمَا تُرِيدُ مِنِّي
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: الْاِقْتِبَاسُ مِنْكَ؛ قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْظُرْ مَا تَقُولُ،
فَإِنَّ مَكْحُولًا حَدَّثَنِي عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ بُسْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ بَلَغْتَهُ عَنِ اللَّهِ
نَصِيحَةً فِي دِينِهِ فَهِيَ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ سَيِّقَتْ إِلَيْهِ، فَإِنْ قَبِلَهَا مِنَ اللَّهِ بِشُكْرٍ إِلَّا
فَهِيَ حُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ، لِيَزِدَّادَ إِثْمًا وَيَزِدَّادَ اللَّهُ عَلَيْهِ غَضَبًا؛ " وَإِنْ بَلَغَهُ شَيْءٌ
مِنَ الْحَقِّ فَرَضِي فَلَهُ الرِّضَا، وَإِنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ، وَمَنْ كَرِهَهُ فَقَدْ كَرِهَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ " . ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ تَحَمَّلْتَ
أَمَانَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ عُرِضَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا. وَقَدْ جَاءَ عَنْ جَدِّكَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ: " لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا " . قَالَ: الصَّغِيرَةُ: التَّبَسُّمُ.
وَالْكَبِيرَةُ: الضَّحْكُ. فَمَا ظَنُّكَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؟ فَأَعْيذكَ بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ
تَرَى أَنَّ قَرَابَتَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنْفَعُكَ مَعَ الْمُخَالَفَةِ لِأَمْرِهِ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ: يَا
صَفِيَّةُ عَمَةُ مُحَمَّدٍ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، اسْتَوْهَبَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ فَإِنِّي لَا
أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. وَكَذَلِكَ جَدُّكَ الْعَبَّاسُ سَأَلَ إِمَارَةً مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيُّ عَمٍّ، نَفْسٌ تُحْيِيهَا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا. نَظَرًا
لِعَمِّهِ وَشَفَقَةً عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَلِيَ فِيحِيدٌ عَنْ سُنَّتِهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، فَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُ
نَفْعًا، وَلَا عَنْهُ دَفْعًا. وَقَالَ ﷺ: مَا مِنْ رَاعٍ يَبِيتُ غَاشًا لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
رَائِحَةَ الْجَنَّةِ. وَحَقِيقٌ عَلَى الْوَالِي أَنْ يَكُونَ لِرَعِيَّتِهِ نَظَرًا، وَلَمَّا اسْتَطَاعَ مِنْ

عَوْرَاتِهِمْ سَاتِرًا، وَبِالْحَقِّ فِيهِمْ قَائِمًا، فَلَا يَتَخَوَّفُ مُحْسِنُهُمْ مِنْهُ رَهَقًا، وَلَا مُسِيئُهُمْ عَدُوًّا؟ فَقَدْ كَانَتْ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَرِيدَةٌ يَسْتَاكُ بِهَا، وَيَرْدَعُ الْمُنَافِقِينَ عَنْهُ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا هَذِهِ الْجَرِيدَةُ الَّتِي مَعَكَ؟ أَتُرْكُهَا لَا تَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ رُعبًا. فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ سَفَكَ دِمَاءَهُمْ، وَقَطَعَ أَسْتَارَهُمْ، وَنَهَبَ أَمْوَالَهُمْ؟ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الْمَغْفُورَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، دَعَا إِلَى الْقِصَاصِ مِنْ نَفْسِهِ بِخَذَشٍ خَذَشَهُ أَعْرَابِيًّا لَمْ يَتَعَمَّدْهُ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْكَ جَبَّارًا تَكْسِرُ قُرُونِ أُمَّتِكَ. وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ كُلَّ مَا فِي يَدِكَ لَا يَعْدِلُ شَرْبَةً مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ، وَلَا ثَمَرَةً مِنْ ثَمَارِهَا، وَلَوْ أَنَّ ثَوْبًا مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ عُلِقَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَهْلَكَ النَّاسَ رَائِحَتُهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ تَقَمَّصَهُ! وَلَوْ أَنَّ ذَنْوبًا مِنْ " صَدِيدِ أَهْلِ " النَّارِ صُبَّ عَلَى مَاءِ الدُّنْيَا لَأَحْمَمَهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ تَجَرَّعَهُ! وَلَوْ أَنَّ حَلْقَةً مِنْ سُلْسُلِ جَهَنَّمَ وُضِعَتْ عَلَى جَبَلٍ لَأَذَابَتْهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ يُسَلِّكُ فِيهَا، وَيَرْدُ فَضْلُهَا عَلَى عَاتِقِهِ! (1).

فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ أَخَذَهُ كُلُّهُ؟

دَخَلَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: عِظْنِي يَا بَنَ السَّمَاءِ وَأَوْجِزْ. قَالَ: كَفَى بِالْقُرْآنِ وَاعِظًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ: " إِلَى قَوْلِهِ " لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ". هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَيْدٌ لِمَنْ طَفَّفَ فِي الْكَيْلِ فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ أَخَذَهُ كُلُّهُ؟ وَقَالَ لَهُ مَرَّةً: عِظْنِي وَأَتِي بِمَاءٍ لِيَشْرَبَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ حُبِسَتْ عَنْكَ هَذِهِ الشَّرْبَةُ أَكُنْتَ تَقْدِيهَا بِمُلْكِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: فَلَوْ حُبِسَ عَنْكَ خُرُوجُهَا أَكُنْتَ تَقْدِيهَا بِمُلْكِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ " قَالَ " : فَمَا خَيْرٌ فِي مُلْكٍ لَا يُسَاوِي شَرْبَةً وَلَا بَوْلَةً. قَالَ: يَا بَنَ السَّمَاءِ، مَا أَحْسَنَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ! قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ لِي عِيوبًا لَوْ اطَّلَعَ النَّاسُ مِنْهَا عَلَى عَيْبٍ وَاحِدٍ مَا ثَبَتَتْ لِي فِي قَلْبٍ أَحَدٍ مَوَدَّةٌ، وَإِنِّي لَخَائِفٌ فِي الْكَلَامِ الْفِتْنَةَ، وَفِي السِّرِّ الْغَرَّةَ، وَإِنِّي لَخَائِفٌ عَلَى نَفْسِي مِنْ قِلَّةِ خَوْفِي عَلَيْهَا.

ارْفَعْ عِلْمَ الْحَقِّ يَتَّبِعْكَ أَهْلُهُ

دَخَلَ عَمْرُو بْنُ عَبِيدٍ عَلَى الْمَنْصُورِ وَعِنْدَهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ: هَذَا ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلِيُّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَجَائِي أَنْ تَدْعُو لَهُ؛ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ

المؤمنين، أراك قد رَضِيتَ له أموراً يصير إليها وأنت عنه مَشْغُول. فاستَعْبِر أبو جعفر، وقال له: عِظْنِي أبا عثمان؛ قال: يا أمير المؤمنين، إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا، فَاشْتَرِ نَفْسَكَ مِنْهُ بِبَعْضِهَا، هَذَا الَّذِي أَصْبَحَ فِي يَدَيْكَ لَوْ بَقِيَ فِي يَدِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. قال: أبا عثمان، أَعِنِّي بِأَصْحَابِكَ؛ قال: ارفع عِلْمَ الْحَقِّ يَتَّبِعْكَ أَهْلُهُ، ثُمَّ خَرَجْ، فَاتَّبَعَهُ أَبُو جَعْفَرٍ بَصْرَةَ، فَلَمْ يَقْبَلْهَا وَجَعَلَ يَقُولُ:

كُلُّكُمْ يَمْشِي رُؤِيدَ كُلِّكُمْ خَاتِلٌ ... صَيْدَ غَيْرِ عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدٍ

فإنه أعيانا فراراً

لَقِيَ أَبُو جَعْفَرٍ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فِي الطَّوَافِ، وَسُفْيَانٌ لَا يَعْرِفُهُ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى عَاتِقِهِ وَقَالَ: أَتَعْرِفْنِي؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّكَ قَبَضْتَ عَلَيَّ قَبْضَةَ جَبَّارٍ. قال: عِظْنِي أبا عبد الله؛ قال: وما عملتَ فيما عَلِمْتَ فَأَعْظُكَ فِيمَا جَهِلْتَ؟ قال: فما يَمْنَعُكَ أَنْ تَأْتِيَنَا؟ قَالَ إِنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْكُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: " وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ". فَمَسَحَ أَبُو جَعْفَرٍ يَدَهُ بِهِ ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَلْقَيْنَا الْحَبَّ إِلَى الْعُلَمَاءِ فَلَقَطُوا إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سُفْيَانَ فَإِنَّهُ أَعْيَانَا فِرَاراً.

وَمِنْكُمْ أَخَذْتُ، وَإِلَيْكُمْ تُرِدُّ

قَالَ الْعُتْبِيُّ: سَأَلْتُ بَعْضَ آلِ شَبِيبِ بْنِ شَيْبَةَ أَتَحْفَظُونَ شَيْئاً مِنْ كَلَامِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لِلْمَهْدِيِّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ إِذْ قَسَمَ الْأَقْسَامَ فِي الدُّنْيَا جَعَلَ لَكَ أَسْنَاهَا وَأَعْلَاهَا، فَلَا تَرْضَ لِنَفْسِكَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلَ مَا رَضِيَ لَكَ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، فَأَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَعَلَيْكُمْ نَزَلَتْ، وَمِنْكُمْ أَخَذْتُ، وَإِلَيْكُمْ تُرِدُّ.

كَلَّا

قَالَ رَجُلٌ لِلرَّشِيدِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْظُكَ بِعِظَةٍ فِيهَا بَعْضُ الْغِلْظَةِ فَاحْتَمِلْهَا؛ قَالَ: كَلَّا، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ بِالْإِنْفَةِ الْقَوْلِ لِمَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْكَ، قَالَ لِنَبِيِّهِ مُوسَى " عَلَيْهِ السَّلَامُ " إِذْ أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ: " فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى. " (1).

فقد كثر القائلون، وقَلَّ الفاعلون

ووعظ رجل المأمون فأصغى إليه مُنصِتاً، فلما فرغ قال: قد سمعتُ موعظتك، فاسأل الله أن ينفعنا بها وبما عَلِمنا، غيرَ أَنَا أحوجُ إلى المُعَاوَنَةِ بِالْفِعَالِ مِنَّا إِلَى المُعَاوَنَةِ بِالْمَقَالِ، فقد كثر القائلون، وقَلَّ الفاعلون (1).

لو اتَّعَظْنَا بِمَا عَلِمْنَا لَا نَتَفَعْنَا بِمَا عَمَلْنَا

قال العُتْبِيُّ: دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى أَبِي فَوْعِظَةَ، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ أَبِي لَهُ: لَوْ اتَّعَظْنَا بِمَا عَلِمْنَا لَا نَتَفَعْنَا بِمَا عَمَلْنَا، وَلَكِنَّا عَلِمْنَا عِلْمًا لَزِمْتَنَا فِيهِ الْحُجَّةُ، وَغَفَلْنَا غَفْلَةً مَن وَجِبَتْ عَلَيْهِ النَّقْمَةُ، فَوُعِظْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالتَّنَقُّلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمِنْ صِغَرٍ إِلَى كِبَرٍ، وَمِنْ صِحَّةٍ إِلَى سَقَمٍ، فَأَبَيْنَا إِلَّا الْمُقَامَ عَلَى الْغَفْلَةِ، وَإِثَاراً لِعَاجِلٍ لَا بَقَاءَ لِأَهْلِهِ، وَإِعْرَاضاً عَنْ آجِلٍ إِلَيْهِ الْمَصِيرِ.

فَنَخْرُجُ آمِنِينَ؟

قال سعد القَصِير: دَخَلَ أَنَسٌ مِنَ الْقُرَاءِ عَلَى عُتْبَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ فَقَالُوا: إِنَّكَ سَلَّطْتَ السَّيْفَ عَلَى الْحَقِّ وَلَمْ تَسْلُطِ الْحَقَّ عَلَى السَّيْفِ، وَجِئْتَ بِهَا عَشْوَةً خَفِيَّةً. قَالَ كَذَبْتُمْ: بَلْ سَلَّطْتَ الْحَقَّ وَبِهِ سَلَّطْتَ، فاعرفوا الحقَّ تَعْرِفُوا السَّيْفَ فَإِنَّكُمْ الْحَامِلُونَ لَهُ حَيْثُ وَضَعَهُ أَفْضَلُ، وَالْوَاضِعُونَ لَهُ حَيْثُ حَمَلَهُ أَعْدَلُ، وَنَحْنُ فِي أَوَّلِ زَمَانٍ لَمْ يَأْتِ آخِرُهُ، وَآخِرِ دَهْرٍ قَدْ فَاتَ أَوَّلُهُ، فَصَارَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَكُمْ مُنْكَرًا، وَالْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا، وَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ مَهْلًا قَبْلَ أَنْ أَقُولَ لِنَفْسِي هَلَا؟ قَالُوا: فَنَخْرُجُ آمِنِينَ؟ قَالَ: غَيْرَ رَاشِدِينَ وَلَا مَهْدِيَّينَ (2)..

¹ (العقد الفريد ، 1 / 311)

² (العقد الفريد ، 1 / 311)

يا رب، سَلْ عبدك هذا لم قَيَّدني ظلماً وأراع في أهلي

وذكر صالح بن علي الهاشمي قال: حضرت يوماً من الأيام جلوس المهدي للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول إليه ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يتظلم به إليه ما استحسنته، فأقبلت أَرْمُقُهُ ببصري إذا نظر في القصص، فإذا رجع طرفه إليَّ أطرقتُ، فكأنه علم ما في نفسي، فقال لي: يا صالح، أحسب أن في نفسك شيئاً تحب أن تذكره، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فأمسك، فلما فرغ من جلوسه أمرني أن لا أبرح ونهض فجلستُ جلوساً طويلاً، ثم دعاني فدخلت إليه وهو على حصير الصلاة، فقال لي: يا صالح، أتحدثني بما في نفسك أو أحدثك به. قلت: بل هو من أمير المؤمنين أحسن، فقال: كأي بك قد استحسنت ما رأيت من مجلسنا، فقلت: أي حليفة إن لم يكن يقول بخلق القرآن، فقلت: نعم، فقال: قد كنت على ذلك برهة من الدهر حتى أقدم على الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من أهل أذنه من الثغر الشامي مقيد طوال، حسن الهيئة، فسلم عليه غير هائب، ودعا فأوجز، فرأيت الحياء منه في حماليق عين الواثق والرحمة له، فقال له: يا شيخ أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فيما يسألك عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، أحمد يقلّ ويضعف عن المناظرة، فرأيت الواثق قد صار في مكان الرقة والرحمة له غضباً، فقال له: أبو عبد الله يضعف عن المناظرة؟ فقال له: هَوْن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن في كلامه؟ فقال له الواثق: قد أذنت لك، فأقبل الشيخ على أحمد فقال له: يا أحمد ماذا دعوت الناس إليه؟ فقال: إلى القول بخلق القرآن، فمال الشيخ: مقالتك هذه التي دَعَوْتَ الناس إليها من القول بخلق القرآن، داخلة في الدين فلا يكون الدين تاماً إلا بالقول بها. قال: نعم، قال الشيخ: رسول الله ﷺ دعا الناس إليها أو تركهم. قال: تركهم، قال: فعلمها رسول الله ﷺ أو لم يَعْلَمَهَا؟ قال: علمها، قال: فلم دعوت الناس إلى ما يدْعُهُم إليه رسول الله ﷺ وتركهم منه؟ فأمسك أحمد، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، هذه واحدة، ثم قال له بعد ساعة: يا أحمد، قال الله في كتابه العزيز: " اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً " فقلت أنت: لا يكون الدين تاماً إلا بمقالتك بخلق القرآن، فالله أصدق في إكماله وإتمامه أو أنت في نقصانك؟ فأمسك، قال الشيخ: يا أمير المؤمنين وهذه ثانية، ثم قال له بعد ساعة: أخبرني يا أحمد عن قول الله عز وجل في كتابه: " يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك " الآية فمقالتك هذه التي دعوت الناس إليها بَلِّغْهُ الرسول ﷺ للأمة أم لا؟ فأمسك، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، وهذه ثالثة، ثم قال بعد ساعة: أخبرني يا أحمد لما علم

رسول الله ﷺ من مقاتلتك هذه التي دعوت الناس إليها وإلى القول بها من خلق القرآن أوسعهُ أن أُمسِكَ عنهم أم لا؟ قال أحمد: بل اتسع له ذلك، فقال: وكذلك لأبي بكر وعمر، وكذلك لعثمان، وكذلك لعلي، رضي الله عنهم! قال: نعم، فصرف وجهه إلى الواثق وقال: يا أمير المؤمنين، وإذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه فلا وَسَّعَ الله علينا، فقال الواثق: نعم لا وَسَّعَ الله علينا إن لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه، ثم قال الواثق: اقطعوا قيده، فلما فكوا قيده عنه جاذب عليه، فقال الواثق: دعوه، ثم قال للشيخ: لم جاذبت عليه. قال: لأنني عقدت في نيتي أن أجاذب عليه، فإذا أخذته أوصيت أن يجعل بين كفني وبدني حتى أقول: يا رب، سَلْ عبدك هذا لم قَيَّدَنِي ظِلْماً وأراع في أهلي، فبكى الواثق، وبكى الشيخ وكل من حضر، ثم قال له الواثق: يا شيخ، اجعلني في حلٍّ فقال: يا أمير المؤمنين، ما خرجت من منزلي حتى جعلتك في حلٍ إعظماً لرسول الله ﷺ ولقربائك منه، فتهلَّل وجه الواثق وسره، ثم قال له: أقم عندي آنس بك، فقال: مكاني في ذلك الشجر أنفع، أنا شيخ كبير، ولي حاجة، قال: سَلْ ما بدا لك، قال: يأذن أمير المؤمنين لي في الرجوع إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم، قال: قد أذنت لك، وأمر له جائزة، فلم يقبلها، فرجعت من ذلك الوقت عن تلك المقالة. وأحسب أن الواثق رَجَعَ عنها (1).

إن تكلمت خفت منك وإن سكت خفت عليك

ووعظ المستضيء يوماً فقال يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك وإن سكت خفت عليك فأنا أقدم خوفاً عليك على خوفاً منك لمحبتتي لدوام أيامك وإن قول القائل اتق الله خير من قول القائل أنتم أهل بيت معفور لكم وقال الحسن البصري لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى تبلغ المأمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ولم أغيره فأنا الظالم يا أمير المؤمنين كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط لنلا ينسى الجوع وكان عمر رضي الله عنه يصبر بطنه عام الرمادة فيقول قرقرى إن شئت أو لا

تقرقرى فوالله لا شبعى والمسلمون جىاع فقصق الخلفة المسقصىء بصصقاص كصصرة وأطلق من فى السصن .

وقال رصمه الله تعالى لبعص الولاة اذكرا عىل الله فىك وعىل العقوبة قىرة الله علك وإىاك أن تصفى غىظك بسقم ءىنك

وقال الطاعة تصسط اللسان والمعاصى تصل الإنسان (1).

نصصحة الإمام الغزالى لمصمى بن ملكشاه :

عنىما علم الإمام أبو صامى الغزالى أن السلطان مصمى بن ملكشاه تصلى الصكم، أرسل له كتاباً صصاطبه فىه قائلأ : أعلم صا سلطان العالم أن بنى آءم طائفان : طائفة عفلاء نظروا إلى مصاهد صال ءلنصا، وتمسكوا بآأمىل العمر الطوىل ولم يصفكروا فى النفس الآخرى، وطائفة عقال جعلوا النفس الآخرى نصب أعىنهم لىنظروا إلى ماآا صكون مصىرهم وكىف صخرجون من ءلنصا، وىفارقونها وإىمانهم سالم وما الذى صنزل من ءلنصا فى قبورهم وما الذى يصركون لأعاصىهم من بعءهم وصىقى علكهم وباله ونكاله (2).

وقء جاءص رواىاص أخرى فى نصصحة الإمام الغزالى ذكر فىها : وصىب أن تصلم أن صلاح الناس فى حسن سىرة الملك، فىنبغى للملك أن صنظر فى أمور رعىته، وىقف عىل قلىلها وكصصرها وعظىمها وحقىرها، لا ىشارك رعىته فى الأفعل المءمومة، وصىب اصآرام الصالحىن، وأن ىصبص على الفعل الجمىل، وصىمنع من الفعل الرءىء الوبىل، وىعاقب فى ارصكاب القبىص، ولا صصابى من أصر على القبىص، لىرغب الناس فى الصخراص وىصذروا من السىئاص، ومصى كان السلطان بلا سىاسة وكان لا ىنهى المفسء عن فساه وىصركه عن مراده، أفصء سائر أموره فى بلاهء. وقال الصكماء : إن طباع الرعىة نصىجة طباع الملك، لأن العوام

¹ (المقرى ، نفص الطىب ، 5 / 164

² (وفىاص الأعىان ، 5 / 72 ، 73

إنما يبخلون، ويركبون الفساد، وتضييق أعينهم اقتداءً منهم بملوكهم، فإنهم يتعلمون منهم، ويلزمون طباعهم، ألا ترى أنه قد ذكر في التاريخ أن الوليد بن عبد الملك - من بني أمية - كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة وكان سليمان بن عبد الملك همته في كثرة الأكل وتطيب الطعام، وقضائه الأوطار، وبلوغ الشهوات، وكانت همة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة. قال محمد بن علي بن الفضيل : ما كنت أعلم أمور الرعية تجري على عادة ملوكها، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبد الملك قد اشتغلوا بعمارة الكرم والبساتين، واهتموا ببناء الدور، وعمارة القصور ورأيتهم في زمان سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام، حتى كان الرجل يسأله صاحبه : أي لون اصطنعت، وما الذي أكلت ؟ ورأيتهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة، وتفرغوا لتلاوة القرآن وأعمال الخيرات، وإعطاء الصدقات لتعلم أن في كل زمان تقتدي الرعية بالسلطان، ويعملون بأعماله، ويقتدون بأفعاله : من القبيح والجميل، واتباع الشهوات، وإدراك الكمالات، كما يقال (1).

ما الذي كان في قلبك حيث شمك؟

رأى الإمام المحدث الزاهد بنان الواسطي وزيراً لخمارويه - صاحب مصر - على فرس - وكان الوزير نصرانياً - فقام إليه وأنزله عن مركوبه وقال : لاتركب الخيل وعير (2). ، كما هو مأخوذ عليكم في الذمة ، فأمر خمارويه بأن يؤخذ ويوضع بين يدي سبع ، فطرح فبقى ليلة ، ثم جاؤوا والسبع يلحسه وهو مستقبل القبلة ، فأطلقه خمارويه واعتذر إليه .

قال الحسين بن أحمد الرازي: سمعت أبا علي الروذباري يقول:

¹ (محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (المتوفى : 505هـ) ، التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، 19/ وقد ذكر بعض المؤرخين أن كتاب الغزالي التبر المسبوك في نصيحة الملوك هو عبارة عن توجيهات للسلطان محمد بن ملكشاه الذي كان مستولياً في عهد المستظهر بالله العباسي، خاطب فيه الغزالي السلطان محمد وذكره بنعم الله عليه وأهم تلك النعم نعمة الإيمان ²) وعير : أي اركب العير وهو الحمار ..

كان سبب دخولي مصر حكاية بنان الحمال، وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف، فأمر به أن يلقي بين يدي سبع، فجعل السبع يشمه ولا يضره، فلما أخرج من بين يدي السبع، قيل له: ما الذي كان في قلبك حيث شمك؟

قال: كنت أفكر في سور السباع ولعابها (1).

لو علمت أن في بطنك خمرا لشققته بهذه الحربة

حكي عن أبي بكر الشبلي رحمه الله أن سفينة مشحونة بخواب من خمر حملت من مصر للخليفة فألقى نفسه فيها فجعل يأخذ واحدا ويريقها كلها والقوم سكوت من هيبتة حتى بقي واحد فلم يرقها فأتى به إلى الخليفة وهو المعتصم فقال له لم فعلت هذا قال أيد الله تعالى الخليفة لو علمت أن في بطنك خمرا لشققته بهذه الحربة فقال له المعتصم أنا أعلم ما قصدك من هذا قصدك أن أقتلك حتى تصير شهيدا فلا أفعل ما قصدت ثم قال لم تركت الخابية الواحدة فقال حين كنت أريقها لم أكن أرى نفسي فيها فلما لم يبق إلا واحد رأيت نفسي عندها فتركتها ولم أريقها بمراد نفسي وينبغي ألا يخاف في احتسابه إلا الله تعالى بل يستعين به ويدخل فيه متوكلا على الله تعالى لقوله تعالى ! (أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) (2).

فأنا مع الرب الذي هو مالك الحوائج كلها

وحكي أن أبا غياث الزاهد كان يسكن بمقابر بخارى فدخل المدينة ليزور خاله في الله تعالى وكان غلمان الأمير نصر بن أحمد والمغنون يخرجون من داره معهم المعازف والملاهي وكان هناك ضيافة عند الأمير فلما رآهم الزاهد

قال يا نفس وقع الأمر إن نهيت ففيه خوف تلفك وإن سكت فانت شريكهم فرفع رأسه إلى السماء واستعان بالله تعالى وأخذ العصا وحمل عليهم حملة فولوا منهزمين مدبرين إلى دار السلطان وخلفهم الزاهد فأرسل إليه فأتى الزاهد فقال

¹ (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى : 748هـ) ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الثالثة ، 1405 هـ / 1985 م ، 489/14

² (عمر السنامي، نصاب الاحتساب ، ص 335

له السلطان أما تعلم أن من خرج على السلطان يتغذى في السجن فقال له غياث أما علمت أن من يخرج على الرحمن يتعشى في النيران فقال له الأمير من ولاك الحسبة قال الذي ولاك الامارة قال ولاني الإمارة الخليفة قال غياث ولاني الحسبة رب الخليفة فقال الأمير وليتك الحسبة بسمرقند قال عزلت نفسي عنها قال العجب في أمرك تحتسب حيث لم تؤمر وتمتنع حيث تؤمر قال لأنك إذا وليتني عزلتني وإذا ولاني ربي لم يعزلني أحد قال الأمير سل حاجة قال أترد علي شبابي قال الأمير ليس ذلك إلي سل أخرى قال أكتب إلي مالك خازن جنهم أن لا يعذبني قال ليس ذلك إلي سل أخرى قال أكتب إلي رضوان أن يدخلني الجنة قال ليس ذلك إلي قال فأنا مع الرب الذي هو مالك الحوائج كلها لا أسأله حاجة إلا أجابني إليها فخلى الأمير سبيله فذهب (1).

وأخيراً :

أسأل الله أن ينصر دينه ويعلي كلمته ويخذل أعداءه، وأن يبرم لهذه الأمة أمر
رشد يعز فيه أهل طاعته، ويذل فيه أهل معصيته، ويؤمر فيه بالمعروف
وينهى فيه عن المنكر، إنه سميع الدعاء، اللهم وأظهر الهدى ودين الحق
الذي بعثت به نبيك محمدًا ﷺ على الدين كله ولو كره المشركون، كما أسأله
سبحانه أن يصلح ولادة أمورنا، ويهديهم الصراط المستقيم، ويعيذهم من
بطانة السوء.

كما أسأله سبحانه أن يصلح فساد القلوب والأعمال، ويهدينا صراطه
المستقيم، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، ومقرباً لديه للفوز بجنت
النعيم، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله وسلم زبارك على
حبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله ، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفور ولا مودَّع ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته ، وأن يوفِّقنا لأداء حَقِّه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله ، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده . فيا أيها القاريءُ له ، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه ، لك ثمرته وعليه تبعته ، فما وجدت فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يردَّ الحقَّ إذا جاء به من يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: " : اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً ، وردَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً .

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: "فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات".

وقال أيضاً: " .. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب"(1).

فإذا مر بك -يا أخي- ما لا يعجبك فلا تصعِّر خدك، ولا تعرض بوجهك، ولا تسئل لسانك، ولا تجلب بخيلك ورَجْلَكَ، وخذ من الكتاب ما يعجبك واتهم الفهم.

فَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

ولا يصدنك عن الحكمة قائلها؛ فقد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون الرمية من غير الرامي، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه.

اعْمَلْ بِعِلْمِي وَغُضِّ الطَّرْفَ عَنْ زَلَّيْ يَنْفَعَكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يأل جهد الإصابة ، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال ، كما قيل :

وَالنَّقْصُ فِي أَصْلِ الطَّبِيعَةِ كَامِنٌ ... فَبَنُوا الطَّبِيعَةَ نَقْصُهُمْ لَا يُجَحِّدُ

وكيف يُعَصِّمُ من الخطأ من خُلِقَ ظلوماً جهولاً ، ولكن من عُدَّتْ غلطاته أقرب إلى الصوابِ ممن عُدَّتْ إصاباته ، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق ، وغايته النصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولإخوانه المسلمين ، وإن جعل الحق تبعاً للهوى : فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ ... والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت